الموقف الأدبي



280



الثقافة الجديدة

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

280

كانون الثاني - شباط ١٩٩٨

محتويات العدد

أدب وفن

● الغلاف الأول : الجبل ، للفنان بختيار سور

● الغلاف الأخير : غلاف العدد الخاص بالجواهري (٢٧٩)

أغلق التحرير في ١٩٩٨/١/١٥

توجهات «الثقافة الجديدة»

مؤخراً شهدت هذه المجلة خطوات تستهدف تطوير آلية تحريرها وإدارتها لإغناء روافدها، كماً ونوعاً، وتوسيع وتمتين الروابط مع الكتاب والمبدعين في مختلف المنافي، وفي كردستان وباقي أرجاء الوطن، فضلاً عن مواصلة الجهود الرامية الى الارتقاء بمستوى ما تنشر لتسهم إسهاماً فاعلاً في معالجة القضايا الفكرية والثقافية الرئيسية التي يطرحها عالمنا المعاصر ارتباطاً بواقع بلادنا ومتطلبات معرفتنا به وتغييره.

كانت أبرز معايير اختيار مجلس التحرير الاستعداد مع الكفاءة للإسهام الفاعل في الكتابة للمجلة وتعبئة الآخرين لدعمها بنتاجاتهم، من خلال التفاعل الحيوي مع محيطهم الثقافي المنتج، وفتح المزيد من قنوات الحوار والسجال حول القضايا الرئيسية في ماضي العراق وحاضره والبدائل المختلفة لمستقبله.

وإذ تباشر المجلة الصيغة الجديدة لعملها، تجد من مسؤولياتها، إزاء قرائها وكتابها، إعلان التوجهات الأساسية التي يعتمدها مجلس التحرير في عمله وتصوراته حول وجهة المجلة فكرياً وثقافياً.

يعلم أغلب قراء المجلة وكتابها أنها انبثقت عام ١٩٥٣ على يد مثقفين ماركسيين ويساريين لتعنى بنشر الفكر العلمي والثقافة التقدمية. وهي إذ تظل اليوم يسارية الوجهة ضمن التيار الماركسي، فإنها منفتحة على ما هو تنويري وديمقراطي في التيارات الفكرية والسياسية الأخرى، وذلك على أساس الحوار الذي يحتكم الى القواعد السليمة، ويسوده احترام الرأي الآخر بعيداً عن التزمت والتحامل السياسي والشخصي. إن اهتمامات المجلة معرفية وثقافية أساساً، وهي إذ تربطها وشائج خاصة بالحزب

الشيوعي العراقي، فإنها ليست معنية بالتحريض المباشر والإعلام الخبري. وحين تنشر بعض وثائق الحزب المحورية فإنها ترحب بالمناقشات الرصينة لها تجسيداً لنهج الديمقراطية والتجديد والحوار الذي يتكرس في فكر وممارسة الحزب نفسه.

ومن خلال باب «أدب وفن» تسعى المجلة الى الإسهام، مع غيرها، في تنمية الثقافة الجمالية لدى القارئ، ومتابعة الحركة الإبداعية، لاسيما العراقية، والتعريف بنتاج مبدعينا، والحفاوة بأبرزهم. وهي تعطي الأسبقية لنشر الأبحاث، ومقالات النقد لمختلف الظواهر والأعمال الإبداعية.

وفق هذه المنطلقات والتوجهات نسعى الى إعطاء الأولوية للدراسات والمعالجات الرصينة حول المحاور التالية:

- تاريخ وحاضر ومستقبل مجتمعنا بمختلف مكوناته وجوانب حياته.
- القضايا القومية، العربية والكردية.
- التطورات الجارية في محيطنا الإقليمي، بما في ذلك الستراتيجيات المطروحة منذ الثمانينات للمنطقة العربية.
- التطورات الجارية في العالم الرأسمالي، بجزئيه المتقدم والمتخلف، وما انبثق عنها من ستراتيجية عالمية منذ نهاية الحرب الباردة.
- الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لآخر منجزات العلم والتكنولوجيا، لاسيما المعلوماتية.
- التغيرات الجارية في الطبيعة، من حيث المناخ، التلوث، نضوب الموارد، المياه.. الخ.
- الديمقراطية من حيث القيم، المُثل، المؤسسات والممارسة.
- الفكر الماركسي بمختلف جوانبه وتياراته:
  * التجارب المنهارة والقائمة لبناء الاشتراكية.
  * التصورات الجديدة لبناء الاشتراكية على أساس الديمقراطية السياسية.
- مشكلة المياه، محلياً وإقليمياً.
- الجاليات العراقية المغتربة، أوضاعها وآفاقها.

ونحن إذ نطرح توجهات المجلة واهتماماتها، نرحب بما يرد حولها من ملاحظات، ونأمل أن يسهم الكتاب والمبدعون في إغنائها وفي تحقيقها بما يخدم الثقافة الديمقراطية بعيداً عن نزعة احتكار الحقيقة.

مجلس التحرير

نموذج التنمية في كوريا الجنوبية وأزمته

مقابلة مع د. عباس النصراوي

في افتتاحية العدد الصادر في ٢٠ كانون الأول ١٩٩٧ قالت مجلة (الايكونومست) المحافظة مايلي: «إذ يقترب عام ١٩٩٧ من نهايته، لا نخطئ في القول إن أهم ظاهرة شهدها العام هي الاضطراب المالي في آسيا... فأحوال آسيا تطرح أهم الأسئلة، وقد يكون لها أبعد العواقب (...) فحين امتدت القصة الى كوريا الجنوبية واليابان فإن الاضطراب اكتسى خطورة اضافية، لأن اقتصاديهما من أضخم اقتصادات العالم، وهما من أضخم مستوردي العالم، بالاضافة الى انتشار استثماراتهما في أرجاء العالم كافة. فحصول كارثة مالية فيهما يمكن أن يؤدي الى التباطؤ، بل حتى الكساد الاقتصادي، على نطاق عالمي» وبعد أن أشارت الى مظاهر الاضطراب وأسبابه اختتمت (الايكونومست) افتتاحيتها بالقول: «كل ما يمكن أن يقال دون تردد عن متاعب آسيا: إنها جدية، وإن خطر انتشارها الى بقية أنحاء العالم جدي أيضاً. والعبرة الأساسية، سواء على النطاق الاقليمي أم العالمي، هي عبرة ما حدث في أمريكا عام ١٩٢٠. فهبوط الأسعار والكساد يمكن تفاديهما. لكن الانهيار المالي يجعل حصولهما ممكناً، لأنه يدمر الثقة التي يعتمد عليها النشاط الاقتصادي...».

في مطلع العام الجديد أمضى الأستاذ د. عباس النصراوي بضعة أيام في لندن لحضور المؤتمر السنوي للمنتدى الاقتصادي العراقي الذي جدد انتخابه رئيساً للمنتدى. فاغتنمت المجلة هذه الزيارة لإجراء مقابلة معه حول الأزمة الاقتصادية التي

بدأت في عرين «النمور الآسيوية» قبل بضعة أشهر. لكنه فضل الحديث عن حالة كوريا الجنوبية التي تحمل أغلب السمات الأساسية لنموذج التنمية في بلدان شرق وجنوب شرق آسيا، ولأن اقتصاد كوريا الجنوبية هو الأضخم وعواقب أزمته خارجياً هي الأشد منها في بقية بلدان هذه المجموعة.

طرحت المجلة أمام الأستاذ النصراوي طائفة من الأسئلة حول سمات هذا النموذج، منجزاته الاقتصادية والعوامل الكامنة وراءها، معالم الأزمة الحالية، أسبابها، عواقبها الداخلية والعالمية، علاجاتها والدروس التي تمخض عنها النموذج بالنسبة للبلدان النامية وذلك في إطار العولمة التي نلاحظ تجلياتها في الأسباب والآثار والعلاجات.

لقد سجلنا حديثه في الثالث من كانون الثاني، وأثناء إعداده للنشر تناقلت وسائل الإعلام أنباء تداعيات الأزمة في المنطقة وخارجها، لاسيما انهيار سعر الروبية الأندونيسية، وتأثير الأزمة على أسعار النحاس والذهب، كما أن الأزمة صارت من عوامل هبوط أسعار النفط الخام. وحتى غلق التحرير ظل التشاؤم يغلب على التنبؤات بشأن آفاق الأوضاع الاقتصادية في المنطقة والى حد ما خارجها. ولكن لنعد الى أصل القصة كما رواها الأستاذ النصراوي:

القصة هي كما يلي: بدأت التنمية المعاصرة لاقتصاد كوريا الجنوبية في أوائل الستينات وتواصلت أكثر من ثلاثة عقود. وتحققت تنمية مطردة باهرة بحيث صار اقتصادها يعتبر الحادي عشر في سلّم الاقتصادات الضخمة في العالم عام ١٩٩٥ إذ ارتفع الناتج المحلي الاجمالي الى سبعة أمثاله خلال ١٥ سنة. وعند معاينة هذه السيرورة بموضوعية لابد أن نأخذ بالاعتبار الأمور التالية:

أولاً، من المعروف أن كوريا، بجزئيها الجنوبي والشمالي، كانت تحت احتلال اليابان حتى سنة ١٩٤٥. فانشأ اليابانيون صناعة في كوريا لخدمة أغراضهم العسكرية والاقتصادية بالاستفادة من الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة محلياً. وهكذا نشأت وتطورت تقاليد ومؤسسات صناعية ساعدت على إطلاق سيرورة التنمية السريعة لاحقاً.

ثانياً، عاشت التجربة الكورية عموماً في ظل الحرب الباردة التي تخللتها حرب طاحنة ساخنة بين الكوريتين بمساعدة حلفائهما. فأمريكا ظلت معنية بتقدم كوريا

الجنوبية على كوريا الشمالية من الناحية الاقتصادية. وقدمت لها معونات اقتصادية كبيرة من أموال الميزانية الأمريكية، وهي هبات وليست قروضاً.

ثالثاً، أجرت كوريا الجنوبية إصلاحاً زراعياً ناجحاً، على غرار النموذج الياباني (الاصلاحات في اليابان بدأت عام ١٨٦٨ في امبراطورية (ميجي) الجديدة، ومنذئذ برز دور الدولة اليابانية في التنمية الاقتصادية) فالإصلاح الزراعي في الحالتين حقق توفير الغذاء اللازم للعاملين في الصناعة، ونتيجة ارتفاع إنتاجية العمل الزراعي صار بالإمكان انتقال أعداد متزايدة من الفلاحين الى الصناعة النامية، ثم انه وفّر مواد أولية لهذه الصناعة، وكذلك ساعد ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين ومن انتقل منهم الى الصناعة، وبذلك توسعت السوق المحلية اللازمة لتصريف منتجات صناعية.

رابعاً، تجسد دور الدولة الحاسم في التنمية ليس فقط في إجرائها الاصلاح الزراعي اللازم لانطلاق الصناعة، بل انها حرصت على توجيه التصنيع، بل التنمية بوجه عام، حسب الأهداف المقررة. فهي تنمية رأسمالية موجهة من قبل الدولة. وكان لهذه الرأسمالية الموجهة مكونات أساسية تتمثل في:

١ـ توجيه الصناعة نحو التصدير، باستخدام المساعدات والحوافز التي تقدمها الدولة للشركات المنتجة لسلع التصدير، فالبنوك كانت ملك الدولة حتى سنة ١٩٨٠، فكانت تقدم القروض الميسّرة للشركات، أي بفوائد واطئة، وتوفر لها النقد الأجنبي بأسعار مخفضة لكي تستطيع استيراد اللوازم والتكنولوجيا للصناعات التصديرية. يضاف الى هذا ما تمنحه الدولة من إعفاءات أو تخفيضات في الضرائب على مثل هذه الصناعات.

٢ـ تولت الدولة قمع الحركة النقابية المستقلة للحيلولة دون المطالبة بزيادات الأجور. وهذا دعم هام للشركات، لكن هذه السياسة كانت ذكية إذ ألزمت الشركات بزيادة محددة للأجور، ووضعت ضوابط ضد الطرد الكيفي للعاملين. فارتفاع مستوى معيشتهم ساعد بدوره على توسيع الطلب المحلي على منتجات الصناعة. (للمزيد عن الحركة النقابية انظر المقالة التالية ـ المحرر).

٣ـ قدمت الدولة للتنمية خدمة عظيمة بإقامة البنى الارتكازية الحديثة، مثل شبكات المواصلات والاتصالات، وتوفير الطاقة وإعداد القوى العاملة المؤهلة عن طريق تعميم

التعليم الابتدائي وتوسيع التعليم الثانوي دون التركيز على التعليم الجامعي بل إيفاد الطلبة للدراسة في الخارج.

٤ـ في المرحلة الأولى من التصنيع كان التوجيه الحكومي نحو الصناعات المتميزة بكثافة العمل، وذلك لاستيعاب الفائض من القوى العاملة الزراعية، مثل صناعة الملابس والأحذية واللعب وغيرها، كذلك ركزت على الصناعات المعوِّضة عن الاستيراد. وبعد هذه المرحلة تحول التوجيه نحو الصناعة التصديرية كثيفة الرأسمال والمهارة والتكنولوجيا العالية، مثل صناعة السيارات والأجهزة الالكترونية. وقد أشرفت الدولة على استيراد التكنولوجيا العالية بعقود مع الشركات المتعددة الجنسيات.

كل هذه السياسات أدت الى زيادة أرباح الشركات وبالتالي تسريع التراكم، بتحويل الأرباح، والمدخرات عامة، الى الاستثمار. وهكذا نما الدخل القومي نمواً سريعاً. (مثلاً بلغ المعدل السنوي لنمو الناتج القومي الاجمالي للفرد من السكان ٧,٧٪ بين ١٩٨٥ ـ ١٩٩٥، فبلغ متوسط الناتج القومي الاجمالي للفرد ٩٧٠٠ دولار بحلول عام ١٩٩٥. فصارت كوريا الجنوبية تصنف دولياً في عداد الدول ذات الدخل العالي) واتبعت الدولة سياسة ذكية في إعادة توزيع الدخل لتفادي تفاقم التباين بين السكان من حيث الدخل في سياق النمو السريع. ولذلك فإن هذا التباين كان أقل حدة منه في البلدان النامية عموماً.

كانت الدولة تضع قيوداً أمام تغلغل الشركات متعددة الجنسيات، أي أن الاقتصاد الكوري كان يتمتع بحماية من الاستثمارات الاجنبية وكذلك تمتع بحماية تجارية للصناعة الوطنية أمام المنافسة الأجنبية. وكانت بعض الصناعات تتمتع بمساعدة الدولة حتى وإن لم تتوفر لها المواد الأولية والتكنولوجيا محلياً. وفاتني أن أذكر أن تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية استند الى تخطيط تنموي يتوخى أهدافاً تنموية حتى بالنسبة للعديدة من الشركات، فالشركة التي تريد المساعد الحكومية، يُطلب منها مثلاً أن تحقق أهدافاً معينة في صادراتها، وتستخدم لهذا الغرض أيضاً الوسائل الضريبية والسعرية لحفز الشركات على اتباع السياسة الاقتصادية التي ترسمها الدولة. وكانت الشركات تُشجع لتصدير منتوجاتها بأسعار تنافسية واطئة وتحقق الربح برفع أسعار نفس المنتجات في السوق المحلية المحمية من المنافسة الأجنبية. وكانت الدولة تتولى تنسيق استيراد حقوق استخدام التكنولوجيا الأجنبية، وتحفز الشركات على تحسين مستوى التكنولوجيا التي تستخدمها لزيادة الانتاجية ولرفع قدرتها التنافسية في الأسواق الخارجية.

هكذا نرى أن الدولة كانت ترمي الى تنمية الرأسمالية بالحوافز والدعم والحماية. فالسوق الكورية لم تكن حرة، ونشاط المستثمرين كان موجهاً ومحفزاً لتحقيق الأهداف التي يرسمها التخطيط التنموي للدولة. فالنمط الكوري وأمثالة من «النمور الاقتصادية» في آسيا هو رأسمالية موجهة من الدولة التي ترسم وتوجّه النشاط الاقتصادي في ظل نظام تسلطي للحكم ترأسه جنرالات من الجيش. وكان الفساد ملازماً لحكم كهذا غير خاضع للمساءلة أو لرقابة وسائل الإعلام المحرومة من الحرية. فجدير بالذكر أن آخر رئيسين لكوريا حوكما وسجنا بتهمة استلام الرشاوى الضخمة ناهيك عن أعمال القمع الواسعة، ولكن سراحهما أطلق مؤخراً!

الأزمة وعواقبها

قلنا إنّ التنمية في كوريا الجنوبية قد حققت منجزات اقتصادية ضخمة. فبات اقتصادها أكثر اندماجاً في الاقتصاد الدولي، وبالتالي تزايد التأثير المتبادل بين الطرفين وفي غضون ذلك تزايد تخلف اقتصاد كوريا الشمالية في السباق مع الجنوب، وراحت الصين تنفتح أكثر فأكثر أمام الاستثمار الرأسمالي الأجنبي، ويتسع المجال فيها أمام تنامي الرأسمال المحلي، وطغت البراغماتية على سياستها الخارجية فكفت عن دعم بعض القوى اليسارية في الخارج. ثم شهدت التسعينات انهيار النموذج السوفيتي لبناء الاشتراكية في أوروبا، وتفكك الاتحاد السوفيتي نفسه وانتهت الحرب الباردة. وهكذا لم تعد هناك مبررات لدوام الرعاية الأمريكية لتجربة التنمية في كوريا الجنوبية ومثيلاتها في شرق وجنوب شرق آسيا. وقد تنامت، في غضون ذلك، المنافسة من جانب الصين والهند وأمثالهما من البلدان ذات الأجور الأوطأ بكثير من الأجور في كوريا الجنوبية.

لقد اقترضت البنوك الكورية أموالاً هائلة من بنوك اليابان وأمريكا وأوروبا الغربية لكي تستطيع تلبية الطلب على أموال تستثمرها الشركات الكورية في صناعة السيارات والأجهزة الالكترونية التي ازدهرت كثيراً في الثمانينات. وكانت القروض الغربية لبنوك كوريا قصيرة الأجل، أما قروض هذه البنوك للشركات المحلية فكانت متوسطة أو طويلة الأجل. وظلت البنوك الغربية على أتم استعداد لإقراض المزيد من المال مادام الاقتصاد مزدهراً في كوريا الجنوبية وبنوكها قادرة على التسديد ودفع الفوائد العالية.

ومعروف أن النظام الرأسمالي بطبيعته يميل الى الإفراط في الانتاج بالمقارنة مع

الطلب الفعال، أي المدعوم بالقدرة الشرائية، سواء في داخل البلد أم في السوق العالمية. لنأخذ صناعة السيارات على سبيل المثال. فهناك طاقة انتاجية في العالم لإنتاج حوالي ٨٠ مليون سيارة سنوياً، أما السوق فلا تستوعب سوى حوالي ٦٠ مليون سيارة، ولا يمكن تصريف الفائض دون تخفيض الأسعار وبالتالي تخفيض أرباح الشركات أو إصابتها بالخسائر والإفلاس. وهذا الكساد تعاني منه صناعات عديدة. ففي كوريا الجنوبية أفلست حوالي ١٥ ألف شركة صغيرة نسبياً خلال السنوات الأخيرة، وحلت البطالة بالمشتغلين فيها، وهذا يؤدي الى هبوط الطلب الفعال على أغلب المنتجات. وبسبب الكساد لا تستطيع الشركات تسديد ما اقترضت من البنوك الأجنبية. وأدى ذلك الى هبوط قيمة العملة المحلية الـ WON. ولأن الدولة حاولت دعم العملة المحلية، راحت تضخ مما لديها من احتياطي العملة الأجنبية. كل ذلك يؤدي الى هبوط الثقة بالاقتصاد من قبل الرأسماليين الأجانب فيعملون على سحب أموالهم من كوريا، سواء المستثمرة في القروض قصيرة الأجل أم في أسهم الشركات الكورية التي أتيح لهم شراؤها في التسعينات. وتحول ميزان المدفوعات من الفائض الى العجز، وصار الناس يشترون الدولار وبقية العملات الأجنبية للمحافظة على قيمة مدخراتهم.

لجأت الدولة الى صندوق النقد الدولي لإنقاذ الاقتصاد من الأزمة المستفحلة، وذلك بعد أن رفضت أمريكا واليابان إقراضها. وجدير بالذكر أن اليابان كانت قد اقترحت، في بداية الأمر، إنشاء صندوق آسيوي خاص لإغاثة البلدان التي تعاني الأزمة، فاعترضت أمريكا بحجة أن هذا الاجراء سيكون له تأثير سيئ على سياسة العولمة، وأصرت على لجوء كوريا الى صندوق النقد الدولي. وقبل التطرق الى دور هذا الصندوق من المهم الاشارة الى ما يسمى «وفاق واشنطن» حول السياسات المقترحة للبلدان النامية التي تواجه المصاعب. وهذا الوفاق نابع من تفكير الادارة الأمريكية، لاسيما وزارة الخزانة، والبنك المركزي، و«بنوك الأفكار» المهيمنة، بمعنى مؤسسات أمريكا المعنية برسم السياسة إزاء البلدان النامية. ويتولى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي تنفيذ السياسة النابعة من هذا «الوفاق». وهاتان المؤسستان الدوليتان خاضعتان للفيتو من جانب أمريكا باعتبارها المساهم الأكبر في رأسمالهما. وتشترط المؤسستان لتقديم قروضهما أن يفتح البلد المحتاج الى غوثهما اقتصاده بإزالة القيود الوطنية على الاستيراد، والاستثمارات الأجنبية، وخصخصة القطاع العام، وتخفيض الإنفاق العام على الخدمات العامة وعلى دعم السلع الأساسية وعلى دعم الصادرات الى آخر ذلك من

الإجراءات اللازمة لـ«تحرير» الاقتصاد من التدخل المباشر للدولة في الاقتصاد.

إن صندوق النقد الدولي يمنح البلد الذي يذعن لهذه الشروط قروضاً لا يزيد مجموعها على أربعة أمثال مساهمته في رأسمال الصندوق، هذا في الأحوال الاعتيادية. لكنه قرر منح كوريا الجنوبية قرضاً يساوي عشرين مرة من مساهمتها في رأسماله. واختتمت المفاوضات بين الطرفين بسرعة قياسية (خلال ١٠ أيام) وذلك لأن أزمة كوريا كانت خانقة وذات تداعيات عالمية، ولأن كوريا باتت في موقع ضعيف جداً لا يساعدها على تخفيف شروط الصندوق. وتضمنت الصفقة التي قررها الصندوق قروضاً مجموعها ٥٥ مليار دولار (٢١ مليار من الصندوق، ١٠ مليارات من البنك الدولي، ٤ مليارات من «صندوق التنمية الآسيوي» و٤ مليارات من أمريكا، البقية من دول أخرى، بموجب اتفاقيات ثنائية بين كوريا الجنوبية وكل دولة).

إن تنفيذ شروط الصندوق سيؤدي الى هبوط معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي الكوري من ٦٪ سنة ١٩٩٧ الى ٢,٥٪ سنة ١٩٩٨ حسب تقديرات الصندوق. وستتبع الدولة سياسة نقدية تؤدي الى تقليص النقد والائتمان لرفع معدل الفائدة بهدف اجتذاب رؤوس الأموال الاجنبية وتقليص النشاط الاقتصادي. وسيرتفع الدين الخارجي، ويتقلص الإنفاق العام على الخدمات والدعم. وسيخضع قطاع المال الى تغييرات هامة لتقليص دور الحكومة في الاقتصاد. على سبيل المثال ستترك المؤسسات المالية الضعيفة لتواجه مصير الإفلاس أو لبيعها الى مستثمرين أجانب، بدل دعمها من قبل الحكومة كالسابق. وكان الحد الأعلى لمساهمة الرأسمال الأجنبي في الشركات الكورية ٧٪ من رأسمال الشركة، أما شروط الصندوق فتتضمن رفع النسبة الى ٥٠٪. وسيسمح للرأسمال الأجنبي بزيادة استثماراته في سوق الأسهم والسندات وسترفع القيود على الواردات، وستُزال الضوابط التي تقيّد فصل العمال عن العمل.

عبرة الأزمة الكورية للبلدان النامية

التنمية المستديمة تتطلب الاعتماد على الذات مع الاستفادة من العوامل الخارجية دون إغفال طبيعتها غير المستقرة وأغراضها التي تتبع مصالح الشركات متعددة الجنسية ودولها. إن دور الدولة حاسم في سيرورة التنمية. فقد رأينا أن التنمية الكورية حصلت بتدخل الدولة كموجّه ومحفّز وحامٍ لسيرورة التنمية برمتها. وكان بالإمكان تجنب الأزمة لو استمرت الدولة في التحكم بالاقتصاد، مثلاً بوضع قيود على حركة

رؤوس الأموال والمنافسة الأجنبية. ثم ان السوق عاجز بذاته عن إصلاح الخلل الذي يحصل في اقتصاد أي بلد، فقد اضطرت الدولة الكورية الى البحث عن علاج للأزمة ليس في السوق بل خارج السوق إذ لجأت الى المؤسسات الدولية لإصلاح ما أفسده السوق، أي نشاط القطاع الخاص. إن الأسواق المالية (البورصات) مفيدة في تعبئة المدخرات للاستثمار. لكن فتحها للرأسمال الأجنبي يعرضها الى المضاربة دون اعتبار لمتطلبات الاقتصاد الوطني. ثم هناك مسألة الاعتماد على الذات مقابل الخضوع لمنطق العولمة الذي يتطلب الخصخصة وفتح الاقتصاد أمام حركة رأسمال المال غير المقيدة سعياً وراء الأرباح بصرف النظر عن حاجات الاقتصاد الوطني. لقد رأينا عواقب هذا في بلدان عديدة في أمريكا اللاتينية وآسيا، وقد تجسدت هذه العواقب في كوريا الجنوبية كما أسلفنا.

لابد أن نتذكر مسألتين هامتين جداً، أولاهما أن توسع الانتاج لا يمكن أن يستمر دون وجود طلب فعال على المنتجات. فتباين الدخل لمصلحة الأثرياء، وهم قلة واستهلاكهم محدود بالضرورة، لابد أن يولّد الكساد في مرحلة ما لأن الأكثرية لا تحصل من الثراء المتنامي على ما يمكنها من شراء المنتجات التي تصبو الى اقتنائها. وسبق لماركس أن توصل الى هذا الاستنتاج في القرن الماضي، لذلك ينبغي أن تمارس الدولة سياسة إعادة توزيع الدخل لتقليص الفجوة المتسعة بين الأثرياء وأغلبية السكان، أي لابد من تدخل الدولة لإنقاذ الرأسمالية من عواقب الرأسماليين!.

والمسألة الثانية تخص السؤال: العولمة لمصلحة مَن؟ فهي الآن جارية لمصلحة الذين يملكون رأس المال، وليس لمصلحة غالبية الناس. فسياسة الإغاثة التي ينتهجها صندوق النقد الدولي تكشف التناقض في الفكر اللبرالي الجديد (النيولبرالي) الذي يصر على مهاجمة دور الدولة في الاقتصاد، والدعوة الى ترك كل شيء لقوى السوق، لكنه يطلب تدخل الدولة لمعالجة الأزمة التي يخلقها تفاعل قوى هذا السوق. وهكذا رأينا الدولة الكورية هي التي تولت البحث عن علاجات الأزمة وذلك من خلال مؤسسات دولية، أي خارج السوق المحلية، وبمساعدة دول أخرى وليس أسواقاً. فنحن إزاء مسألة الاتساق والنزاهة في طروحات دعاة النيولبيرالية. فهم يريدون إطلاق يد الرأسماليين وعدم تقييد نشاطهم من قبل الدولة. وحين يؤدي هذا النشاط الى الأزمات يطالبون الدولة بالتدخل للخروج من المأزق باستخدام الأموال العامة التي يدعون الى الحدّ من إنفاقها على الخدمات الضرورية لأكثرية الناس. فخلال عشرة أيام طبخت

صفقة هائلة من ٥٥ مليار دولار لكوريا وحدها لعلاج أزمة ولّدها نشاط الرأسماليين. وكلها أموال عامة تصرفت بها هيئة دولية غير خاضعة لمساءلة برلمان ما.

أثناء الحرب الباردة كان الغرب يسمح لبلدان مثل كوريا بتصدير منتجاتها الى أسواقه دون قيود وذلك لأغراض سياسية معروفة. ثم إن تلك المنتجات كانت محدودة الكمية والتأثير على الأسواق الغربية. لكن اقتصاد كوريا نما الى درجة جعلت صادراتها ذات تأثير ملموس في الغرب، فالناتج المحلي الاجمالي لكوريا الجنوبية بلغ ٦٤ مليار دولار وتعادل صادراتها حوالي ثلث هذا الناتج، أي أكثر من ٢٠ مليار دولار. ومع انتهاء الحرب الباردة وتخبط كوريا الشمالية في أزمتها الاقتصادية زالت مبررات الدول الغربية لقبول صادرات كوريا الجنوبية دون مطالبتها بالمعاملة بالمثل.

كما قلنا، سيؤدي تنفيذ شروط صندوق النقد الدولي الى هبوط شديد في نمو الاقتصاد الكوري وبطالة تقدر بحوالي مليون شخص من مجموع السكان البالغ حوالي ٤٥ مليون نسمة، كما سيؤدي الى تقليص الإنفاق العام على الخدمات العامة، وتغيير شروط العمل لصالح الشركات، وإطلاق العنان لنشاطها بدون دعم وتوجيه. كما أن تلك الشروط تتضمن تقييداً جوهرياً لتدخل الدولة في الاقتصاد وإفساح مجال واسع لتغلغل الشركات متعددة الجنسيات. وعملياً صار الاقتصاد الكوري خاضعاً لإشراف صندوق النقد الدولي فيما يشبه الانتداب.

ازدهار متأخر للحركة العمالية في كوريا الجنوبية

هوشول سون*

الكل يعرف كوريا الجنوبية كقصة للنجاح الاقتصادي. إلا أن القليل من المهتمين يعرفون أن ما جعل هذا النجاح ممكن التحقيق هو بالأساس الاستغلال الفاحش للطبقة العاملة الكورية ويتمثل، من بين أشياء أخرى، في وقت العمل الأطول ومعدل الحوادث الصناعية الأعلى في العالم. و ما سهل هذا الاستغلال هو «ضعف نقابات العمال». ومع ذلك نمت الحركة العمالية بشكل سريع منذ الثمانينات. وقد نتج عن الصدام بين هذه الحركة الفتية والسياسة الليبرالية الجديدة للحكومة أول اضراب شامل في تاريخ كوريا، جلب على الحكومة هزيمة فعلية.

الخلفية التاريخية

كانت الحركة العمالية حتى الثمانينات ضعيفة بشكل استثنائي، حتى بمقاييس العالم الثالث. واقترنت الحركات العمالية بالشيوعية، وظلت كلمة «طبقة» محرمة حتى في المجال الأكاديمي الى وقت متأخر. لكن الأمور أخذت بالتغير منذ أوائل الثمانينات. فمذبحة (كوانغجو) عام ١٩٨٠، التي قتل العسكر فيها مئتين من المدنيين حسب الأرقام الرسمية وعدة آلاف حسب أقوال أخرى، وذلك خلال الانقلاب متعدد المراحل عقب اغتيال

* أستاذ مساعد في قسم العلوم السياسية في جامعة سوغانغ، سيئول. ونائب مدير المعهد الكوري للدراسات العمالية والسياسية. وبحثه هذا منشور في عدد تموز ــ آب ١٩٩٧ من مجلة Monthly Riview.

الرئيس (بارك)، قد انعشت الحركات الراديكالية في كوريا الجنوبية للمرة الأولى منذ الحرب الكورية. وكانت النتيجة «فورة للماركسية» على نحو مفاجيء وحركات راديكالية، وخصوصاً بين الطلاب. لقد تغلغلت الحركات الجديدة ببطء في صفوف الطبقة العاملة الفتية التي ظهرت بعد التصنيع الثقيل في السبعينات. فبعكس الطبقة العاملة المشتتة للفترة التي سادت فيها المعامل الصغيرة، انتجت ظروف التصنيع الجديد طبقة عاملة على درجة عالية من التركيز وذات قدرة استراتيجية يمكنها أن تشل كامل الاقتصاد، إلا أنها كانت تعاني من شروط عمل وقوانين بالية.

وهكذا فبينما كانت الماركسية، خصوصاً بعد سقوط المعسكر السوفيتي، تعاني في غالبية أنحاء العالم من أزمة لم يسبق لها مثيل، شهدت الماركسية والحركة العمالية في كوريا الجنوبية «ازدهاراً» غير مسبوقين.وخرجت الطبقة العاملة الكورية عام ١٩٨٧ عن صمتها الطويل ونزلت الى الشوارع في طول البلاد وعرضها. إلا أن هذه النضالات منيت بالهزيمة، ويعود ذلك جزئياً الى الموقف العدائي للطبقة الوسطى التي تنحصر اهتماماتها في «استتباب النظام» و «نمو الاقتصاد». ويبقى السبب الرئيسي للهزيمة هو غياب المنظمة والقيادة المركزيتين للحركة العمالية. لكن الصراع نفسه دفع بقيادة جديدة للاتحاد الى الصدارة. وتبنى القادة الجدد ما أسموه «النقابية المناضلة»، التي أعلنت أنها ستخوض الصراع ضد شروط العمل اللاانسانية حتى ادى ذلك الى مخالفة القانون واستخدام وسائل عنيفة للدفاع عن النفس أحياناً. ومثلت هذه الروح الجديدة تعارضاً حاداً مع المواقف التوفيقية والخانعة لفدرالية النقابات العمالية الكورية، وهي النقابة التي شكلتها الحكومة العسكرية الامريكية بعد التحرر من السيطرة اليابانية، لا لشيء الا للقضاء على النقابات المحلية. وظلت خاضعة لسيطرة الحكومة، كما أنها وقفت طوال تاريخها الى جانب الدكتاتورية. فبالرغم من القمع القاسي للدولة، نظمت «النقابية المناضلة»، مثلاً، اضرابات سنوية في مصانع (هونداي) الثقيلة، وهي من أكبر المصانع في كوريا. وفي كل مرة كانت الدولة ترد بعمليات عسكرية نموذجية من حيث اتساعها وتعدد جبهاتها، معبئة لها ما يزيد على العشرة آلاف من شرطة المهمات الخاصة وتشترك فيها القوة البحرية والهليكوبترات ناهيك عن المشاة.

لقد عانت الحركات الراديكالية في كل مكان بالطبع من تراجعات جدية عندما بدأت الكتلة السوفيتية بالتفتت عام ١٩٨٧، إلا أن هذه الآثار تأخرت بعض الشيء في كوريا الجنوبية. لقد اعتقد الكثير من النشطاء والمثقفين التقدميين بأن البرويسترويكا ستوطد

الاشتراكية. الا أن أحداثاً مثل الانقلاب الفاشل وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ صبت ماءً بارداً على الشعلة الفتية للحركات الراديكالية الكورية، وعلى الأقل لتلك الحركات السياسية الراديكالية التي كانت تحاول انشاء حزب ماركسي سري بالاضافة الى حزب اشتراكي علني. وتخلى الكثير من القادة، وخصوصاً المفكرين، عن منظماتهم مع بيانات بالبراءة منها. اما الحركة العمالية فكان لها شأن مختلف. فلم يعرقل انهيار الاتحاد السوفيتي النقابية المناضلة الجديدة، لأن ما أدام الحركة العمالية ليس وجود الاتحاد السوفيتي ولا ايديولوجيته الجامدة بل الواقع القاسي للرأسمالية الكورية.

نجحت الحركة العمالية الجديدة، رغم القمع الوحشي من قبل الاحتكارات الرأسمالية والحكومة، التي زُعم انها «ديموقراطية» و «متحضرة» في تنظيم عدد من النضالات البطولية ومدت نفوذها الى الصناعات الرئيسية. وأخيراً، في عام ١٩٩٥، أسس العمال لأول مرة في تاريخهم كونفدرالية النقابات العمالية، وعلى أساس برنامج يدعو ليس الى حركة عمالية ديموقراطية فحسب بل كذلك الى «مجتمع ديموقراطي حقاً». وهكذا امتلكت كوريا لأول مرة اتحاداً مستقلاً للنقابات.

كانت عضوية الاتحاد الجديد في زمن الاضراب حوالي نصف مليون عامل ضمن حوالي ألف نقابة، في حين كانت النقابة الرسمية الاقدم عهداً تضم ١,٢ مليون عضو. لكن الاتحاد الجديد يمتلك سيطرة كاملة على الصناعات الحيوية الثلاث: السيارات، بناء السفن، والصناعة الثقيلة، وعلى وسائل النقل العامة وكذلك على قطاعات هامة من العمال ذوي الياقات البيض، مثل عمال المستشفيات، ووسائل الاعلام الجماهيري، ومعاهد البحث.

سبب الاضراب العام التاريخي

لكي تفهم الاضراب العام الأخير لابد من بعض المعرفة بعلاقات العمل في كوريا الجنوبية. فقوانين العمل مليئة بمواد قديمة معادية للديموقراطية تقيد الحقوق الأساسية للعمال. ومن أمثلتها النموذجية ما يسمى «الممنوعات الأربعة»: ١ـ منع «تدخل طرف ثالث» في نزاعات العمل. ٢ـ منع التعددية النقابية، مما جعل النقابة الحكومية غير الديموقراطية تحتكر الساحة ٣ـ حرمان موظفي الخدمة المدنية والمعلمين من حقهم في التنظيم. ٤ـ منع النقابات من مزاولة النشاط السياسي.

خاضت الطبقة العاملة الكورية بقيادة «كونفدرالية النقابات العمالية» نضالات عنيدة في سبيل دمقرطة هذا النظام اللاانساني. وفي قمعها لهذه النضالات لم تستفد الحكومة

من القوانين اللاديموقراطية للعمل فحسب، بل من غيرها من القوانين أيضاً مثل قانون الأمن الوطني سيئ الصيت. وتكتسب الصورة بُعداً مأساوياً عندما نعلم أن العمال يشكلون النسبة الأكبر من السجناء السياسيين في ظل النظام القائم.

لكن الكلفة الاقتصادية والاجتماعية لتلك النزاعات العمالية ارتفعت بحدة حتى بلغت مستوى لم يعد بإمكان النظام تحمله. ولحل هذه المشكلة، حاولت الحكومة المدنية الحالية في فترتها الأولى، عام ١٩٩٣، تحقيق اصلاح في تشريعات العمل كجزء من برنامج طموح للاصلاح العام. فرد رأس المال على ذلك، وخصوصاً تكتلات الشيبول الضخمة «بإضرابات رأسمالية»، أي بالامتناع عن الاستثمار. فتراجع الاقتصاد نتيجة لذلك وتخلت الحكومة عن إصلاحاتها لصالح العودة الى الممارسات السابقة في مجال العمل.

وأخذت قدرة كوريا على «المنافسة العالمية» بالانحدار،مع إرتفاع سريع للأجور ناتج عن نمو الحركات العمالية وعن منافسة الجيل الثاني من البلدان حديثة التصنيع في جنوب شرق آسيا والصين. وفي نفس الوقت، أخذ محركا النمو الاقتصادي في كوريا، وهما التصنيع بمبادرة من الدولة وبنية الشيبول، بفقدان سحرهما. وتحول التدخل المفرط للدولة وتنظيمها الى اختلال وظيفي. وصارت الدولة أكثر فأكثر نوعاً من «ديكتاتورية تنموية مدنية»، أو، لمزيد من الدقة، «ديكتاتورية للمنافسة الدولية»، مسلحة بشعار «المنافسة الدولية أولاً، الديموقراطية وعدالة التوزيع لاحقاً».

وفي صيف ١٩٩٦، وتحت تأثير الضغوط من كل اتجاه، قررت الحكومة أن تعدل قوانين العمل في اتجاهين معاكسين. فاستجابة للمطالب الدولية وكذلك لمطالب العمال، اتجهت الى اصلاح «علاقات العمل الجماعية» بالغاء «الممنوعات الأربعة»، باستثناء منع موظفي الخدمة المدنية والمعلمين من التنظيم. لكنها قررت في نفس الوقت السماح لرأس المال بان يزيد من «عقود العمل الفردية» سواء من خلال تسهيل شروط التسريح من العمل، أو السماح بتشغيل العمال المؤقتين، وهلم جرا. وكانت الحكومة مقتنعة بادعاء الرأسماليين أن عقود العمل الفردية وشروط التسريح من العمل في كوريا أكثر «تقدماً» منها في البلدان المتقدمة، دون الالتفاف الى الفوارق بين كوريا والغرب، وخصوصاً حقيقة انه لا يوجد الا القليل من وسائل الرعاية الاجتماعية في كوريا. فلو نظرنا الى معدل الاتفاق على برامج الرعاية الاجتماعية بالقياس الى كامل ميزانية الحكومة لوجدنا أن كوريا تأتي في المرتبة ١٣٢ بين الدول. وكانت الحكومة تأمل أيضاً إيجاد «هيئات جماعية ديموقراطية» من الطراز الغربي تنظر في علاقات العمل من خلال النص في

قانون العمل الجديد على التعاون والوفاق بين العمل ورأس المال. إلا أن الكونفدرالية العمالية رفضت نظام عقود العمل الفردية الجديدة، بينما كان رأس المال يرفض العقود الجماعية الجديدة. فأصبح قانون العمل الجديد ميداناً لحرب طبقية شاملة.

ما الذي جرى خلال الاضراب العام؟

بعد فشلها في الحصول على موافقة العمال ورأس المال، قررت الحكومة ان تعدل القانون دون انتظار موافقتهم. وفي هذه الأثناء كانت الأزمة الاقتصادية تزداد سوءاً. فقد تباطأ النمو الاقتصادي، وأعلنت الكثير من الشركات، وخاصة الصغيرة والمتوسطة، إفلاسها. وفي نفس الوقت تراجع التصدير وازداد العجز التجاري بشكل مأساوي. وبدا أن الأعجوبة الكورية قد تبخرت. في تلك اللحظة اتخذت الحكومة قرارين هامين، كارثيين و ستراتيجيين. كانت الحالة الاقتصادية السيئة واحتجاجات تكتلات (الشيبول) قد زادت أصوات الليبراليين الجدد قوةً ضد دعاة الاصلاح في الكتلة الحاكمة. فاتخذت الحكومة قراراً بتأجيل إصلاح قوانين المنع الأربعة والاكتفاء بإرضاء مطالب رأس المال. ومثّل القانون الجديد تدهوراً في علاقات العمل، غير الديموقراطية أصلاً، وهجوماً وحشياً شاملاً من قبل رأس المال ضد الطبقة العاملة بالتعاون مع الدولة. وفوق ذلك قررت الحكومة تمرير القانون بكل الوسائل الممكنة قبل نهاية عام ١٩٩٦، خوفاً من أنها لن تتمكن من تعديل القانون في المستقبل القريب بسبب اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية وموسم الاحتجاجات العمالية الدورية في الربيع والمتعلقة بالمفاوضات السنوية حول الأجور. وأكثر من ذلك، فإن الرئيس كيم يونغ سام، لكي يستفيد من خدمات وكالة المخابرات المركزية الكورية خلال الإنتخابات الرئاسية المقبلة، قرر بالرغم من المعارضة القوية، ان يطرح، سوية مع قانون العمل الجديد، قانوناً جديداً يتعلق بتلك الوكالة. وكان هذا القانون يعيد الى الوكالة، المعروفة بانتهاكاتها لحقوق الانسان، سلطات كان الرئيس قد سحبها منها خلال الاصلاحات السياسية لسنوات حكمه الاولى.

وخشية المقاومة المحتملة من قبل العمال، أبقت الحكومة محتويات المسودة النهائية لقوانين العمل الجديدة سراً حتى بالنسبة الى نوابها في الجمعية الوطنية. وفوق هذا، فإن أحزاب المعارضة، التي لم تظهر في السابق سوى القليل من المعارضة لمشروع الحكومة، لكونها أحزاباً محافظة ولخشيتها من نفوذ كتل الشيبول في الانتخابات القادمة، غيّرت موقفها فجأة وعارضت طرح القانون قبل عام ١٩٩٧، في إيماءة ذات دلالة موجهة

الى الطبقة العاملة، وكمحاولة لأخذ زمام المبادرة السياسية. وأجبر هذا التحول الحكومة على اقرار هذين القانونين غير الديموقراطيين خلال «الدورة الطارئة» التي عقدها البرلمان في الساعات الأولى ليوم ٢٦ كانون الأول، والتي رافقتها عمليات سرية شبه عسكرية، دون اعطاء أي اخطار مسبق لأحزاب المعارضة أو لأجهزة الإعلام.

أشعل تصرف الحكومة برميلاً للبارود كان ينتظر الانفجار. فجاءت النتيجة تاريخية، إذ أعلنت الكونفدرالية العمالية بدء الاضراب العام، وكانت قد هددت مراراً بأنها ستلجأ اليه. وكان الكثيرون قلقين من النتائج لأسباب كثيرة. فقيادة الكونفدرالية لقواعدها لم يجر اختبارها من قبل أبداً. كما أن التوقيت لم يكن ملائماً بسبب من موسم العطلة. وكانت الخشية أيضاً من إمكانية أن ينقلب الرأي العام ضد العمال بالنظر الى الحالة الاقتصادية السيئة. ولهذا السبب قررت قياد الكونفدرالية أن تتبنى «ستراتيجية مرنة»، وذلك من خلال اضراب عام مطول ومتعدد المراحل بدلاً من الحرب الشاملة ـــ أي من خلال نوع من ستراتيجية «اضرب و اهرب».

إلا أن الإضراب فاق كل التوقعات. فقد استجابت القاعدة النقابية فوراً. والحقيقة أن العمال الغاضبين وجهوا انتقاداً شديداً للستراتيجية المرنة واعتبروها توفيقية جداً. وهكذا فإن القاعدة هي التي دفعت القيادة الى الاضراب في آخر لحظة، تلك القيادة التي كانت مترددة بشأن التنفيذ الفعلي للاضراب خشية التدمير الكلي للكونفدرالية الفتية على يد قوات القمع الحكومية. وأكثر من ذلك، فقد انضمت حتى النقابات الحكومية الى الاضراب وباشرت باضراب عام خاص بها لكي لا تنعزل عن القواعد العمالية. واستعادت الحركات الشعبية حيويتها بشكل سريع بعد أن كانت في تراجع تحت ضغط الحكومة.

وتشكلت جبهة وطنية لالغاء القانونين غير الديموقراطيين، لم تضم القطاع الشعبي فحسب، بل شملت أيضاً «المنظمات المدنية» (وهي نسخة كورية من المنظمات الاجتماعية الجديدة للطبقة الوسطى). ودعم «المواطنون العاديون»، وخصوصاً ابناء «الطبقة الوسطى الجديدة»، الذين يقفون في العادة ضد الاضرابات، الاضراب الأخير لأن قوانين العمل الجديدة ستؤدي الى زوال أي ضمان لوظائفهم. وعقدت اجتماعات حاشدة يومياً في كل أنحاء البلاد للاحتجاج على الحكومة، رغم الهجمات العنيفة للشرطة. لقد نجح الاضراب في تعطيل كل الصناعات الكبيرة. وشلت سلطة الدولة تقريباً، وتخلى الرأي العام عن الحكومة. وتواصلت مواقف الاسناد الأممي من حركات عمالية وديموقراطية في بلدان عديدة. فبالرغم من كل التحذيرات المتكررة بمعاقبة كل من يخرق

القانون، لم تتمكن الحكومة من اعتقال قادة الاتحاد العمالي الذي قادوا الاضراب وهم يعتصمون مضربين عن الطعام في مكان عام.

شارك في الاضراب خلال مراحله الثلاث، التي دامت عشرين يوماً حسب خطة «توقف ـ و ـ تحرك»، تحت قيادة الكونفدرالية العمالية، أكثر من أربعمئة ألف عامل من ٥٢٨ نقابة لأكثر من مرة واحدة، وساهم كمعدل حوالي ١٩٠ ألف عامل من ١٦٨ نقابة في اليوم الواحد. وبلغت الاعداد الكلية للمشاركين في الاضرابات وفي التجمعات العامة ٣,٦ مليون و ١,١ مليون على التوالي. واذا أضيفت إليها أعداد المشاركين من الاتحاد الحكومي فقد يصل العدد إلى الضعف. مع أنه ما من أحد سوى الاتحاد الأخير يمكنه أن يعرف ذلك على وجه الدقة حيث بدا أن هؤلاء كانوا يضخمون الرقم الرسمي للمشاركين لمنافسة الكونفدرالية العمالية. وكانت هناك ايضاً اجتماعات تضامنية في ٢٢ بلداً و ٢٢٣ رسالة تأييد من منظمات عمالية مختلفة أو من عمال أجانب. وأخيراً، قبل بدء المرحلة الرابعة للاضراب مباشرة، اضطر الرئيس الى اعلان التراجع عن سياسته باعتذار ذليل ووعود باعادة النظر في تعديل قانون العمل. وكان ذلك استسلاماً فعلياً أمام الطبقة العاملة.

نتائج الاضراب

كانت ثمة شرارات ما زالت حية هنا وهناك، وتعهدت قيادة الكونفدرالية العمالية باستمرار المعركة. أما الان وقد انقشع الدخان، فقد انتهت المعركة فعلياً. وحل وقت اجراء جردة حساب مؤقتة ان لم تكن نهائية. أعادت الحكومة تعديل قانون العمل، كما وعدت، في مفاوضات مع أحزاب المعارضة. وكانت النتيجة تشبه المسودة الأصلية للحكومة. فقد ألغيت الممنوعات الأربعة ما عدا منع المستخدمين المدنيين والمعلمين من التنظيم. وهكذا أصبحت الكونفدرالية العمالية ممثلاً شرعياً للطبقة العاملة الكورية، وكانت النقابات العمالية قد بدأت حتى قبل ذلك بالتحول اليها تاركة الاتحاد الحكومي.

وفي نفس الوقت، لقيت غالبية مطالب رأس المال تقييدات ثانوية. وكان الكثيرون في المعسكر الديموقراطي يعتقدون بأن تلك النتائج كانت تمثل مكسباً ضئيلاً للغاية مقارنة بحجم المعركة.

أوقف قادة الكونفدرالية العمالية اعتصامهم وسحبوا خطة تمديد الاضراب بعد ان وعد الرئيس بسحب تعديل قوانين العمل بالتفاوض مع أحزاب المعارضة. إلا أنهم ابقوا، كما هو مخطط، على التهديد باضراب آخر اذا ما فشلت القوانين المعدلة في اقناع العمال

وأدت الى عقود عمل فردية أسوأ من السابق. وفي ختام شهر من المباحثات، كانت النتيجة التي صادقت عليها أحزاب المعارضة مخيبة للآمال، كما هو متوقع. وأعلنت الكونفدرالية العمالية انها ستبدأ اضراباً عاماً رابعاً اذا ما صادقت الجمعية العامة على القانون. إلا أن لوحة جديدة، شكلتها أحداث غير متوقعة مثل إفلاس جزء كبير من تكتلات الشيبول وما تبعه من فضيحة مالية تتعلق بمبالغ فلكية، الى جانب لجوء كادر قيادي من كوريا الشمالية الى كوريا الجنوبية، أجبرت القيادة العمالية على سحب تهديدها مرة أخرى. وقررت بدلاً من ذلك أن تخوض معركة تعديل قانون العمل الجديد خلال مباحثات الأجور السنوية في الصيف.

لكن يبدو أن الفرصة الذهبية قد ضاعت. وثبت أن قرار تأجيل الاضراب بعد وعد الرئيس بتعديل القانون كان خطأ كبيراً قاتلاً. وفي الشهر الذي أعقب أول سحب للكونفدرالية العمالية لتهديدها باعلان المرحلة الرابعة من الاضراب، تغيرت اللوحة بصورة فرضت عليها أن تسحب ذلك التهديد مرة أخرى. ولو أن قيادة الاتحاد واصلت الاستفادة من اللحظة المواتية دون تأجيل للاضراب في المرة الأولى، لكانت النتيجة استسلاماً شاملاً من قبل الحكومة ورأس المال. حتى لو فشلت في تحقيق ذلك، فان إنهاء الاضراب بالقوة الوحشية كان لابد له من أن يؤدي الى نهوض أشد بأساً للحركة في المستقبل القريب، وربما خلال الانتخابات الرئاسية القادمة في صورة مرشح للطبقة العاملة. واذ نسيت قيادة الكونفدرالية العمالية الحقيقة البديهية البسيطة التي تقول أن على المرء «ان يطرق الحديد وهو ساخن»، فقد فشلت في توجيه الضربة النهائية لحظة كانت قادرة على تسديدها.

ولكن هذا لم يقلل من الاهمية التاريخية للاضراب. فهو أول اضراب عام في التاريخ الكوري، وخصوصاً أول اضراب عام سياسي، وهي المرة الاولى أيضاً في التاريخ الكوري التي تنجح فيها الطبقة العاملة في صد هجوم شامل من قبل رأس المال والحكومة. وأهمية هذا الانتصار الكبير تنبع كذلك من أنه تحقق في بلد كانت طبقته العاملة حتى تلك الاونة ضعيفة بشكل استثنائي. ولأن بنية البلاد الاقتصادية موجهة الى التصدير، فانها غير محصنة أمام العولمة، تلك الستراتيجية التي اعتمدها رأس المال، خصوصاً في مراكزه الكبرى، للتعامل مع أزماته البنيوية. وهكذا، تحدّت الطبقة العاملة الكورية الزعم ان النضالات الوطنية غير فعالة أو حتى غير ملائمة في عصر العولمة.

وسرّع الاضراب، لعشرة أعوام على الاقل، «الإزدهار الكامل» للحركة العمالية

وتشكيل حزب للطبقة العاملة في كوريا الجنوبية من خلال تخليص الطبقة العاملة من أوهام السياسة البرجوازية ودفعها الى ادراك الحاجة الملحة لتنظيم نفسها سياسياً. وفضلاً عن ذلك، فان الطبقة العاملة الكورية قد مارست قيادة القوى الشعبية الاخرى في النضال الديموقراطي على نطاق وطني، وبذلك تجاوزت، لاول مرة، التعبير عن المصالح «النقابية» الضيقة وبدأت تؤدي وظيفتها كنوع من طبقة «مهيمنة»، تدرك ان مصالحها الطبقية تمثل مصالح عامة الشعب. ونتيجة لذلك، وحسب آخر استفتاء وطني لمن يمتلكون حق التصويت، أجاب أكثر من ٤٠٪ من المشاركين فيه بانهم على استعداد للتصويت لرئيس الكونفدرالية العمالية اذا رشح نفسه في الانتخابات الرئاسية القادمة في كانون الاول. أخيراً، فان الاضراب هو خطوة مهمة على الطريق نحو تحالف اممي للطبقة العاملة، أي «عولمة من الاسفل»، لمواجهة عولمة رأس المال والليبرالية الجديدة العالمية.

تواجه الطبقة العاملة الكورية الجنوبية في الوقت نفسه مخاطر كبيرة تجعلنا حذرين من التفاؤل الزائد. فهناك خطر تحول الكونفدرالية العمالية الى نوع من نسخة كورية لإتحاد النقابات الامريكي تنغمس في «نقابية صناعية» أو «اتحاد لشؤون الاعمال». كما ان الطبقة العاملة الكورية مهددة بالاصابة بالنزعة الفردية بسبب عدم ضمان حق العمل في نصوص قانون العمل الجديد. وقد تدفع ضغوط العولمة وضعف الاقتصاد العمال الى تقبل شعارات دعائية من قبيل «إنعاش الاقتصاد أولاً». وفوق ذلك، على عمالنا التغلب على عقدة «اللون الأحمر» و «التأثير الكوري الشمالي»، لاسيما اذا التفتنا الى الاوضاع الاقتصادية السيئة لكوريا الشمالية. ينبغي على الطبقة العاملة ان تتجاوز ايضاً الاقليمية، لكي تتمكن من تنظيم نفسها سياسياً. وحتى اذ اما نجحت في عملية التنظيم السياسي، سيظل يترصدها خطر الوقوع في سياسة برجوازية من طراز الاشتراكية ــ الديموقراطية الغربية.

ان الطبقة العاملة الكورية الجنوبية بدأت تخطو، رغم بدايتها المتأخرة، وعليها ان تواصل مسيرتها الشاقة بدأب نحو مجتمع انساني متحرر من عسف رأس المال.

ترجمها بإيجاز طفيف: عماد عباس

مفهوم التاريخ عند ابن خلدون

حسن جمشير*

يتفق الباحثون على أن عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) يقدم لنا في «المقدمة» لكتاب «العبر» مفهوماً جديداً للتاريخ، يختلف عما سبق من طرق سرد الأحداث من قبل المؤرخين الذين سبقوه من عرب ومسلمين وغيرهم[1]. وتستند حداثة هذا المفهوم على محاولة التفسير العقلاني للأحداث، من حيث ضرورة تطابق التفسير مع المنطق وحركة التاريخ ومع القوى المحركة لتلك الأحداث.

إن التاريخ بالنسبة لمؤلف «المقدمة» هو فرع من فروع العلم، واسع الانتشار بين شعوب الأرض، وله مغزى ظاهري خبري وآخر تعليلي باطني، فهو يقول:

«... إن فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرجال وتسمو إلى معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، **إذ هو في ظاهره** لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، **وفي باطنه** نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق...»[2].

* أستاذ عراقي في معهد التاريخ، جامعة لودز في بولندا.

لقد قام مؤرخو الاسلام الكبار بجمع ووصف الأحداث التاريخية الهامة، ولكن ــ حسب رأي ابن خلدون ــ ظهر أناس غير مؤهلين لمتابعة التاريخ فأدخلوا، بشكل كيفي، أخبارهم الكاذبة إلى تلك المجاميع، ومن بعدهم سلك آخرون نفس المسلك بدون التفكير في عواقب ذلك. وأن مجرد التأمل البسيط حول المسببات والظروف تحتم علينا رفض أمثال تلك الروايات اللامعقولة. «فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لايقام سلطانه...»[٣] كما يقول ابن خلدون.

عرف ابن خلدون الكثير من الكتب والمؤلفات التاريخية، التي اهتمت بأحداث الشعوب والأجيال والسلالات الحاكمة، لكنه يرى بأن القليل منها يستحق التقدير، وأن استحق بعض الاهتمام فذلك بفضل «الأمانة المعتبرة» ولأنهم «استفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة»، وهؤلاء «قليلون لا يكادون يتجاوزون عدد الأنامل... مثل إبن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير»[٤].

ورغم النواقص الأكيدة في بعض أقسام مؤلفاتهم وضعف قيمتها العلمية، فإن المؤلفين المذكورين يحظون بسمعة طيبة لسعة آفاقهم وغزارة المعلومات في كتبهم، وطرق التصنيف والنقد المتبعة في عرض المعلومات. مما يجدر الذكر بأن كتابة المؤرخين المذكورين امتازت بكونها كتابة عن التاريخ بأوسع مفهوم (تاريخ العالم، وتاريخ الأمويين والعباسيين)، وبالاستناد إلى مصادر واسعة غنية. أما من تبعهم من المؤرخين فيمكن وصف عملهم بالتقليد الأعمى لكبار المؤلفين، حيث لم يأخذوا بنظر الاعتبار التحولات الجارية في ظروف حياة وعادات الشعوب. فكان التاريخ بالنسبة لهم عبارة عن مجرد حكومات وأحداث متتالية ـ أي أنه كان شكلاً بلا فحوى. ومثل هذه «المعرفة» تستحق بالاحرى تسميتها بالجهل فهي تخصّ أحداث لم تشرح جذورها، لكونها غير معروفة للكتّاب أنفسهم.

يُعلن ابن خلدون ـ كما سلف ذكره ـ بأن التاريخ هو فرع من فروع العلم، يمتلك طرق بحث خاصة به، مما يسمح بالاطلاع على ماضي الشعوب وحياة الانبياء والحكام وتتطلب كتابة التاريخ ـ ضمن ما تتطلب ـ الوصول إلى العديد من الأصول والمصادر الأساسية، وإلى معرفة واسعة، وعقلية تأملية نشطة، وإلى نظرة متشعبة لموضوع

البحث. هذه الشروط تهدف إلى إعادة بناء الحقيقة التاريخية طبقاً لما حصل بالفعل، مع ضرورة إزالة الأخطاء والشوائب.[٥].

لأجل الوصول الى ذلك الهدف، ينبغي على المؤرخ الحيازة على معرفة واضحة للحقائق السياسية الرئيسية، والعادات السائدة، وطبيعة المجتمعات البشرية (التي يسميها بالعمران)، والظروف التي تحكم عمل المؤسسة الاجتماعية أو النظام الاجتماعي، إلى جانب القدرة على التقييم الصحيح للمادة التاريخية الخاصة بفترات الماضي السحيق عن طريق مقارنتها بتلك التي تعود لفترة لاحقة أو معاصرة.

لم يكن من النادر، بنظر ابن خلدون، الوقوع في الخطأ من جانب المؤرخين، بمن فيهم كبار مفسري القرآن، ومدوّني السنة النبوية، بمعنى الاقرار بالأخبار بغض النظر عن قيمتها الفعلية، وعدم الانتباه الى مغزى القوانين التاريخية أو طبيعة الأمور وخلفياتها بالإضافة إلى عدم القيام بدراسات مقارنة. وتخص هذه الظاهرة أولاً بأول المعطيات العددية المذكورة في المؤلفات. فيلفت مؤلف «المقدمة» الانتباه إلى ما ورد عند بعض المؤرخين، ومنهم المسعودي، بأن جيش الاسرائيليين حين عدّه النبي موسى كان يزيد عن ستمائة ألف، ويُفهم من ذلك أن المؤرخ المسعودي أقرّ باحتمال صحة هذا العدد من الجُنود. كيف يمكن ذلك ونحن نعلم بأن «لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة، ثم أن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبُعدها إذا اصطفت على مدى البصر...»[٦] كما يرفض مؤلف المقدمة صحة الاحتمال المذكور على أساس المقارنة أيضاً، بإعتبار كون المصادر تقدر تعداد الجيش الفارسي في معركة القادسية بستين ألف، مع إتساع نطاق دولة الفرس[٧].

ويرفض مفكرنا الروايات التي تفسر الصراع بين الرشيد والبرامكة وتربطه بغرام أخته العباسة بالوزير جعفر البرمكي ووقوعها أثناء حفلة من حفلات شرب الخمر. ينتقد ابن خلدون باسهاب[٨] تلك الروايات وينتهي إلى أن سبب تصفية البرامكة محاولتهم ممارسة السيطرة السياسية على الدولة العباسية بعد الحصول على السيطرة الفعلية على أموالها وخزينتها. ففي الأيام الحاسمة كان الخليفة يمارس السلطة اسمياً فقط، ولم يكن لديه أي صوت يُذكر في شؤون الحكم، بينما توسع نفوذ وشهرة البرامكة، فاحتلوا أهم المناصب العليا، المدنية والعسكرية، منها خمسة وعشرون مركزاً هاماً في نفس بلاط الرشيد. فتقود الدراسة الدقيقة للمصادر ابن خلدون إلى أن السبب الخفي والفعلي وراء

الأحداث هو رغبة الخليفة في ممارسة السلطة الفعلية في الدولة، مضيفاً إلى أن السبب الأقل أهمية هو دسائس منافسي البرامكة في البلاط العباسي.

تؤدي متابعة تلك الأخطاء وأخطاء مماثلة بابن خلدون إلى الاشارة إلى فقر المنهجية التاريخية. فالخضوع للسهو والأوهام كان أيضاً نصيب مؤرخين من ذوي مؤهلات عالية. لذا ينصح ابن خلدون المؤرخ المتمرس بالتعرف الجيد على: «قواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والاعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث واقفاً على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلاّ زيفّه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ إلاّ لذلك...»(٩).

إذاً، على المؤرخ أن يعرف جيداً التباين في أصول الأجيال والجماعات الحاكمة وأهل المذاهب، ويعلم ما يكفي من أسباب ودوافع نشوئها وظروف ودوافع منحهم الثقة والدعم من جانب السكان. والهدف من ذلك هو المعرفة الكافية لأسباب وجذور كل حدث. وينبغي فرز المعلومات من حيث مطابقتها للقواعد الأساسية، وإلاّ يجب التخلي عنها كمعلومات غير صحيحة. على أساس هذه المنطلقات بالذات إحتلت كتابة التاريخ مكانة مرموقة في صدر الاسلام، ولنفس الاسباب اختارها الطبري والبخاري وقبلهما إبن اسحق كمهمة نبيلة. لكن العديد فاتهم سرّ كتابة التأريخ فقاموا بالانتحال والتطفل على المعرفة، فاختلط «اللباب بالقشر و الصادق بالكاذب». علماً أنه: «من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الامم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو دواء شديد الخفاء إذ لا يقع إلاّ بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلاّ الآحاد من أهل الخليقة»(١٠).

إنّ الظروف السائدة في المعمورة وبين الشعوب تتغير باستمرار، من يوم ليوم، من عصر لعصر، ومن حالة لأخرى. بكلمة أخرى، يشمل التغيير الكلّ بلا استثناء: البشر، والأوقات، والمدن، والمناطق، والعصور والأجيال. هنا يكمن مصدر هام من مصادر الأخطاء التي يرتكبها المؤرخون، حيث غالباً ما ينقل المتخصص بتاريخ العصور السابقة معلوماته إلى الفترات التالية بدون الانتباه إلى سنّة التغيير، وهذا نقص خطير، كما يقول ابن خلدون «إذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره

وكأنه خلق جديد ونشأت مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفوا مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده»(١١).

لدى البحث عن المصادر الخفية لتشويه التاريخ وفقر المنهجية التاريخية، توصل ابن خلدون إلى وصف شيق لتلك الحالات والممارسات، إلى جانب استنتاجات هامة أخرى. والسبب الأول الذي يذكره كتفسير لتلك الظاهرة هو انعدام الموضوعية لدى الشخص المنحاز لفكرة أو مذهب أو مدرسة فكرية معينة. فعندما يصل خبر من الأخبار إلى انسان محايد فإنه يتعامل مع الخبر باسلوب تجريبي انتقادي، متوصلاً بالنتيجة إلى قناعة معينة حول صحة الخبر أو عدمه. أما الشخص المنحاز لصالح رأي معين أو مذهب ديني، فيتقبل بلا تردد الخبر الداعم لفكرته. نقرأ في المقدمة عن ذلك ما يلي: «ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيّعات للآراء والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطيته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبيّن صدقه من كذبه وإذا ضامرها تشيّع لرأي نحلة قبلت ما يوافقه من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله»(١٢).

بذلك يتم ليس فقط اقرار الخطأ، بل كذلك نشره بين الآخرين من الناس، ومن هنا، لدى تمحيص المسألة المنهجية للمعرفة التاريخية، اعتبر ابن خلدون الحفاظ على الموضوعية والحياد المهمة الأولى للباحث.

أما المصدر الثاني للأخطاء، أو انعدام الدقة، لدى المؤرخين فهو ـــ حسب المفهوم الخلدوني ـــ الاقرار اللامشروط بكل خبر يتم الحصول عليه. وفي هذه الحالة اقترح متابعة وتطبيق القواعد الموضوعة من قبل المؤرخين المسلمين عند جمع وتدقيق الأحاديث النبوية، أي تدقيق أقوال الناقلين حسب معيار التعديل والتجريح. يكتب عن ذلك: «ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح، ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب»(١٣). ومن الأسباب (التملّق) لأصحاب المراتب بالثناء والمديح واشاعة الذكر بهم على خلاف الواقع.

وأخيراً، اعتبر ابن خلدون عدم معرفة ماهية العلاقات السائدة في المجتمع كمصدر ثالث من حيث الترتيب ـــ لكنه أهم من السابقات ـــ لوقوع المؤرخين في أخطاء عند سردهم للأحداث. وهذه الظاهرة ناتجة عن عدم القدرة على التمييز بين ما هو مطابق

لطبيعة المجتمع وماهو مخالف لتلك الطبيعة، وبدون ذلك نفتقد الاداة الرئيسية لتدقيق «القصص» عن الأخبار وتحديد المسار الفعلي للأحداث. فالسامع المطلع على طبائع الوجود والأحداث يستطيع تمحيص الخبر والتمييز بين الصدق والكذب.

علّق ابن خلدون أهمية كبيرة على مسألة صياغة المبادىء المتّبعة، التي ستسمح للمؤرخ بتجنب ارتكاب الأخطاء الناجمة عن المصدر الأخير المذكور. ويصبح ذلك ممكناً عندما يباشر المؤرخ بدراسة المجتمع، أو عندما يتعرف على العلم الجديد الذي توصل إليه مؤلف «المقدمة» بنفسه ـــ علم العمران. بالنتيجة، سيتمكن المؤرخ من تفهم الظواهر الاجتماعية العامة كضرورة لا غنى عنها لمن يبغي كتابة التاريخ

الهوامش

(١) من ضمن الباحثين الذين مابعوا معهوم التاريخ لدى ابن خلدون من حيث كونه إنعطافاً جوهرياً نخص بالذكر الدكتور محمد عابد الجابري، مؤلف كتاب «فكر ابن خلدون، العصبية و الدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي»، حيث نقرأ بان التاريخ بالنسبة لابن خلدون «ليس مجرد حوادث تتعاقب في الزمان دون خضوع لعوامل معينة، بل هناك خيوط تنتظم هذا التعاقب، وثوابت توجه مسراه ومجراه» (ص ١٠٠).
وقد سمى آرنولد توينبي المقدمة بلا مبالغة بانها «أعظم كتاب من نوعه نتج قط عن عقل ما في أي زمان أو مكان» (A Study of History, vol. III, London 1935, p.332). بينما يصف ر.نيكلسون ابن خلدون بمايلي: «لم يحصل لاي مسلم من قبله اتخاذ نظرة بهذه الدرجة من الشمولية وبهذا العمق الفلسفي، ولم يسبقه أحد بمحاولة متابعة الاعماق المخيفة للاحداث، أو الكشف عن القوى الادبية والروحية الفاعلة تحت السطح. . .» (A Literary History of the Arabs, London 1923, pp.438-9). اما ج.سارتون فيعتبر ابن خلدون اعظم فيلسوف حصل للبشرية «إبتداءً بالفلاسفة الكلاسيكيين وحتى ماكيافيللي، وبودين، وفيكو» (Introduction to the History of Science, vol.III, Baltimore 1948, p.1770) أما بخصوص الاقتباسات الواردة في هذه المقالة عن كتاب ابن خلدون موضوع البحث، فهي عن الطبعة التالية: «مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر»، مطبوعات مكتبة ومطبعة الحاج عبد السلام بن محمد شقروان، القاهرة (بلا تاريخ).

(٢) مقدمة. . .، ص ص ٢ – ٣. التأكيد من مؤلف هذه المقالة. (٣) نفس المصدر، ص٣.

(٤) نفس المصدر والصفحة. (٥) نفس المصدر ص ٧. (٦) نفس المصدر، ص ٨

(٧) نفس المصدر، ص ٨ ـــ ٩، انظر أيضاً فصل الممالك، حيث ان «تعداد القبيل يحدد سعة الدولة» ص ١٤٢ ـــ ١٤٣؛ وقارن ذلك على ضوء نظرية الاجيال الواردة في المقدمة والتي تلاحظ أن من غير المعقول تكاثر الاسرائيليين خلال اربعة أجيال إبتداءً من النبي موسى لمثل ذلك العدد الهائل، ص ٨.

(٨) المقدمة المصدر السابق، من ص ١٣ ـــ ١٧. (٩) نفس المصدر، من ص ٢٤ ـــ ٢٥.

(١٠) نفس المصدر، ص ٢٥. (١١) نفس المصدر، ص٢٩.

(١٢) نفس المصدر، ص ٣١. (١٣) نفس المصدر والصفحة.

نــدوة

١٤ تموز والصحافة والحريات الديموقراطية

ابراهيم الحريري وليث الحمداني

نظم «الديموقراطيون العراقيون» ندوة سياسية، في مدينة هاملتون الكندية، بمناسبة الذكرى ٣٩ لثورة ١٤ تموز المجيدة. وكان موضوع الندوة يتركز حول تأثير ثورة ١٤ تموز على الصحافة العراقية والحريات الديموقراطية. وشارك فيها كل من الصحفيين ليث الحمداني وإبراهيم الحريري. ادار الندوة ثامر الصفار الذي اشار الى ان هذه الندوة هي باكورة نشاط يسعى الى العناية بمناقشة الشأن العراقي عموماً، هادفين منه إذكاء حالة الحوار والاجتهاد بحثاً عن الحقيقة. وأكد أن الحديث عن ثورة ١٤ تموز هو حديث عن التاريخ بإيجابياته وسلبياته، شرط أن تتم المعاينة وفقاً للحظة التاريخية للحدث، لا وفق معايير ومعطيات مرحلتنا الحالية.

العسكر والصحافة المؤسسية في العراق
وقفة سريعة امام علاقة شائكة

تحت هذا العنوان استعرض الحمداني مفهوم الصحافة المؤسسية مشيراً الى انها تختلف عن الصحافة الحزبية التي تكرس جزءاً كبيراً من صفحاتها وزواياها لنقل أفكار الحزب ومواقفه من الأحداث. اما الاولى فانها تتخذ خطاً مستقلاً وتعتمد على الفريق الصحفي المحترف وتسعى لامتلاك التقنيات اللازمة... وتطرق المحاضر الى محاولات حاول فيها المشرفون الدمج بين الصحيفة الحزبية والمهنية المؤسسية... وأشار أيضاً

الى أن الصحافة الحزبية لم تشهد استقراراً سياسياً في العهود الملكية فظلت تعاني من الالغاء تحت ذريعة ايقاف الحياة الحزبية التي كانت تتم بين آونة وأخرى أو كلما شهدت البلاد تحركاً جماهيرياً... وكذلك الحال بالنسبة للصحافة التي كانت تسعى للمؤسساتية والتي عانت وبصورة اقل من الايقاف والتعطيل والالغاء.

واعتمدت جريدة «البلاد» لروفائيل بطي ومن بعده ورثته نموذجاً للصحافة المؤسسية لاحداث التمازج في الخبرة الصحفية بين الأجيال المختلفة... كما اشار الى انها كانت الصحيفة الاكثر ترحيباً بالحدث العراقي... ثم تطرق الى لجوء عبد السلام عارف الى تكليف المقدم رشيد فليح لاصدار جريدة «الجمهورية» محاولاً تقليد الرئيس عبد الناصر الذي أوعز لأنور السادات يومها لإصدار مجلة «التحرير»... إنّ الصحافة المؤسسية كما اشار الحمداني في جريدة «البلاد» كانت على اولى درجات السلم ورأت في هذا الحدث حلمها للاستقرار المهني وبالتالي التطور والمنافسة والخروج من الدائرة العراقية الى الدائرة العربية... واشار المحاضر الى انه صدرت بعد الثورة صحف بعضها كان متوقفاً عن الصدور وبعضها جديداً... منها «الرأي العام» للجواهري الكبير، و «صوت الاحرار» للصحفي الكبير لطفي بكر صدقي الذي واصل بها مسيرته المهنية ابتداءً من «الوميض» اليسارية في الثلاثينات، و «الحضارة» لمحمد حسن الصوري، و«١٤ تموز» لنعيمة الوكيل، و«الانسانية» لكاظم السماوي، و«اليقظة» لسلمان الصفواني. كما صدرت الصحف الحزبية «الأهالي» للوطني الديموقراطي ومن ثم «إتحاد الشعب» للحزب الشيوعي و «خه بات» للديموقراطي الكردستاني... واستمرت «البلاد» بإعتبارها نموذجاً للصحافة المؤسسية المستقلة...

وتناول المحاضر انشطار الشارع العراقي وشعارات تلك المرحلة مما ادى الى تعمق ازمة الصحافة... فاشار الى ان «البلاد» اغلقت في اربعينية الثورة لان فكر العقيد عبد السلام عارف لم يتحمل نشرها لكاريكاتير «بدون شرح»!!

لقد عادت الرقابة على الصحف بعد شهور والرقيب هذه المرة عسكري... واستعرض الحمداني بعضاً من مفارقات الرقابة...

وأكد المحاضر أنه يتفق بأن عبد الكريم قاسم كان وطنياً وصافي السريرة ومعادياً للاستعمار ولكنه ظلّ محكوماً بعقليته العسكرية وهي غالباً نتاج مؤسسة تعمق الفردية و الديكتاتورية في عقول منتسبيها... وأشار الى ما كانت تتعرض له الصحافة اليسارية من مضايقات الرقابة واستعرض بعضاً من عناوين افتتاحيات «البلاد» التي كانت تؤكد

على الوحدة الوطنية... ونقل مشهداً من حوار بين شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري نقيب الصحفيين وعبد الكريم قاسم حول مقالة لـ«الرأي العام» جريدة الجواهري، عنوانها «ماذا جرى في الميمونة؟» وكيف أن الجواهري قال له: اثورة وبشرطة نوري السعيد؟! فواجهه قاسم بالقول: انت من بقايا نوري السعيد. مما حدى بالجواهري أن يترك الاجتماع متحدياً!!لم تتحمل عقلية العسكري قاسم أي نقد حتى وإن كان صادراً من طرف وقف بكل قوته وراءه في الثورة وفي الصراع مع عارف...

ويعود الحمداني الى «البلاد» لينقل صورة من مشهد احيلت بها بشخص أحد ملاكها سامي بطي إلى المجلس العرفي وكانت الحجة أن الشرطة وجدت في الجريدة «سكاكين عليها صور لحمامات السلام»!! وفيما بعد اتهمت بإيواء «مجرم» وهو شاب يعمل محرراً في «البلاد» والسبب الحقيقي انها صحيفة لم تتمثل كغيرها لدعوات ضرب الشعب الكردي... ومع تأجج الصراع صدرت صحف «الثورة» التي ربط صاحبها يونس الطائي مصيره بعبد الكريم قاسم و«العهد الجديد» التي جيىء بصاحبها زكي أحمد من الخطوط الخلفية للصحافة ليصبح صاحب جريدة يومية تكدس كل صفحاتها للهجوم على نقابة الصحفيين وعلى الجواهري، و«بغداد» لخضر العباسي التي كانت تسهم في التحريض على إغتيال المواطنين...

وأشار الحمداني أيضاً الى ممارسات بعض آمري المواقع وقادة الفرق العسكرية في منع توزيع هذه الصحيفة أو تلك رغم انها تصدر بامتياز من الحكومة. وجاء انقلاب ٨ شباط الدموي لينهي الآمال بقيام صحافة مؤسسية بل لينهي أيضاً الصحافة ذات الارث المهني وفي مقدمتها «البلاد» و «الاخبار» و «الزمان» وليعدم العديد من الكفاءات الصحفية دون محاكمات مثل عدنان البراك، عبد الجبار وهبي، عبد الرحيم شريف وغيرهم، وليهجر العراق العشرات من الصحفيين بحثاً عن مكان يفكرون فيه بصوت عال...

وشهدت الفترة التي تلت الانقلاب صحافة رثية مهنياً لم تترك أي أثر يذكر في التاريخ الصحفي الحديث سوى المقالات الشوفينية الداعية للابادة وحتى الصحف القومية لم يتحملها الحكام الجدد فاغلقت جريدة «الوحدة» لباسل الكبيسي، بعد أن تصاعد الصراع بين طرفي التحالف البعث والقوميين العرب...

ويأتي الانقلاب الثاني ١٨ تشرين ليطيح فيه عبد السلام عارف بالبعث وليسعى الى بناء دولته العسكرية هو أيضاً، فاستنسخ التجربة المصرية في إقامة التنظيم السياسي

وظهر «الاتحاد الاشتراكي العربي» وصحيفته «الثورة العربية» وهي أيضاً صحيفة لجأ النظام الى تغيير قياداتها لأن عقلية العسكر لم تكن تتحمل حتى ما ينشر في صحافة هم صانعوها.

وجاء عبد الرحمن عارف فشهدت مرحلة حكمه وكنتيجة لنكسة حزيران واتساع النفوذ اليساري ظهور صحافة متمردة على النظام «صوت العمال» التي كان يرأس تحريرها هاشم علي محسن إبان قيادة حركة القوميين العرب لإتحاد نقابات العمال وضمت في صفوفها صحفيين يساريين... وصدرت كذلك «النصر» وكان أبرز كتابها إبراهيم زاير ومؤيد الراوي وشريف الربيعي وجليل العطية «جهين» وعارف علوان وغيرهم، وأغلبهم من المثقفين الشباب الرافضين للأوضاع، رغم أن صاحب الجريدة عطا شهاب كان جزءاً من النظام نفسه... فقد استثمرت الصحف الهامش الضيق الذي أوجدته الظروف لتسهم في تعزيز دورها في الحياة السياسية ولتتحول إلى تيارات سياسية غير معلنة مما حدا بالنظام للايعاز إلى احدى الصحف الداعية له للمطالبة بغلق «صوت العمال» و «النصر» واتهامها بانها صحف تقوم بالتبشير بالماركسية والشيوعية وهي جريدة «صوت العرب» لفوزي عبد الواحد. ولأن العسكر لايتحملون الرأي الآخر، اجهضت هذه التجارب الوليدة ليأتي قرار مستنسخ جديد هو «التأميم» ولتصدر صحافة المؤسسة العامة للصحافة: «الثورة»، «المواطن»، «المساء، الشعب فيما بعد» بالاضافة الى «الجمهورية» الجريدة الحكومية ومجلة واحدة هي «ألف باء». وهكذا أصبح للعراق ٤ صحف فقط ومجلة واحدة بعد أن كانت البصرة وحدها تصدر مثل هذا العدد من الصحف في مرحلة من المراحل...

إنّ قيام المؤسسة العامة للصحافة، كما يشير الحمداني، كان البداية لتحويل الصحفيين الى موظفين «فقد استطاعت صحف المؤسسة استيعاب الصحفيين المحترفيين في ملاكاتها ولكنها لم تستطع استيعاب ابداعاتهم واستقلالية تفكيرهم فحولتهم الى موظفين»!!

حتى الرياضة رأى العسكر توحيدها فأصدروا بدلاً من «الملعب» لابراهيم اسماعيل و «الملاعب» لشاكر اسماعيل صحيفة واحدة هي «الرياضي»...

ومنذ بداية العهد الحالي انتهت تماماً صحافة القطاع الخاص الفردية الاسبوعية. فقد ألغيت امتيازات «كل شيء» لعبد المنعم الجادر و «المنار» لعزيز بركات و«الفكاهة» لحميد المحل و«المتفرج» لمجيب حسون و«الخبر» لكامل العايبجي وغيرها... وانتهت تماماً

أيضاً صحافة المحافظات. ويقول المحاضر: كنت احس بالألم والخيبة وأنا أرى الأجيال الجديدة من الصحفيين يقلّبون صحافة «الكويت» و«السعودية» ويتساءلون متى تصبح لدينا صحافة بهذا المستوى؟ وهم لا يعلمون أنّ «البصرة» عرفت الصحافة قبل أن تعرفها هذه الدول. . .!! وان العراق شهد صحافة مهنية متطورة حين كانت هذه الدول تطبع نشرياتها في بيروت. . .

وأشار المحاضر الى ان فترات تحالف البعث مع القوى السياسية شهدت صدور صحف سعت للتحول إلى المؤسسية ولكنها انتهت بنهاية تلك التحالفات، صحف سعت لاستثمار خبرة الرواد من صحفييّ العراق وإعادة التواصل بين الأجيال الصحفية وكان أبرزها «التآخي» للحزب الديموقراطي الكردستاني و«النور» لجماعة جلال الطالباني وأخيراً «طريق الشعب» صحيفة الحزب الشيوعي العراقي. وأكد الحمداني تعمق أزمة الصحافة في ظل الحكم القائم وكيف أصبح الخوف هاجس جميع العاملين. . . ويروي الحمداني عن سكرتير تحرير جريدة الجمهورية «هادي الانصاري» أنه كان يقول للمحرر المكلف بكتابة الافتتاحية: «أرجوك أريدها لا تضر ولا تنفع!!». لأول مرة في تاريخ المهنة الصحفية يصدر وزير الاعلام لطيف نصيف جاسم قراراً بمنع نشر أي خبر محلي مهم إلا في حالة بثه عن طريق وكالة الانباء المحلية. . . هكذا توحدت حتى الأخبار المحلية بعد أن أصبحت الافتتاحيات موحدة والأعمدة موحدة. . . وارتدت صَحافة العراق ذات التراث المهني العريق «زيّاً موحّداً» تفصله وتخيطه السلطة كيفما تشاء. . .

كما أشار الحمداني إلى أنه تابع الصحافة العراقية أكثر من ربع قرن الأخير كصحفي ونقابي وعضو في مجلس النقابة وشهد الانهيار المستمر في بنيتها. . . وأصبح مخبروها المحليون «سعاة بريد» وتحول التحقيق الصحفي فيها الى تقرير يمليه «المسؤول» على المحرر ويطلب قراءته قبل النشر!! أما «العمود» فقد اختفى تماماً باستثناء الكتابات الانشائية الغارقة في النفاق والدجل. . . وانزوى من تبقى من كتّاب الأعمدة واستعرض المحاضر كل المحاولات التي جرت لوقف التدهور المهني من قبل عدد من المحترفين أو ممن تبقى من الأجيال الصحفية التي شهدت صحافة عراقية حقيقية. . . وأشار الى أن كل تلك المحاولات فشلت لأن النظام لم يعد يرى في الصحافة العراقية سوى نشرات تعكس أخباره ووجهات نظره ولامجال فيها لأي نقد. . . واستذكر الحمداني محاولته مع عدد من زملائه في مجلس النقابة واللجان لأن يفعلوا شيئاً لوقف التدهور المهني بتقديم العديد من المقترحات لضمان وضع معيشي أفضل

للصحفيين يصونهم من الحاجة ويحفظ كرامتهم ويعزز مكانتهم الاجتماعية ويحميهم من أمزجة الاجهزة وعدوانيتها المستمرة عليهم ولكن أصبح النظام السياسي لايرى للصحافة العراقية دوراً أكبر من أداة تجميل لاجراءات النظام وقوانينه ويرى المحاضر في هذا الجيش الجرار من أعضاء النقابة حوالي «٢٨٠٠» حين ترك العمل النقابي في عام ١٩٨٩ مجرد موظفين لاحول لهم ولا قوة وأضاف: اذكر الليالي التي سهرناها في اللجنة المهنية والتي كانت تضمني مع عدد من الزملاء أكثرهم حماساً شهاب التميمي من أجل تطوير مسودة نظام ممارسة المهنة الصحفية الذي ساهم في إعداده الزملاء سجاد الغازي وفائق بطي وضياء حسن ابان التحالف الذي سميّ بالجبهة الوطنية ودفن معها وكيف اننا انجزنا العمل وناقشنا في هيئة عامة ثم أقره المجلس وتمّ إرساله إلى وزارة الاعلام ليدفن من جديد كما دفن بعده نظام الحوافز الذي أعددته شخصياً بهدف إعادة الروح الى المبادرة الفردية في الفنون الصحفية لا لشيء إلا لأن الدولة لم تعد تؤمن بأي دور للصحافة وأصبحت تنظر للصحفيين نظرتها لموظفي الكهرباء أو مصلحة نقل الركاب وهذه سمة للأنظمة الشمولية.

كان نائب الضابط أهم بكثير في رأي السلطة من سكرتير أو مدير التحرير... ولعل من سخريات الأقدار أن تكتب جريدة «بابل» التي يملكها عدي صدام حسين مقالة في عيد الصحافة العراقية عام ١٩٩٦ جاء فيها:

«انها بائسة شكلاً ومضموناً... لانبض فيها ولاحرارة... افترستها البيروقراطية... والنفوذ والاقطاعيات... صحافتنا اليوم بارحت الاثارة الصحفية وفارقها التنافس الصحفي الماضي للابداع والخلق والابتكار»، «غادرتنا الكتابات الصحفية الواعية العميقة... ذات المعلومات الجديدة المعززة بالأرقام والتواريخ والشواهد... وغزتنا على حين غرة كتابات هلامية تشبه حلوى الأطفال المعروفة بشعر البنات أو بيض اللگلك...»، «غادرنا المنهج الواضح في اقناع الناس والقراء... في فهم تصريحات المسؤولين ومساعدتهم على فك رموزها البنيوية»، «لقد استلمنا ارثاً صحفياً مبدعاً ومناضلاً وغنياً ورائعاً ولكن الآن نطبع صحفاً ساكنة كابية يعزف الناس عن قراءتها لأنها مكتوبة لبشر سعداء يعيشون في جنات نعيم. صحف مكدسة لدى الباعة ويطالعها الناس بعيون باردة... جامدة»، «كل الصحف تكتب نفس الافتتاحية لحدث ما ونفس العمود السياسي.. .إلخ».

واذا كانت «بابل» التي هي من نتاج النظام السياسي نفسه تذكرك مهنياً بأردأ صحف

الأربعينيات من حيث التحرير والاخراج قد لامست بعضاً من جوانب الحقيقة إلا أنها وقفت عاجزة عن ذكرها بالكامل أو عن ذكر المتسببين فيها. . .

وقال الحمداني: ابان عملي في مجلس النقابة تمَّ تكليفي وعدداً من الزملاء لإعداد مسودة لقانون جديد للصحافة وكانت الحرب العراقية الايرانية قد وضعت اوزارها والحديث يدور عن التحولات المرتقبة. . . وتملأ الأجواء أحاديث عن اطلاق حرية الصحافة والحريات الاخرى. . . وتحت إلحاح عدد من الزملاء المهنيين الذين تحدثوا عن الفرصة وضرورة الاستفادة منها مهنياً عملت مع الفريق المكلف لأكثر من ثلاثة أشهر درسنا خلالها قوانين عدد من الدول العربية والأوربية. واعددنا المسودة وناقشناها مع عدد من الزملاء المهنيين الرواد كما قمنا بعرضها على الزميل سجاد الغازي الذي كان يشغل موقع الامين العام لاتحاد الصحفيين العرب وكالةً، فابدى الرجل ملاحظاته القيّمة عليها. كما قمنا بمناقشتها مع عدد من المحامين، وقمت شخصياً بعرضها على الأستاذ حسين جميل المحامي الديموقراطي البارز والذي كنت ألتقيه أسبوعياً في مقر عملي في جريدة «الاتحاد» التي تبعد عن مقر سكناه بضعة كيلومترات كان يقطعها مشياً عند كل زيارة وقد أبدى الرجل ملاحظاته القيّمة التي أخذنا بها. . . وبعد ذلك نوقشت المسودة في مجلس النقابة ثم أُقرّت ورُفعت الى المسؤول عن الاعلام طارق عزيز وبعد مناقشة سريعة فوجئنا برسالة منه مرفقة بمسودة قانون جديد لاعلاقة لها بعملنا السابق. . . أحسست بالغثيان وأنا أقرأها بعد تسلمها من النقيب صباح ياسين واعدتها له مع ملاحظة واحدة هي ان القانون النافذ أفضل بكثير من المسودة الجديدة ولم أسأل عن المسودة التي أعددناها بعد أن علمت أن طارق عزيز علق عليها قائلاً هذا قانون يصلح لدولة غير العراق، يصلح لدولة ليبرالية.

واختتم الحمداني قائلاً: مهما استطردت في الحديث فان ذلك لن يضيف شيئاً الى الحقيقة التي لا جدال حولها والتي تتلخص بأنه لاصحافة بدون حريات عامة، وأن فكر العسكر لا يمكن أن يتحمل صحافة جادة حقيقية كما أن الحكومات لا يمكن أن تنتج ابداعاً أو تخلق تقاليد مهنية حقيقية. تلك هي الحقيقة المرّة التي أغفلتها «بابل» أو التي لم يستطع «المحرر» المكلف بالكتابة الاشارة اليها لأنه يعرف حدوده مسبقاً وجيداً، انه يكتب في صحيفة متخلفة مهنياً لايمكن لها أن ترقى الى المستوى الذي وصلته صحافة الخمسينات رغم الفارق والمتغيرات التقنية. . . وسأظل اطمح الى اليوم الذي ارى فيه دراسات جادة تتناول المسيرة المهنية لجريدة «المبدأ» لجعفر أبو التمن و«الاستقلال»

لعبد الغفور البدري و«الزمان» لإبراهيم صالح شكر و«البلاد» لروفائيل بطي. . . دراسات تتناول نشوء المؤسسة الصحفية في العراق، وتتحدث بالتفصيل عن المقالة الافتتاحية وروادها والعمود الصحفي ومبدعيه، والصورة الصحفية وتاريخها، وعن صحافة المحافظات ودورها في الحياة السياسية والأدبية. . . كي تطّلع هذه الأجيال التي تقلب اليوم باعجاب صحافة دول لم تكن تعرف الصحافة ايام كانت في العراق صحف تسقط وزارات وتهز أنظمة بكاملها ولكي لا ننسى ذلك التاريخ تحت ضغط «التأميم»وحكم «العسكر» وصحافة الحكومات. . . وسلام على أرواح فهمي المدرس وأحمد عزت الأعظمي وسامي خوندة وجعفر ابي الثمن وعبد الغفور البدري وإبراهيم صالح شكر وروفائيل بطي ونوري ثابت وملا عبود الكرخي وكامل الجادرجي وعزيز شريف ولطفي بكر صدقي ويوسف متي وقاسم حمودي وسلمان الصفواني وجارالله الدخيل وحسن الأسدي وعبد الرزاق الناصري وأمين أحمد ومجيد الونداوي وعبد المنعم الجادر ومحمود الجندي وشمران الياسري وصلاح خالص وسليم طه التكريتي ورشدي العامل ومنير رزوق وعدنان البراك وعبد الجبار وهبي. . . وسلام للأحياء أمد الله في أعمارهم الجواهري العظيم* وعبد الفتاح إبراهيم وحسين جميل وعبد الغني الخليلي وغيرهم ممن غابت اسماؤهم عن الذاكرة المتعبة في هذا المغترب. . .

وسلام على أرواح رفاق رحلتي الصحفية اسماعيل وضرغام هاشم والمصمم الفنان سامي حسن العتابي الذين دفعوا حياتهم ضريبة العمل في صحافة بلا حرية!!

ثم جرى تقديم الأستاذ ابراهيم الحريري الذي قدّم مداخلته، شفاهاً، ثم اعاد صياغتها كتابةً لتنسجم ومقتضيات النشر، وهذا نصها كاملاً:

«إتحاد الشعب» علمتنا...

«قبل حوالي ٣٧ عاماً طلبت مني هيئة تحرير «إتحاد الشعب» الكتابة لمناسبة مرور سنة على اصدار «إتحاد الشعب» في الطريق الى اللقاء بعمال مشروع دربندي خان، كتبت مقالة ــ خاطرة بعنوان «إتحاد الشعب علمتنا» وعندما عدت، سلمت المقالة الى هيئة التحرير، فظهرت في إتحاد الشعب بتوقيع «ايار». والآن وبعد مرور ٣٨ عاماً على صدور أول عدد علني من «إتحاد الشعب» وبعدما ينيف على ٣٧ عاماً من العمل في صحافة

* نظمت الندوة قبل رحيل شاعر العرب الأكبر الجواهري بايام قليلة. (ث.جـ)

الحزب حيثما اتيحت لي الفرصة، مازال اشعر بالرهبة ذاتها، وبالرغبة ذاتها، لكأني على موعد مع الحبيبة، وأنا اكتب لصحافة الحزب او عنها.

***

* كان مسؤولك الحزبي أو بالأحرى المشرف على المنظمة التي كنت تعمل فيها قد بلغك ان تقرر انتدابك للعمل في صحيفة «إتحاد الشعب» الصحيفة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، واوسع الصحف انتشاراً.

كانت صحيفة الحزب الشيوعي العراقي هي الوحيدة من بين صحافة احزاب جبهة الاتحاد الوطني التي تأخرت اجازتها وصدورها، ولاعجب، فقد كان هو الحزب الوحيد من أحزاب الجبهة الذي لم يدعَ الى المشاركة في الحكومة التي تشكلت بعد الاطاحة بالنظام الملكي، مع ان الحزب وصحافته لعبا الدور الاساسي، اعلامياً وسياسياً ـ وحتى عسكرياً ـ في التمهيد للاطاحة بذلك العهد. ولقد أشّر هذا، منذ البداية، التناقض الأساسي بين قوى الثورة المحركة وبين قيادة السلطة، هذا التناقض الذي حكم مسيرة ثورة ١٤ تموز حتى نهايتها الفاجعة.

ارتبطت اجازة صحيفة الحزب بالصراع في قمة السلطة بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف حول العلاقة بالجمهورية العربية المتحدة. فحين طرح عبد السلام عارف، في الأيام الاولى للثورة، شعار الوحدة الفورية مع العربية المتحدة، يؤيده في ذلك ـــ وبخلاف ما اتفق عليه في جبهة الاتحاد الوطني عشية الثورة ـــ التيار القومي بمختلف تلاوينه، طرح الحزب شعار الاتحاد الفيدرالي، يؤيده في ذلك التيار الديموقراطي بمختلف تلاوينه، بما في ذلك التيار الليبرالي. كان للحزب وللتيار اليموقراطي بأسره، بما في ذلك التيار الليبرالي، موقفه المتحفظ من تجربة الجمهورية العربية المتحدة، خصوصاً لجهة الغائها الحياة الحزبية. أما عبد الكريم قاسم الذي كان يسعى الى اقامة سلطته الخاصة فقد وقف، في النهاية، وبعد أن تأكد من جماهيرية موقف التيار الديموقراطي، ضد عبد السلام عارف. لم يكن يؤيد شعار الاتحاد الفيدرالي، وليس في خطبه وتصريحاته ما يشير الى انه يؤيد «الاتحاد الفيدرالي». لعله كان يعتقد ان اثارة مسألة العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة في الظروف المعقدة الصعبة التي تجتازها الثورة في أيامها الاولى، هي، ولعله محق، خارج الصدد وتقسيمه فالمهم تصفية تركة النظام الملكي وتوطيد الجمهورية الفتية.

وفي هذه الظروف المعقدة، التقى الشيوعيون بقاسم. لم يكن لقاءً على برنامج

للتطوير الديموقراطي اللاحق للبلاد، بل كل من موقعه على رفض سلبي لتجربة أخرى، ولقد جرى تحميل هذا اللقاء اكثر من طاقته، وفُسِّر بأكثر مما يتحمله.

حُسِم الصراع في قمة السلطة لمصلحة عبد الكريم قاسم، واجيزت صحيفة الحزب.

* صحفي؟ وفي «إتحاد الشعب» هكذا. . . مرة واحدة!

ترددتُ، بل رفضت! اخبرت مسؤولي الحزبي أن هذا كثير عليّ. لم يقتنع كانت رسائلي الى الحزب سواء قبل الثورة، أو بعدها، معلقاً أومنتقداً أو مقترحاً، كذلك بعض المساهمات «الادبية» في صحافة مابعد تموز «البلاد»، «الفتى العربي» — صدر منها باشراف الحزب بعد الثورة عددان أو ثلاثة — وربما «الزمان»، قد ساعدت على تكوين انطباع انني أملك بعض الطاقات الكتابية، وكانت هيئة تحرير اتحاد الشعب وقد اتسع دورها في الصحافة وفي حياة البلاد، قد طلبت من الهيئات الحزبية كافة رفدها بطاقات جديدة.

— «لن نسلمك اي عمل» قال الرفيق المسؤول «حتى تلتحق بالجريدة»!

وهكذا وجدت الطريق الى مكاتب «اتحاد الشعب» في محلة باب الشيخ صبيحة يوم شتوي.

ارتقيت السلم. كان طُلبَ مني اللقاء بالراحل زكي خيري. كان يذرع صالة الصحيفة «عادة سجنية قديمة كلما كانت تدلهم الأمور أو يحتدم الصراع أو يستغرقه التفكير في أمر جدي».

فاتحت أبو غايب — هكذا كنا نسميه حتى رُزِقَ بيحيى — بما اتيت لأجله. سأل وقد انعقد حاجباه في تقطيبته الشهيرة «عندك سابق تجربة؟»

— لا! أجبت وأنا لا أخفي برمي من هذا المأزق الذي وجدت نفسي فيه؛ مسؤول يدفعك — رغم تمنعك — دفعاً الى الجريدة، وآخر يمتحنك! — لكن « أضفتُ «جربوني»!

* انفرجت تقطيبة أبو غايب، التمعت عيناه بذلك البريق الساخر الذكي، فتعرف فوراً انك ستسمع تعليقاً لاذعاً. قال بين الضحك والهمهمة — ضحكته الشهيرة — «والتجربة اسوأ برهان»!

ودفعك الى مكتب خشبي تحت السلم الذي يرتقي الى السطح، هذا المكتب الذي لن تبارحه، ملخصاً للعرائض ثم ملتقطاً للأخبار الخارجية مساءً ومحرراً في الصفحة العمالية ثم مسؤولاً لها وعضواً في هيئة التحرير.

ولعله كان يزدهيك — وماتزال — انك، وقد انحزت، مبكراً، الى صفوف الكادحين،

موقفاً وفكراً، وطريقة حياة، وتنقلت بين ورش التجارة والحياكة اليدوية، ان تنتقل الى ورشة أخرى في العمل من أجل الكادحين، بالكلمة هذه المرة، وان تجد نفسك، في القلب من معارك الكادحين، من أجل حرية التنظيم النقابي وتحسين ظروف العمل وزيادة الأجور والضمان الاجتماعي وقانون عمل تقدمي، وان تنتقل بين مقرات الهيئات التحضيرية للنقابات العمالية، وكانت تخوض معركة اجازتها وشرعيتها، وبين ورش العمل والمعامل يحدثك العمال عن همومهم ومشاكلهم، فينصبُّ ذلك عرائض ومقالات وتعليقات في الصفحة العمالية لصحيفة الحزب، وبين ورش العمل وورشة الجريدة. يولد «أيار» واخوة له «عامل سمنت»، «عامل زيوت»، «أبو خليل»، وغيرهم من الشخصيات، أولئك العمال والكادحون الذين اسرّوك همومهم وآمالهم، فنفضتها بأسمائهم، سطوراً وكلمات على صفحات الجريدة. . .

تنتقل مكاتب الصحيفة الى بناية اعدها المهندس المقاول فريد الاحمر، في الشيخ عمر، وينتظم العمل، وتنتظم اجتماعات هيئة التحرير، بقيادة الشهيد عبد الرحيم شريف، يتناوب الاشراف عليها زكي خيري، أكثر الاوقات، وعامر عبد الله ومحمد حسين أبو العيس، أحياناً، وسلام عادل ذاته في المنعطفات الهامة من حياة الحزب والبلاد، مثل معركة شرعية الحزب، ومعركة النفط، حين غامر الحزب بكل صحافته الشرعية، من أجل تصليب الموقف الوطني للمفاوض العراقي، والدعوة الى خوض المعركة بالاعتماد على الشعب وقواه الوطنية واطلاق حرياتها، فيما كان قاسم يغذ السير في طريق الحكم الفردي، فيحرم الحزب من شرعيته ويقيم «حزبه الشيوعي»! بعد أن كان جهاز السلطة زوّر انتخابات النقابات العمالية بالارهاب والملاحقات، وأقام اتحاده العمالي واتحاده الفلاحي.

في هذه الظروف ولدت شخصية «حمدان» وصديقه، الساخرة المنتقدة المعلقة على الأحداث اليومية في أسلوب يجمع بين الحكاية والنقد، ولعلها كانت بداياتي الاولى، تمريناتي الاولى على كتابة القصة القصيرة.

في الطريق الى مكاتب الصحيفة، وفي احدى زوايا الشيخ عمر، تلتقي صديقك القديم «غيدان» عامل النسيج اليدوي في ورشة حياكة «بيت عطرة»، في بقجة عطرة اول شارع المحيط في الكاظمية، ولقد علمك وآخرون، أصول حرفة الحياكة، ولقد شدك صوته الشجيّ، الى الابوذية، فحاولت ان تعلمه بعد ان ينتهي العمل مساءً وتتحول ورشة العمل على ضوء اللوكس الزيتي الى ورشة للتعليم الحِرْفي والسياسي لمكافحة الأمية، وقراءة

بيانات الحزب وتاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي! حاولت ان تعلمه وعمال الورشة الآخرين مبادىء القراءة والكتابة والشيوعية، لم يتعلمها، بل تعلمها على طريقته! لم ينتم الى التنظيم، لكنه ظل صديقاً للحزب وللشيوعيين، يقرأ «يفسّر» الشيوعية على طريقته، مزيجاً من الطقوس الحسينية، والكأس والابوذية، وسيكارة ملفوفة «كما يقول المصريون عن الحشيشة» بين الآن والآن. . .

تلتقي «غيدان» بائعاً للفشافيش والشاي في احدى منعطفات ورش الكادحين في الشيخ عمر، يتحلق حول مائدته الكادحون، معلقين على الأحداث، تلعلع بينهم حكايات غيدان ونكاته الذكية، الفاضحة أحياناً، وغناؤه الشجيّ، وصمونته واستكان شايه الحار. . .

. . . فتولد في ورشة الجريدة «حكايات حمدان» ولكم عانيت وعانى حمدان ـــ غيدان من أجل أن تحتفظ بحرارته ونكهته، وبالأساس بموقفه الناقد، المحذر، من المهاوي التي يجرّ اليها البلاد، الحكم الفردي.

كان ثمة مزاج يدعو الى عدم اغضاب عبد الكريم قاسم ومراعاة مزاجه، حتى لو تطلب الامر التراجع وتقديم التنازلات، وكان هناك من يغيّر مواقفه بحسب مزاجية قاسم، بدل التوجه الى تعبئة الجماهير وخوض معركة الحريات النقابية وحرية التعبير، والديموقراطية بشكل عام، حتى نهايتها.

ومع ذلك فقد كانت الصحيفة الاقرب الى نبض الشارع السياسي، مكاتبها مفتوحة للمواطنين من طبقات وفئات مختلفة يعرضون شكاواهم، ومحرّروها يتنقلون بين الناس ويعيشون حياتهم، ولكم احتدم النقاش، في هيئة التحرير، بين الرغبة في عكس هموم الناس، وبين الخط السياسي الذي يدعو الى مراعاة مزاجية قاسم وعدم اغضابه، حتى كان الأمر يتطلب، أحياناً، اصدار نشرة، مثل نشرة الانواء الجوية، حول مزاج قاسم في هذا اليوم!

ومع ذلك فقد ظل الحزب، وظلت صحيفته، ورغم كل محاولات الكبح ومراعاة مزاج قاسم، في القلب من معارك الكادحين من أجل حرية التنظيم النقابي، ثم السياسي، ودفاعاً عن حرية الصحافة، ومن أجل ارساء الحكم على أسس ديموقراطية، هذا الشعار الذي برز متأخراً جداً، بعد ان نفضت قيادة الحزب أو أقسام هامة منها، يدها من قاسم، وبدأت تتحول الى تعبئة الجماهير من أجل الدفاع عن حرياتها من جهة، واقامة التحالفات الضرورية من أجل احداث انعطافة ديموقراطية في حياة البلاد.

كانت «اتحاد الشعب» واخواتها «صوت الشعب» وغيرها في القلب من هذه النضالات، حتى خسر الحزب صحافته الشرعية، الواحدة تلو الاخرى، وحتى الصحافة الحليفة مثل «الانسانية» و«الحضارة» وربما «صوت الاحرار» ايضاً. . .

لكن الامر كان يتطلب اكثر من معارك صحفية. . .

لعله كان يتطلب نقل المعركة الى الشارع وخوضها حتى نهايتها، دفاعاً عن صحافة الحزب وعن حرية الصحافة، وعن حرية التنظيم، وعن الديموقراطية، أي حل الاشكالية بين قوى الثورة المحركة وبين قيادة السلطة، هذه الاشكالية التي ولدت مع أول أيام ثورة تموز ورافقتها حتى نهايتها الفاجعة.

ويتساءل المرء، وفي البال تجربة الدفاع عن صحيفة البرافدا حين دعا الحزب البلشفي العمال والكادحين والجنود الى الدفاع عن صحيفتهم بعد أن أصدرت حكومة كيرنسكي الأمر باغلاقها، يتساءل «وما اسهل التساؤل الآن!» اما كان بالامكان الاعتصام في مكاتب الصحيفة ودعوة الكادحين العراقيين الى الدفاع عن صحيفتهم؟ اما كان بالامكان تحويل هذه المعركة وتطويرها الى معركة حاسمة من أجل احداث انعطافة ديموقراطية جوهرية في حياة البلاد؟

ومع ان عقد المقارنات التأريخية هو أمر خطر، لكن ليس عفواً ان ترد على البال المقارنة بين ثورة شباط ١٩١٧ الديموقراطية في روسيا، وبين ثورة ١٤ تموز التي كان مفروضاً فيها ان تنجز مهمات الثورة الوطنية الديموقراطية، فكلتا الثورتين حدثتا في ظل مفارقة تاريخية: نفوذ هائل لقوى الديموقراطية واليسار في الشارع من جهة، وسلطة عاجزة عن السير بالثورة الى نهايتها، ما لبثت ان تحولت في الجوهر الى سلطة معادية للثورة. وحين دعا الحزب البلشفي العمال والكادحين والجنود الى الدفاع عن الثورة في وجه هجوم فلول القوات القيصرية على مدنية بتروغراد الثورية، مالبث ان طور هجومه على سلطة كيرنسكي، من أجل السير بالثورة حتى نهايتها.

كانت العديد من الظروف متشابهة، إلا لينين! وهو بحد ذاته، ظاهرة فريدة لم يكن من الممكن استناخها «مادام الحديث يدور، الآن، عن تجارب الاستنساخ!».

وفي معرض الرد على هذه المقارنة قيل ان اللعب بالثورة قرب منابع البترول، هو لعب خطر، كان يمكن ان يؤدي الى اشعال المنطقة بكاملها، وربما العالم بأسره!

لكن من الجهة الاخرى، الم يكن حرمان الامبريالية العالمية، من أكبر احتياطي للطاقة، هذا الاحتياطي الذي ساعدتها امواله «البترودولار» على تحقيق ثورتها التكنولوجية،

وخوض الحرب الباردة حتى نهايتها الظافرة، انهيار الاتحاد السوفيتي والدول «الاشتراكية» الاخرى، الم يكن حرمان الامبريالية والرأسمالية العالمية من هذا الاحتياطي الهائل، وتحويله الى احتياطي لشعوب المنطقة وحركات التحرر والتقدم والاشتراكية في العالم، الم يكن هذا سيضعف من قدرة الامبريالية على المغامرة وشن الحرب، ويسرع في نهايتها؟

وقيل ايضاً، ان الوضع الدولي كان قد تغير فقد انقسم العالم الى معسكرين، يلعب فيه المعسكر الاشتراكي «وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي العظيم!» دوراً متزايداً الاهمية وان عصرنا هو عصر الانتقال الى الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفيتي، بل لقد تطور الأمر الى نظرية متكاملة عن طريق التطور اللارأسمالي الذي تلعب فيه الديموقراطية الثورية «لم يستطع أحد ان يحدد ماهية هذه «الديموقراطية الثورية» ظلت مثل سيمياء تحويل المعادن الردئية الى ذهب في القرون الوسطى!» تلعب بالتحالف مع المعسكر الاشتراكي «وعلى رأسه... طبعاً!» دوراً قائداً...

لعلها تلك هي ـ اذن ـ القضية، فالبيروقراطية التي كانت تريد بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وفي دول أوربا الشرقية، بمعزل عن الجماهير ومن دون اطلاق مبادرتها بل بالاعتماد على جهاز الدولة البيروقراطي، تطورت الى نظرية عالمية، تستصغر دور الجماهير وحركاتها الثورية في احداث التحولات التاريخية الكبرى وهي تتطلب اقصى المبادرة الجماهيرية، اقصى حرية للجماهير، الديموقراطية بمعناها الاوفى.

لم يتطور عبد الكريم قاسم وفيما بعد صدام حسين «والقياس مع الفارق بين القيادتين والثورتين» الى ديموقراطي ثوري بل الى قائد للثورة المضادة واذا استخدمنا الصورة الصحفية او الكولاج «وهو فن سيتطور كثيراً في زمن «الديموقراطية الثورية»» فيمكن استدعاء الصور الصحفية التالية التي كانت شائعة ايام ذاك:

صورة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، ثم صورة عبد الكريم قاسم وحده بعد ان جرى حذف عبد السلام عارف من الصورة ومن السلطة «مؤشر على أول شرخ بين قيادة السلطة وبين الحركات القومية».

صورة عبد الكريم قاسم وأبناء الموصل الذين نشطوا ـــ برغم التجاوزات ـــ واستجابة لنداء عبد الكريم قاسم ذاته في القضاء على تمرد الشواف، ثم صورة عبد الكريم قاسم وحده، بعد ان تم حذف أبناء الموصل احكاماً بالاعدام واغتيالات وغير ذلك

«مؤشر على انفكاك عرى التحالف بين قاسم و القوى الديموقراطية واليسارية وفي القلب منها الحزب الشيوعي العراقي وتحول سلطة قاسم الى تقليم أظافرها ثم تصفيتها»

صورة عبد الكريم قاسم والملا مصطفى البارزاني ثم صورة عبد الكريم قاسم وحده بعد ان انحذف البارزاني وحركة الشعب الكردي القومية، مرة اخرى، الى الجبال.

اما الليبرالية العراقية فلم تظهر في الصورة مع عبد الكريم قاسم، آثر قسم منها الاعتزال ـــ كالعادة! ـــ احتجاجاً، فيما اختفى القسم الآخر وراء صورة عبد الكريم قاسم.

وهكذا أصبح قاسم في قمة السلطة، وحده! وحين كان يبدو له انه أصبح، وقد انفرد بالسلطة، في اوج قوته، كان في الواقع، على شفا الانحدار على حافة الهاوية، وحين عجز التحالف الديموقراطي اليساري عن حل أزمة الثورة بطريقته، حلها التحالف القومي ـــ الرجعي بطريقته.

لم يكن قاسم، في الواقع، يؤمن بالجماهير، ولا بضرورة الاعتماد عليها وعلى حركاتها المنظمة للدفاع عن الثورة والسير بها حتى النهاية، بل لم يكن يريد السير بها حتى النهاية، وحاول كبحها فتحول، عملياً، الى قائد للثورة المضادة.

كان يعتقد ان الثورة هي من عمل بعض القطعات العسكرية، وانه قادر على حماية سلطته بتحريك بعض القطعات العسكرية واستبدل قوانين الثورة ـــ هل كان يعرفها حقاً؟ ـــ بالقوة السحرية لخطبه! «يتذكر المرء عفو الخاطر تحليل فرويد الرائع لشخصية ويدره ويلسون الذي كان يعتقد ان بامكانه التأثير على التطور العالمي بسحر كلماته! وهو ما اعتبره فرويد نوعاً من الاستنماء من فوق!» وحين تحركت قوى الثورة المضادة، التي كان هو ذاته اطلقها، لسحقه واكمال ما بدأه هو، بدونه، والسير بالثورة المضادة حتى نهايتها القصوى، سارع الى ارسال خطاب مسجل بصوته الى الاذاعة! يدعو فيه لسحق الانقلاب، متجاهلاً هدير الآلاف المحيطين بوزارة الدفاع مطالبين بالسلاح لسحق الانقلاب، وبدأ الاتصال بقادة القطعات العسكرية الذين كانوا قد تحركوا لسحقه.

وحين تأكد له ان خطابه لم يصل الاذاعة، بل سلمه مرافقة الى قادة الانقلاب! وان القادة العسكريين الذين اعتمد عليهم خانوه اعتبر ان كل شيء انتهى، فضل الاستسلام للاعداء على الاحتماء بالجماهير وقيادة المقاومة، معتقداً ان بامكانه التأثير على قادة الانقلاب بقوة خطابه! ليوفروا له حياته. . .

وهكذا انتهى، نهاية فاجعة، وما كان يمكن الا ان تكون فاجعة، قائد الثورة والثورة المضادة. . . وضحيتهما في آن! ولكن ليس وحده. . . فقد سقط معه آلاف الشيوعيين

والديموقراطيين والثوريين عسكريين ومدنيين، وانتهى فصل باهر من مسيرة الشعب كان يمكن ان ينتهي، بالأحرى ان يتواصل تواصلاً باهراً، حياً منفتحاً على المستقبل لولا. . .

يروي الرفيق ثابت حبيب العاني وهو أحد كوادر الحزب الشيوعي العراقي المتخصصه في العمل في القوات المسلحة ان قائد القوة الجوية الشهيد جلال الاوقاتي — وكانت تربطه بقيادة الحزب علاقة خاصة — اتصل بقيادة الحزب عارضاً حل اشكالية العلاقة بن القوى المحركة للثورة، وقيادة السلطة بالاستناد الى الحزب وثقله السياسي بين الجماهير ونفوذه داخل المؤسسة العسكرية وبالتعاون مع العسكريين الديمقراطيين واليساريين في وزارة الدفاع، شرط ان يؤمن الحزب ملاذاً لعبد الكريم قاسم في احدى الدول الاشتراكية.

ويتساءل المرء، لو تم الأخذ باقتراح الشهيد الاوقاتي، اما كان مايزال حياً، ليس الاوقاتي وحده، بل عبد الكريم قاسم ذاته، لو امتد به العمر؟ ولكان بدأ فصل جديد، اكثر اشراقاً في حياة الشعب العراقي، وربما في حياة شعوب المنطقة بأسرها، وهي من أكثر مناطق العالم حساسية وتأثيراً في وجهة التطور العالمي؟

لو. . . لكن آه من الـ «لو». . . «الـ «لو» زرعوه وماخضّر — مثل شعبي عراقي»

وذلك ان التاريخ، هو، في النهاية، ما حصل وليس ما كان ينبغي حصوله، اذ لو كان هذا الاخير يملك قوة التحقق. . .

. . .لكان تحقق!

***

هو ذا أبو سعيد، وقد ادركه مخاض التعليق اليومي، فتشب الصحيفة باسرها على اطراف اصابع قدميها، هو ذا أبو سعيد يروح ويغدو بين مكتبه ومكاتب المحررين الآخرين يداعبهم بالنكتة والتعليق اللاذع، ثم يهرع الى ورقته مضيفاً هذه الكلمة، شاطباً تلك، يهرع الى سطيحه المطبعة، يذرعها، حارقاً اللفافة تلو اللفافة، مقلداً اياك، وانت تترجل عن دراجتك البخارية حاملاً حصاد النهار بين مقرات النقابات والمصانع والورش، متصنعاً جدك: ترررر بم ترررر بم، ثم مطلقاً قهقهته المدوية. . .

ثم يعود الى التعليق يصارع الكلمات، محاولاً التوفيق بين مزاجه الثوري الساخر، الناقد، اللاذع، وبين مزاج «الخط» المحكوم، الى حد، بمزاج عبد الكريم قاسم المتقلب. . .

هو ذا سلام عادل بابتسامته الجانبية، ينحني على أحد الوافدين يسره فيما يشبه الهمس، بدوره في خطة بهدلة الحزب الشيوعي لصاحبه عبد الكريم قاسم!

وعلى غير مبعدة الصكار ينمنم الكلمات تعليقاً شفافاً، أو الخط الجديد ترويسات للجريدة. . .

ويكون أبو زيدون الجاثم، المكتوم، على مكتبه يهيئ صفحة الفلاحين بالتعاون مع ابو كاطع الذي لم يكن بارح، بعد، الصاية والعكّال. . يروي «أبو زيدون» بين الفينة والفينة، وهو يمسح العرق المتصبب سواقي فوق جبهته وخلف اذنيه بمنديل يحرص ان يضعه خلف رقبته، النوادر والحكايا عن سياسيي العهد المباد وهذا العهد ورجالاتهما.

وحين تنعطف الى غرفة الترتيب سيسارع ابو ناصر «مرتب عتيق» الى اخفاء كأس العرق في احدى مخابىء الشكاه، وما اكثرها، لكنه حين يطمئن الى انك انتَ، ولست واحداً من «المسعولين» كما كان يهمهم ــ يخرج عرقه ومازته ويدعوك الى المشاركة، ممزمزاً بالشعر الشعبي. . .

يفاجأ كما عدنان البراك، الدائر الدائب مثل نحلة بين اقسام التحرير والترتيب والطباعة فيسارع ابو ناصر الى اخفاء الكأس، من جديد. . .

ستكون قبل ذلك، وقد التقيت سعدي يوسف، الذي أصبح جارك، في الباص الى الجريدة، ستكون قد استمعت الى قصيدة الليلة الفائتة.

وسيكون بديع عمر نظمي يهيء افتتاحية الصفحة الدولية عن الصراع الصيني ــ الهندي، منحازاً الى الصينيين بالتأكيد! «احنه شعلينه هنود وصينيين بيناتهم!» مدندناً لحناً من اوبرا البرنس ايكور.

اما عزيز سباهي فيكون، وقد اتم اعداد الصفحة العربية، يتطلع اليك من فوق نظارته التي انحدرت حتى كادت تنزلق من فوق ارنبة انفه متسائلاً: «هابويه. . . ماكو شي ها اليوم لحمدان؟» ثم يلتفت الى علي الشوك الذي يكون يضع اللمسات الاخيرة على مقالته التراثية.

سيكون تأخر بك الوقت فتنزل الى قسم الطباعة. ثمة ابو صلاح «أخ الشهيد سلام عادل» الفتى الموهوب يراجع الخرائط ويركب قطع المطبعة الجديدة. وتنعطف الى غرفة التصحيح، تراجع مع سعدي الحديثي بروقات الصفحة العمالية، وتستمتع بحداثه البدوي المحتد العريض الشجيّ.

اية ورشة للفكر والابداع والنضال قدر لك، للعشرات، بل المئات ــ منهم من

قضى. . . ومنهم، مثلك، من ينتظر ـــ قُدِّر لكم ان تمرّوا بها، فتعلمكم، وتعيد خلقكم خلقاً آخر: كتّاباً وصحفيين ومعلقين وشعراء وخطاطين ومترجمين وطباعين، وقبل كل شيء: رفاقاً جمعهم الانحياز الى صف الكادحين وحزبهم وصحيفتهم. . .

***

الآن وبعد ٣٧ عاماً على تلك التجربة الثرّة ـــ تظل تَحنّ اليها حنينك الى الطفولة الاولى، الى البراءة الاولى، الى الرحم الامومي ـــ تتملكك، وانت تتحدث، وانت تكتب، الرعشة ذاتها، رعشة الرهبة والرغبة، لكأنك تخوض اول تجربة حية، لكنه ذلك الحبُّ المتجدِّد على كرِّ السنين، مهما شطَّ بك، وبغيرك الركب، ونأى المزار. . .

تظلُّ، وبعد ٣٧ عاماً، مسافراً يضرب في التيه، لا يعرفُ، اقدّاماً يسعى ام وراء، يخبُّ، ولا يعلم الى اي آخر مفض الطريقَ ولا الى اية آخرة ويتساءل: هل ستكون الآخرة ـ حقاً ـ خيراً من الاولى؟

لكنك تظل تبحث ـــ تلوب ـــ عن نجمة الشمال، زادك الخبزُ والكلمة سكران بنشوة اتحادهما، واتحادك معهما، ذات مرة. . .

سكران ـــ هيمان ـــ بنشوة اتحاد الخبز بالكلمة، دم الغادي وجسده، الخمرة وكسرة الخبز، وكأنك تتلقى عند مذبح الرب، مذبح الخبز والكلمة، مناولتك الاولى. . .

تهتفُ، في شتاءات عمرك وروحك، في المنفى البارد البعيد، وقد تعذّرت عليك الولادة من جديد، وانت تدرك ان لاشيء يتكرر، الاّ على شكل مسخرة؛

تهتف، تهفو الى القيامة، قيامة العراق، وقيامتك، بالروح، معه، القيامةُ، بالخبز والكلمة، تكاد تراها رؤى العين، على كلالها، والنأيُ؛

تهتف:

سبحان الكلمة الطالعة من كُوَر العمل وتنانير الخبز!

فقد علمتنا «اتحاد الشعب». . .

. . .وماتزال!

«صديق حمدان، أيار، نَفَر، زكّور. . . وما شاكل!»

كندا ١٣/٧/١٩٩٧

حسن فتحي، رائد العمارة المحلية[1]

جاسم الدباغ

«إذا وضعت شيئاً ما في فضاء مفتوح، ولم يكن منسجماً مع المحيط، فأنت ستُعاقب إما من الطبيعة أو من الإنسان»
حسن فتحي

حسن فتحي (١٩٠٠ ـ ١٩٨٩) بلا منازع، ممثل لأحد أهم التوجهات المعمارية المعروفة في التعامل مع العمارة المحلية. فهو رائد الدعوة لأستعمال المواد الأولية المحلية، الطين خصوصاً مع التكنولوجيا «الفطرية». كان مُنظّراً وداعية وممارساً فعلياً لطروحاته منذ منتصف الأربعينيات خصوصاً، وبقي أميناً لأفكاره طوال حياته. لم يشتهر إلا في الستينيات. حين نشر كتابه الشهير «العمارة مع الفقراء في الخارج»، تحدث فيه عن تجربته في تصميم وتنفيذ قرية «القرنة الجديدة» التي استمر العمل بها مابين ١٩٤٥ ــ ١٩٥٣. نُشر الكتاب بالانكليزية وأثار اهتماماً واسعاً في الأوساط المعمارية الدولية. ومنه تعرفت أوربا على أفكار فتحي، قبل أن يكون مشهوراً أمام مواطنيه. وبسبب تجاهل افكاره في مصر، طلب من ناشر كتبه، عدم ترجمة الكتاب الى اللغة العربية. لأن «العرب لا يستحقونه»، حسب تعبيره.

***

دعا الكثير من المثقفين، بعد الحرب العالمية الثانية خصوصاً، الى تقليد الغرب، سلوكاً وحضارةً، واعتبر التراث بالياً. فجاءت آراء فتحي في زخم هذه الطروحات، مفاجأة للجميع بدعوته الى «عمارة الطين» كحل للمتطلبات، وللحاجات، إضافة الى كونها حلاً للمعضلة الاقتصادية المعرقلة الأولى لتنفيذ مشاريع السكن وحل أزمته. أصرَّ فتحي على تنفيذ مشاريعه وفق النظام التعاوني، أي البناء بأيدي الفلاحين، ساكني المنازل مستقبلاً. فهم خير من يعرف المتطلبات. إعترض الكثيرون، من إداريين ومهندسين، على هذا الأسلوب، بدلاً من نظام المقاولات المعروف. وحذروا من إحتمال سيادة الكمّ على النوع في مثل هذا الأسلوب (التعاوني)، وذلك لجهل أغلب الفلاحين لتقنية بناء المساكن. ردّ فتحي بكلمته المشهورة «فلاح واحد لا يبني بيتاً، لكن عشرة فلاحين يبنون عشرة بيوت». مع هذا إستمرت حملات مضادة، تُشن، تسيء لتوجهاته.، حتى إن أهم مشاريعه تمّ اهمالها أو تحطيمها عن عمد. فتمّ تخريب السدود الترابية على النيل. فأغرقت بعض مشاريعه بحجة الفيضان. كما تمّ تحويل مشروع سكني آخر إلى سجن لمهربي المخدرات، وذلك لمنع زيارة المشروع من قبل الوفود المحلية والأجنبية المتلهفة لمشاهدة مشاريع هذا المعمار. مع هذا، لم يتراجع فتحي، بل زاده ذلك اصراراً، وعندما أُعيب عليه اهماله لتكنلوجيا البناء المتقدمة والمتوفرة في أوربا، كان يردّ بتهكم. . . «الله خلق الانسان من طين، ولم يخلقه من حديد واسمنت!». رفض بشدة التكنولوجيا المعاصرة من أنظمة إنشائية ومواد بناء، وفي مقدمتها الإسمنت. وكان لا يتردد في أي مناسبة في ذكر سلبياته. سُئل مرة عن مدى إستعداده لإستعمال الإسمنت المسلح. لو كان أرخص من الطين؟ أجاب بدون تردد: «لن أستعمله» ولكي يبرر موقفه هذا، قدم نماذج اختبارية لبيوت من الطين كلفتها لم تتجاوز ١٥٪ من كلفة بناء مشابه مبني بتكنولوجيا معاصرة.

بدأ حسن فتحي يبشر فلاحي مصر بحلّ مشاكلهم السكنية والعامة. فقدم جرداً بخمسة آلاف قرية مصرية تحتاج لإعادة البناء كلياً أو جزئياً. وأعلن استعداده لحل المشكلة بأقل تكلفة اقتصادية.

في أواخر سنوات عمره، اشتهر فتحي عالمياً، وتوافدت عليه العديد من الوفود في داره الواقع في أحد أكثر الأحياء شعبية في القاهرة. وأخذ يُنعت بعدد من الألقاب، كان يفرح فقط عندما يُنعت بكونه «باني عمارة الفقراء». لم يملك فتحي مكتباً هندسياً معمارياً، بالشكل المألوف، بل كان يصر على العمل في بيته ومواقع العمل، مع القليل من مساعديه.

لم تكن آراء فتحي محصورة في العمارة كمفهوم هندسي وفني مجرد، بل اشتهر بمعايشته للساكن، المستفيد (الزبون)، وإستشارته قبل التصميم والعمل ضمن موقع العمل نفسه. فعند بدء تنفيذ مشروعه الأول، الأشهر، وهو قرية «القرنة الجديدة»، قسم العوائل إلى مجموعات متجانسة من ناحية صلة القرابة أو تشابه المهنة، وعيّن لكل مجموعة رئيساً. وناقش تفاصيل المشروع وتوزيع المساكن وتحديد المحلات مع كل عائلة. كما اعتمد على وضع برنامج مهني تُلقى فيه محاضرات تطبيقية ونظرية حول طريقة البناء من قبل المختصين والحرفيين على باقي الفلاحين.

رغم قلة ما نفذ فتحي من مشاريع، كما سنلاحظ، غير إن ما قدمه كان عمارة إستثنائية تركزت على تلك الملائمة للمناطق الريفية، والمناطق الحارة ـــ الجافة تحديداً. التوجه هذا لم يكن معروفاً. فمع بداية الحملات الاستعمارية، واجه الأوربيون واقع العيش في طبيعة ومناخ غير مألوفين لهم. فكان عليهم إيجاد حلول تخطيطية، معمارية ملائمة للمستوطنات والمعسكرات الجديدة، التي إنتشرت في عموم الريف والصحارى. وبينما توجه السكان المحليين إلى تقليد العمارة الأوربية، فَضَّل الأوربيون السكن في أبنية تقليدية. في ذلك الوقت، شهدت أوربا حملة ضد «العمارة الدولية»، علماً أن المعمار الأوربي كان يهاجم العمارة الدولية وهو يملك بدائل معمارية وتكنولوجية عدة. ونتيجة للتخلف العام في مصر والبلدان المستعمرة الأخرى، لم يملك فتحي سوى التراث المعماري، مع تخلف عام للتكنولوجيا المتوفرة محلياً.

اتسمت مشاريع فتحي باستعمال المواد البنائية المحلية من طين، وحجر أحياناً، وبحجوم وواجهات وتفاصيل معروفة في المنطقة. شجّع ذلك منتقديه على القول بأنه لم يقدم شيئاً يذكر سوى إستنساخ فضاءات قديمة تجاوزها الزمن، تعتمد عمارة متخلفة، تحاول عاجزة إيقاف حركة التطور المعماري. كانت هذه الإتهامات قاسية تنتقص من قيم وأفكار وأعمال فتحي المعتمدة على نتائج لتحاليل ودراسات علمية للعمارة المحلية والتراثية. فقد درس فتحي التراث المعماري الفرعوني والاسلامي بعمق وقدم مفهومه للرمز في العمارة الاسلامية، الذي أسماه «الوجدانية». وقارن ذلك مع رمزية العمارة القروسطية.

تعمق فتحي في أسس تصميم المسجد وتوصل إلى أن للمسجد محورين رئيسيين، هما المحور العمودي الذي تقع القبة في نهايته، وهي التي تمثل السماء أو الإله، حسب رأيه، أما المحور الأفقي فهو يمر، رمزياً، عبر المحراب متوجهاً إلى القبلة. وتوصل إلى

أن العمارة الاسلامية ورثت الأقواس، لكنها أهملت القوس ذا العقد النصف دائري، في حين ركزت على القوس ذي العقد الناقص (عقد حدّوة الحصان). الأول يرمز، حسب فتحي، للسكون والموت، أما الثاني فهو حيّوي، حاول فتحي أن يبرر وجود المحراب بالمقارنة مع الباب الوهمي (شكل باب ولكنه مغلق فعلياً) في المعابد الفرعونية الذي كان يرمز للسماح بمرور الروح وليس الجسد.

يمكن تفصيل بعض آراء فتحي هذه بسهولة. فالمحراب، مثلاً، هو أحد العناصر الدخيلة على العمارة الاسلامية. فإتجاه القبلة كان يُحدد بالمنبر وليس بالمحراب، الذي تعود أصوله إلى موقع المذبح في الكنائس. كذلك الحال مع القبة التي اقتبست من العمارة البيزنطية، كأفضل حلّ لتسقيف فضاءات كبيرة مع أقل عدد من الأعمدة، إضافة لتأثيرها النفسي من الداخل أو من الخارج. مع هذا فإن لفتحي آراء هامة في جمالية العمارة (الإستاتيك) فهو يفسّر الجمال بكونه نتاج التفاعل بين الشكل والقوى المؤثرة عليه. فجمال شجرة ما، حسب رأيه، لا يمكن تلمسه بدون التعرف على موقعها ضمن التشكيلة الطبيعية التي تحيطها من هواء وجبال وأنهر وصحارى، وكذلك العوامل المؤثرة عليها مناخياً. فبقاء الشجرة غير مستقرة جرّاء كل هذه العوامل هو ما يعطي للشجرة البعد الجمالي. يستشهد فتحي هنا بطرح للفيلسوف الصيني «لاوتسي» في مقولته الجدلية «التكملة دون الوصول الى الكمال مفيدة، والأنجاز دون الوصول للهدف، أمر مرغوب فيه». ويصر فتحي على عدم وجود جمال مجرد: «. . . عندما أكون في الطائرة، أتعلق بشدة بشكل السحب التي تتحدد اشكالها من قبل قوى الرياح وتتغير في كل لحظة. السحب جميلة دائماً. لأن أشكالها غير مفتعلة بل هي نتاج القوى المؤثرة عليها».

مثل هذه الآراء كانت تجد لها دعماً، خصوصاً مع تذمر السكان من مظهر الواجهات العامة للمناطق الحضرية الجديدة، البائسة، المملة. وعندما سُئل فتحي عن رأيه بالمعماريين الذين يقومون بهذه المشاريع، ردّ: «مع الأسف، أنهم مهندسون وليسوا معماريين!». فهو ينتقدهم لإستنساخ مبتذل للعمارة الغربية المعتمدة على التطور التكنولوجي في غياب الهوية المحلية. كان فتحي شديد الأنتقاد لإنتشار الأبنية ذات الواجهات الزجاجية وإنفتاح الفضاء الداخلي الى الخارج. وركّز إنتقاده من خلال تعريفه للعمارة بكونها «الفراغ المحصور ما بين الجدران وليس الجدران نفسها». لذا فإن إزالة بعض الجدران أو استعمال جدران زجاجية سيعني «تسرب الفراغ للخارج، مصطحباً

العمارة معه!». يستند فتحي وجهة نظره هذه بتجربة علمية. فقد وجد أن جداراً ذا مساحة زجاجية مكشوفة بـ ٣×٣ م، يمكن أن يسمح بدخول كمية من الحرارة تعادل ألفي كيلو سعرة في الساعة، وهذا يتطلب طنين من التبريد في الساعة. لذا يسخر فتحي من المعمار الذي يتسبب من خلال الزجاج في رفع درجة الحرارة داخل المبنى، ثم يعود ليعالج الحرارة بالتبريد! ويستبق منتقديه بالقول إن رفضه لبعض جوانب العمارة المعاصرة ليس دعوة للرجوع للوراء فهو يؤكد، مثلاً، على أهمية عدم إستنساخ الماضي ويقدم مفهوم المعبد القديم الذي كان يعتمد القيم الدينية السائدة في حين تخضع الأبنية الدينية اليوم لضوابط أخرى اقتصادية ــ إجتماعية.

* * *

صمّم فتحي العديد من المجمعات السكنية والسياحية، إضافة إلى المساكن المنفردة (الفيلات). لكن أغلب مشاريعه كانت في الريف والصحارى، في مصر أو خارجها. درس فتحي الفضاءات المعمارية التي كان يستعملها الفلاح المصري منذ عهد الفراعنة وحاول أن يفسر قناعاته في سبب بقائها طوال مئات السنين دراسته لواقع السكن التقليدي ساهم في أن يقدم تصوراته لفضاءات ووظائف جديدة لم تكن مألوفة سابقاً. وحاول من خلال إعتماد البناء التعاوني، الحدّ من مشكلة البطالة المتفشية في الريف.

رفض حسن فتحي، البناء المتعدد الطوابق. لأن البناء المرتفع غير ملائم للظروف الإجتماعية ــ الإقتصادية والمناخية المحلية (غبار، حرارة...)، ولا ينسجم كذلك مع طبيعة تكنولوجيا البناء التقليدية أو مع مواد البناء المتوفرة الضعيفة التحمل للأثقال. الإستثناء الوحيد في هذا كان تصميمه لمشروع إسكان متعدد الطوابق في منطقة «بغداد الجديدة» في ضواحي بغداد (١٩٥٩ ــ ١٩٦١) أثناء عمله مع مكتب المهندس اليوناني دوكسيادس (نفذ مشروع إسكان غربي بغداد). حاول فتحي في مشروعه هذا أن يستفيد من بعض العناصر المعمارية التراثية التي تُعرف بها العمارة البغدادية مثل الملاقف (البادكير)، حيث حاول أن يحوّل فضاء السلالم إلى ملقف كبير. كما نظم الفضاء المفتوح ما بين الكتل البنائية بحيث يشبه الفناء الكبير. المحاولة لم تنجح والمشروع أصلاً لم يُنفذ. ويبدو أن فتحي قد أدرك عقم محاولته مع البناء العالي، فلم يحاول تكرار تجربته هذه إطلاقاً.

* * *

خلال أكثر من ستة عقود من العمل كمعمار، صمّم فتحي العديد جداً من المشاريع المعمارية. وأغلبها لم ينفذ جزئياً أو كلياً. لأهمية مشاريعه وتخطيطاته العلمية إتفقت معه مؤسسة أنما خان للعمارة الإسلامية على شرائها والإحتفاظ بحق التصرف بها.

أهم مشاريع فتحي قرية «القرنة الجديدة» التي بُنيت ثم تعرضت الى الفيضان(عمداً!) هُجرت منذ إفتتاحها في أوائل الخمسينيات حتى اليوم، الأسباب متضاربة، وبرأي فإن أهم سبب لفشل المشروع هو أنه معد أصلاً لإسكان فلاحين كانوا يسكنون في قرية القرنة الأصلية (غرب الأقصر). القرية الأصلية هذه كانت تقع على سطح جبل ذي موقع أثري فرعوني هام. فكان السكان يعتمدون في عيشهم على حفر الأرض، وبيع لقى الآثار في السوق السوداء (سراق الآثار) لذا فكرت السلطات بنقلهم الى قرية جديدة كُلّف بها فتحي ونفذها، ولكنهم رفضوا اشغالها لأنها تبعدهم عن مصدر رزقهم. رغم أن موقع القرنة الجديدة كان وسط الحقول الخضراء. ويبدو إنّ هذا كان سبباً ثانياً لرفض الفلاحين الذين تعودوا، من الماضي، السكن في مناطق قاحلة نسبياً بعيداً عن الحقول الخضراء. في الستينيات شرع فتحي في تصميم وتنفيذ مشروع لقرية أخرى هي قرية (باريز) لم تكن أفضل، فلم يسكنها سوى ٢٧ عائلة من أصل ٢٥٠ عائلة كان مخططاً لإسكانهم فيها.

عام ١٩٦٢ نفذ فتحي مشروع مركز التدريب في الواحات الخارجية التابع لهيئة الاصلاح الزراعي، لكن أثناء تنفيذه واجه مشكلة إرتفاع منسوب المياه الجوفية فانهارت أغلب جدران المشروع!

خارج مصر كانت مشاريعه بناء قرية دار الإسلام في (أبيكو) في نيومكسيكو (١٩٨١). نُفذ منها المسجد والمدرسة ولم يُستكمل تنفيذ باقي المشروع (سكن وأبنية عامة وخدمية) لإعتراض صاحب المشروع، وهي جمعية خيرية، وبحثها من تكنولوجيا بناء أخرى: مشاريع فتحي التي نُفذت بشكل كامل هي: مسكن في الجيزة (١٩٤٠) أُعتمد انشاؤه على الإسمنت المسلح، وهي محاولة لم يكررها لاحقاً؛ عزبة للجمعية الزراعية الملكية (١٩٤١)، مسكن إيواء (١٩٤٢)، مسكن حامد سعيد (١٩٤٥)، مع مسكن آخر في الفيوم في نفس العام، إستراحة ومزرعة لأحد الباشوات (١٩٥٠) فيلا لسفير مصري على النيل (١٩٥٠)، فيلا أخرى (١٩٥٢)، مصنع للفخار (١٩٥٥)، مدرستان ابتدائيتان في الصعيد (٥٦ ـ ١٩٥٧).

أما المشاريع التي لم تُنفذ إطلاقاً، حسب تسلسلها التاريخي، فهي: مجمع حسن

باشا في القاهرة، مصنع للسيراميك في القدس، كازينو في القاهرة، مركز ثقافي في الأقصر، مشروع إسكان للاجئين الفلسطينيين في غزة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، المعهد العالي للفنون الشعبية في أسوان، مقبرة لأحد الباشوات، مسكن جبلي في ولاية كولورادو في الولايات المتحدة، مسجد في البنجاب في الباكستان، مسجد آخر في لبنان، ثالث في ولاية بوسطن الامريكية، تطوير وإعادة بناء لمدينة زحار في سلطنة عُمان، مطبعة وسكن في الباكستان، حظائر حيوانات في مصر، مشروع مهرجان النيل في الأقصر،وحدة سياحية في ماريوكا الاسبانية، تخطيط لضريح السيد البدوي في طنطا ومطعم عطية في القاهرة.

رغم حجم أرشيف فتحي هذا، شعر باليأس نتيجة الصعوبات والتعامل البيروقراطي مع مشاريعه. فقرر الهجرة نهائياً من مصر. وغادر فعلاً مصر لسنوات الى اليونان حيث عمل مع دوكسيادس، كما ذكرنا سابقاً، لم يُنفذ أي من مشاريعه هناك. عاد بعد سنوات الى مصر بطلب شخصي من الرئيس عبد الناصر الذي أكد له حاجة مصر له.

في عام ١٩٦٦، دعيّ فتحي من قبل الأمم المتحدة لتقديم مقترح لسكن ريفي تقليدي لمدينة «الدرّعية» شمال مدينة الرياض في السعودية. قدّم فتحي نموذجاً فعلياً لسكن واحد. ولكن المقترح رُفض ولم يكرر!.

في آخر سنوات حياته. نَفّذَ عدة فيلات لأثرياء سعوديين وكويتيين وأخرى في مصر، بُنيت جميعها بالحجر.

***

آراء حسن فتحي قد تكون أهم من أعماله. نَظَر إليه الكثير من المعماريين والمختصين في البناء الريفي بتقدير جيد. وأُحتفي به مرّات كثيرة. يتحدث عنه جان جوتيه، وهو معمار بلجيكي عمل لسنوات في المغرب قائلاً: «... إنه الأول الذي عمل على الأفلات من هيمنة الغرب الثقافية والتقنية، حسن فتحي رجلٌ واسع الثقافات، أصرّ على البناء بالطين، مع أن هذه المادة مكروهة بشدة. كانت بلاده شأن بلدان أخرى، مصابة بنوع من فقدان الذاكرة الثقافية». وقال المعمار هوغو أوبين مدير المركز العالمي للبناء بالطين، الذي عمل في الجزائر وبلدان افريقية أخرى لسنوات: «رغم مرور عشرين عاماً على مقترح حسن فتحي للبناء بالطين، مايزال مقترحه يتمتع بنجاعته

وصلاحيته، بل إن العالم كله أدرك أخيراً، إن استخدام المواد المحلية صار أمراً لا مفر منه لمستقبلنا». وقال أندريه رافيرو، الذي عاش لسنوات في الصحراء الكبرى وله كتاب مشهور عن عمارة مزاب (غراويه)، وآخر عن قصبة الجزائر، نال عدة جوائز، منها جائزة أغاخان للعمارة، وأخرى من أكاديمية المعمار الفرنسية: «أدرك فتحي، بحدسه الفلسفي والفني، إن العلاقة بالتراث ليست علاقة تجريدية ببضع مقولات ذات طبيعة روحانية غائبة. بل إن هذه العلاقة تتشخص في معايشة ملموسة للأشياء المحيطة بنا. إن معارضة فتحي للأبنية الغربية الجاهزة، وغير الجاهزة، إنما تنبع من هذا المنطلق نفسه، فهذه الأبنية إنما تحمل معها روح الحضارة التي إبتكرتها وطبيعة الفضاء الذي ولدت فيه. . .».

نادراً ما حظي معمار مشرقي بهذا التقييم. لهذا أُستدعي فتحي للعديد من المسابقات المعمارية الدولية وللمؤتمرات ولجان التحكيم. قد يبرز تساؤل طبيعي: إذا كان فتحي قد أثار كل هذه الضجة فلماذا لم ينجح في تنفيذ أغلب مشاريعه كما لاحظنا؟

الواقع إن فتحي واجه عدة جبهات، كلها عملت ضده مرة واحدة!. والهدف واحد، هو تسفيه طروحاته وعرقلة ومنع تنفيذ مشاريعه. فالدوائر الحكومية لم تتقبل البناء التعاوني لأنها لم تتعود عليه. لكن البناء التعاوني لا يشكك أحد في إنسانيته وإقتصاده، فهو حل رائع لإشكالية التمويل ومكافحة البطالة نسبياً، هذا النمط يُعتبر ملائماً أيضاً، لإستمرارية العمارة المحلية. لكن وكما يقول د.عبد الباقي ابراهيم بصواب، «فإن فتحي قد يتحمل مسؤولية شخصية في فشل هذا النمط. لأنه (أي فتحي) لم يتعمق كما يبدو، بشكل كافٍ، من الناحية الإجتماعية في الواقع الفلاحي، ومدى إستعداد الفلاح لمثل هذا النمط. فالفلاح قد يكون مستعداً للعمل التاريخي. بل هو مبادرٌ نشط، في الأعراس والوفاة والقحط والفيضان والحريق والوباء. . . لكنه، قد لا يكون مستعداً بما فيه الكفاية للعمل التعاوني في البناء. فالفلاح يريد أن يبني بيته بنفسه. شعر حسن فتحي بهذه الحقيقة فقرر التوجه لزوجات الفلاحين وإستعمالهن كعامل ضغط. لكن النتيجة كانت سلبية. وفهم فتحي إن الفلاح يهمُّه «إسكان» حيواناته إولاً، أما مسكنه الخاص فأمر آخر، والنساء بالذات لم يبدّين تحمساً لتخطيط المسكن لأن هذا، ببساطة، أمر خاص بالرجال! غَضبَ فتحي، وهو المعروف بحدّيته، فكتب عن الفلاح المصري بأنه «بطيء في ابداء الرغبة لأي مقترحات لتحسين حالته، فهو خامل وغبي وغير متعلم!».

لكن، هل الفلاح فعلاً هو المسؤول وحده عن فشل مشاريع فتحي؟. أعتقد أن فتحي

يتحمل المسؤولية، هنا ايضاً. فعند تنفيذه لقرية القرنة الجديدة. لم يطلب فتحي من الفلاحين العمل وفق النمط التعاوني (الغير مألوف لديهم) فحسب، بل وطلب منهم تغيير طراز العمارة التي يبنوها بما لم يألفوه سابقاً. فبُطل حماسهم، وبدأوا في إنتقاده، فمن خلال تجواله في المناطق الريفية المصرية، أقتنع حسن فتحي بأن أغلب ما بناه الفلاح من عمارة محلية لم يكن له قيمة، إستثنى من ذلك عمارة منطقة النوبة فقط. لذا شطبَ فتحي على عمارة الدلتا والصعيد، وارغم فلاحيها على بناء وسكن عمارة النوبة، الغريبة عنهم. إضافة لذلك، فقد زادّ الأمر تعقيداً عندما أدخل تعديلات جدّية على العمارة النوبية، مما أدى الى زيادة تعقيد العمل وصعوبته، ورفع كلفته.

من الناحية الأخرى، لم يستطع حسن فتحي التخلص من نظرته «الفوقية» الى فئات سكانية شديدة التخلف، مثل فلاحي مصر في ذلك الوقت. فأقترح مثلاً بناء مسرح في القرنة الجديدة. وفعلاً نُفذ المسرح، وأفتتح في إحدى الليالي بحضور باشاوات مصر وزوجاتهم!. وقدمت فيه عروضاً شيقة على ضوء المشاعل، واعتبرها الحاضرون ليلة لن تنسى!. لكن هذا العرض كان الأول والأخير، ولم يكرر لأن المسرح مؤسسة غريبة، جداً، عن الفلاحين. كما إنه اقترح في نفس المشروع بناء مسبح خاص معقم. الهدف هو توفير إمكانية العوم في مياه معقمة. للحدّ من ظاهرة إنتشار البلهارزيا التي كانت تفتك بالفلاحين. لكن هذا المقترح، النبيل، فشل أيضاً لأن الفلاح يُفضل السباحة في مزرعته وفي النهر دون حواجز أو رقيب. مثل هذه المقترحات رفعت تكاليف المشروع ووفرت مبررات جديدة لإنتقادها.

إنّ أهم ما يؤخذ على فتحي هو فشله في تقديم مشاريع معمارية ملائمة للمناطق الحضرية ومراكز المدن خصوصاً. والسبب قد يعود لعدم ملائمة مواد البناء والتكنولوجيا التي يفضلها لأبنية مرتفعة. ولكن فتحي نفسه كان متطرفاً ضد أي حلول ممكنة. فهو يرفض إستعمال أي مادة معاصرة في تنفيذ مشاريعه، بل ويرفض حتى الحلول الوسطية. في الجانب الآخر، وأثبت الواقع أن النظام الذي يقترحه لم يكن الأكثر اقتصاداً. ففي الواقع ظهر أن عدداً من مشاريعه يكلف اكثر بكثير من كلفتها التقديرية. والمفارقة إن أغلب مشاريعه المنفذة كانت مرتفعة ولم يستطع، كما يبدو، غير الأثرياء العرب تحمل كلفها. ثم ان البناء بمواد البناء المحلية عرقلته ظروف أخرى موضوعية، منها إفتتاح السدّ العالي الذي بسببه أصبحت مادة الطين (الغرّين) في النيل نادرة ومكلفة جداً.

كل ذلك، لن ينتقص من التشكيلات الجمالية من مشاريع فتحي. ويقف المرء مندهشاً من العمارة التي قدمها من مادة بسيطة هي الطين وتكنولوجياً يستخدمها الأميّون وشبه الأميّون. ولفتحي يعود الفضل في أن تصبح العمارة المحلية أحد المواضيع الأساسية في التعليم المعاري اليوم، بعد أن استمرت المعاهد والكليات لعقود طويلة على تلقين الطلبة العمارة الدولية، حتى تلك التي تجاوزتها أوربا منذ سنين. لذا فطروحاته ومساهماته النظرية والعملية دعمت وبقوّة التوجه الإنساني العالمي لدعم سكن المشردّين والفقراء. وتأسست العديد من الجمعيات واللجان الدولية لحمايتهم.

يبقى حسن فتحي متألقاً ومتميزاً، ازاء الذين استسلموا أمام موجة العمارة الأوربية التي جرفت العمارة المحلية والتراث. لقد اعتبره بعض معارضيه نغماً نشازاً. نعم، أعتقد إنه كان نغماً نشازاً في اوركسترا تملأ المسرح كله! مواجهته لمثل هذا الواقع هي من أسباب وقوفنا بأحترام. وتقدير لهذا المعمار الفذ.

وهران - أكتوبر ١٩٩٧

(١) ولد في الاسكندرية، من عائلة ثرية. تخرج من المهندسخانه عام ١٩٢٦. عمل مهندساً في البلدية. اصبح مدرساً في كلية الفنون الجميلة عام ١٩٤٦. كان عضواً في المجلس الاعلى للفنون والآداب في مصر. عضو شرف بمركز الأبحاث الأمريكية في القاهرة. عضو شرف في المعهد الأمريكي للعمارة عام ١٩٧٦. رئيس شرف للمؤتمر الدائم للمعماريين المصريين لأربع سنوات متتالية قبل وفاته. نال جائزة الدولة التقديرية للفنون الجميلة في مصر عام ١٩٦٧. جائزة الرئيس ـــ منظمة أغاخان للعمارة عام ١٩٨٠. الميدالية الذهبية الأولى لاتحاد المعماريين في باريس عام ١٩٨٤. جائزة لويس سوليفان للعمارة ـــ ميدالية ذهبية خاصة ـــ من الاتحاد الدولي للبناء والحرف التقليدية عام ١٩٨٧.

مؤلفاته:

١ ـ قصة قريتين. طبعة واحدة بعدد محدود. القاهرة ١٩٦٩.

٢ ـ العمارة والبيئة، سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧.

٣ ـ "Architecture for the Poor. An Experiment in Rural Egypt", Chicago, University of Chicago Press, 1973.

٤ ـ "Natural Energy & Vernacular Architecture", UN University, Tokyo and the University of Chicago Press, 1985.

مناقشات

إني مع ما يقرره الشيوعيون الكردستانيون

داود أمين

في العدد ٢٧٧ من «ث جـ» اطلعت على رد الرفيق العزيز أحمد باني خيلاني (أبو سرباز) على مقالتي المعنونة «مؤتمر العمل والمستقبل» في العدد ٢٧٢ من المجلة فأثار استغرابي القراءة المغلوطة من قبل الرفيق لمقالتي، رغم أنها مكتوبة بوضوح تام. والمؤسف أنه وجّه إليّ اتهامات مجحفة، وفسّر مقالتي حسب هواه، فشوه مضامينها. وابتعد كثيراً عن الروح الرفاقية والمودة التي تجمعنا، وشطح قلمه بعبارات جارحة تناولتني ورفاقه العرب، وقادة الحزب أيضاً. وهذا لا يتناسب مع الحوار الهادئ الذي أحاول أن يسود مناقشتي لمقالته.

أول الاتهامات الخطيرة لي هو أنني صادرت حقوق القوميات في العراق، وبالأخص حق الشعب الكردي في تقرير مصيره، دون أن يورد نصاً من مقالتي يعزز اتهامه سوى حديثي عن عائلتي المتعددة القوميات. ولكي يثبت تهمته يورد مقتطفات مطولة من مقررات كونفرنس الحزب عام ١٩٥٦ والنظام الداخلي للحزب عام ٧٠ ومقاطع لكاتب سوري يدعى منذر الموصلي وطالبني بقراءتها كي يقنعني بما هو مُسلّم به عندي وعند جميع الشيوعيين العراقيين، وهو حق الشعب الكردي في الحرية والاستقلال.

لقد استشهدتُ بمثال التركيب القومي لعائلتي لا لألغي حق القوميات، كما فسّر ذلك الرفيق، بل لأبيّن مدى التسامح الذي كان سائداً بين العراقيين من مختلف القوميات والطوائف والمذاهب (والطريف أن التسامح في عائلتي استمر حتى بعد الموت، فأم

جدتي العربية الشيعية، ترقد منذ أكثر من خمسين سنة في مقبرة قرية (به له) ناحية برزان، في حين يرقد جدي الكردي السني، وأبي الآشوري، الذي كان مسيحياً، في مقبرة النجف!). فذلك التسامح نقيض للتزمت الغريب عن تقاليد شعبنا، ناهيك عن حزبنا.

الموضوعة التي ناقشها الرفيق من مقالتي هي بعنوان «حول العلاقة بين حشع وحشك» الذي يشير الى أن مدار البحث قضية حزبية، وليس حق الشعب الكردي في الوحدة وتكوين الدولة القومية المستقلة، فهذا الحق من بديهيات من يسترشد بالفكر الماركسي، وينتسب للحزب الشيوعي العراقي، الذي أقر منذ تأسيسه بوجود مشكلة قومية في العراق وشعب كردي يعيش فوق أرضه لكنه مجزأ بين عدة بلدان، فما بالك بمن هو مثلي تجري في عروقه دماء هذه القوميات المضطهدة؟

الغريب أن الرفيق بعد أن وجّه إلي تهمة إنكار هذا الحق يستدرك في ثلاثة مواقع حيث يقول بالحرف الواحد: «وذلك دون أن يقول ذلك فعلاً» ثم «وكأني به يريد أن يقول: ما كل هذا الهراء عن الحقوق القومية والفدرالية» ثم «كأنه يريد من خلال ذلك القول إن الشعب الكردي غير أهل لقيادة نفسه». إذا كنت لم أقل ذلك كما يتوضح من هذه النصوص، فلماذا ينسب إليّ الرفيق ما لم أقله ليبني عليه استنتاجاته الخاطئة اللاحقة. وفي نهاية اتهامه يتساءل: «ترى ما رأي الرفيق أمين؟ هل يعتقد أن حق تقرير المصير للشعب الكردي مرتبط بالشعب الكردي نفسه حسبما يقرره هو أم أنه موكول لأمين أو أوصياء أمثال حملة أفكاره يختارون الوقت المناسب لتقرير مصير هذا الشعب المسكين لأنه غير أهل لذلك؟».

رغم أن قضية حق تقرير المصير للشعب الكردي، كما قلت، غير مطروحة في مقالتي، أجيب على سؤاله بصدق ومحبة، خلافاً للهجته، فأقول: هذه القضية مرتبطة بالشعب الكردي أولاً، بنضاله وتضحياته، بوعي جماهيره وحكمة قادته، وباتساع دائرة حلفائه ومناصريه من أمثالي وحاملي أفكاري. فأنا وأمثالي لم نكن، ولن نكون يوماً، ضد الشعب الكردي ولا ضد طموحاته في توحيد أمته المجزأة.

تهمة ثانية

يتهمني الرفيق بأني طالبت بإلغاء حشك. وبالرغم من أن هذا الاتهام أقل خطورة من سابقه، إذ لا يمكن قياس موضوع حزب بموضوع أمة، إلا أنه تضمن الكثير من الأفكار والتوجهات الضارة التي لابد من مناقشتها:

يبدأ الرفيق اتهامه الجديد قائلاً: «أما بالنسبة للموضوعة الثانية والهامة التي تناولها الرفيق في مقالته، وأقصد بها موضوعة الحزب الشيوعي الكردستاني، فمن الواضح ـ أو على الأقل كما يبدو لي ـ أن كل ما تناوله من أمور قبلها، إنما أراد أن يكون مقدمة للدخول في الموضوع الرئيسي لمقالته وهو المطالبة بإلغاء الحزب الشيوعي الكردستاني فعلاً».

مرة ثانية يعجز الرفيق عن إثبات اتهامه بالأدلة، فيلجأ الى عبارة اعتراضية بالقول: «أو على الأقل كما يبدو لي». وأسأل الرفيق هل من العدل والمنطق أن يلصق بي تهمة استناداً الى تصوّره بأني اقترفت الجرم؟ لنتابع ما يستند إليه الرفيق في لائحة اتهامه هذه: إنه يلجأ لمقطع مبتور من مقالتي على طريقة «ولا تقربوا الصلاة. . .» إذ يقتطع ما يلي «أمام مثل هذا الوضع ما هي المهمات الملحة للشيوعيين الكردستانيين؟ هل المهمة الملحة الآن هي تحديد شكل العلاقة مع حشع أو طرح فكرة الاستقلال عنه أو تكوين فدرالية معه؟ هل استطاع حشك أن يثق بإمكانياته ليكون حزباً مستقلاً عن حشع، حزباً قادراً على البقاء والتنافس مع الأحزاب الكردية في ظروف كردستانية هو أعرف بها من غيره». هنا توقف الرفيق وأهمل بقية فقرتي التي تقول: «هل في الانفصال عن حشع قوة لحشك؟ وأين تكمن هذه القوة إن وجدت أم العكس هو الصحيح؟ أعتقد أن الفراغ السياسي في الساحة الكردستاني الآن وخيبة الأمل لدى الجماهير الكردية، بما فيها جماهير الحزبين الحاكمين تفترض في حشك **والشيوعيين الأكراد تعبئة شاملة للقوى الحزبية واستنفاراً لكل الإمكانيات من أجل طرح الشعارات الصحيحة، ولف أوسع الجماهير الكردية حولها وخلق حركة جماهيرية قادرة على الفعل والتغيير**». هذه هي الفقرة كاملة ومعناها واضح، لقد وضعت مهمة تحديد العلاقة مع حشع، التي أخذت وتأخذ وقتاً وجهداً ليس بالقليل بالنسبة للرفاق الكردستانيين، في كفة، وتعبئة القوى الحزبية لحشك واستنفارها ولف أوسع الجماهير الكردية في ظل الفراغ السياسي حول حشك وشعاراته، في كفة أخرى. وأسأل الرفيق: أي الكفتين في مصلحة حشك الآن؟ لقد طالبتُ باستنفار القوى الحزبية وكل الإمكانيات لتوسيع وتعزيز حشك، رغم ذلك يتهمني الرفيق بأني أدعو الى حل حشك. وسأكون شاكراً إن دلني على مفردة واحدة في مقالتي توحي بأني طالبت بحله. فكيف أطالب بحله وأنا أنهي مقالتي بالعبارة التالية: «ولكي تتوطد العلاقة أكثر بين حشع وحشك أرى أن صيغة العلاقة الحالية هي الأنسب والأفضل، أي أن يظل حشك جزءاً من حشع، يمثل منظمة الحزب الشيوعي العراقي في كردستان مع الانتباه لتخصيص نسبة مناسبة في قيادة حشع للرفاق الأكراد ويفضل

ترشيحهم في قائمة مستقلة في المؤتمر السادس كأن تكون نسبتهم ٥ من ١٥ أو ٨ من ٢٥ وأن يزج بعض هؤلاء في مهمات عراقية لا علاقة لها بكردستان كتنظيم الداخل أو الخارج أو الإعلام أو العلاقات. . . الخ وأن تنظم الاجتماعات المشتركة لقيادة الحزبين».

لقد أوردت ملاحظات نقدية بسيطة حول عمل حشك حرصاً على عمل هذا الحزب، الذي هو جزء من حشع، فتطوره هو تعزيز لجميع الشيوعيين العراقيين، ولحركة اليسار الديمقراطي العراقي. فاعتبر الرفيق ملاحظاتي دعوة لحل حشك، وإذا سلمنا بطريقته الغريبة هذه في التفسير، فقد سبق لي أن انتقدت قيادة الحزب لبقائها في (موعم) في مداخلة سمعها الرفيق نفسه في المؤتمر الخامس، وفي مادة نقدية طويلة رفعت لقيادة الحزب بعد المؤتمر الخامس. وفي قصائد شعبية نشرت في «المجرشة»، فهل يعني ذلك دعوة لحل م. س و ل. م وإلغاء القيادة؟ أليس من حقي كرفيق في الحزب أن أنتقد عمل إحدى منظماته! لقد أشرت في مقالتي الى نواقص حشك في جانب واحد فقط هو اهتمامه بالشأن الكردستاني وعدم إعطائه أهمية للشأن العراقي، ولم أفعل ذلك بروح الاستخفاف والتشكيك، كما يتهمني الرفيق، فأنا وهو نعرف الكثير من مشاكل حشك، ولا أقصد بالمشاكل هنا ما هو موضوعي، بل بمشاكل ذاتية من أعماقي أتمنى زوالها ليأخذ حشك دوره الحقيقي في الساحة الكردستانية. إن نجاح سياسة أي حزب شيوعي، أو يساري، في العالم، يبعث فيّ الفخر والسعادة والأمل، فما بالك بحزب هو جزء من حزبي؟ لا أدري هل يشاركني الرفيق أبو سرباز هذه المشاعر أم تراه يتبنى وجهة نظر أعدائنا القائلة: أن ليس لحزبنا موطئ قدم في المنطقة العربية، وإنه يعتمد فقط على حشك ومنظمات الخارج؟! إن العدد الخاص بالذكرى الخامسة لانتفاضة آذار من «طريق الشعب» يسجل جزءاً صغيراً من دور الشيوعيين العراقيين في محافظات الوسط والجنوب، ولدى القادمين من (رفحاء) شهادات عن بطولات رفاقنا المجهولين هناك، وعلى ماذا يدل مسلسل الشهداء والسجناء والمعتقلين الذين يضطر الحزب أحياناً للإعلان عن أسماء بعضهم في صحافته؟ ومن يوزع المنشورات الحزبية في الوسط والجنوب؟ كنت أتمنى من رفيق أمضى زهرة شبابه وخريف شيخوخته في حزبنا ألا يشطّب على عمل رفاقه السري الخطر في المناطق العربية.

لقد كتبتُ قائلاً: «هل يصلح ما تقدم ليكون مدخلاً لمناقشة قضية العلاقة بين حشك وحشع ونبرة الرفاق الأكراد (خصوصاً في الخارج) حول الاستقلالية التامة عن حشع أو تكوين كيان فدرالي يجمع قيادة الحزبين؟» ففسر الرفيق كلامي الواضح على هواه في

صفحة ٨٦ قائلاً: «وفي معرض حديثه عن فكرة الحزب الشيوعي الكردستاني يزعم الرفيق أمين موحياً أن هذه الفكرة جاءت من الخارج، وهي فكرة طارئة وغريبة طرحت من قبل الشيوعيين الكردستانيين الذين يعيشون في الخارج». أليس في هذا التفسير وفي كل التفسيرات السابقة المغلوطة التي أوردها استعداد مسبق لتقويلي ما لم أقله؟

استدراك متأخر

في ردّه على مقالتي يخاطبني الرفيق بالقول إن الشيوعيين الكردستانيين «هم الذين يناضلون في الساحة، وفي الظروف المعقدة التي نتحدث عنها، وهم الذين يحتفظون براية الشيوعية عالية في ربوع كردستان وعلى ذرى جبالها الشم وليس أنت ولا أقول ذلك استخفافاً». لكن جملته تنم عن الاستخفاف مع الأسف. فهو وغيره يعرفون بأني أمضيت قرابة العشر سنوات نصيراً في كردستان من بين حوالي ٣٠ سنة في الحزب، وفي كردستان كان معي اثنان من إخوتي (أبو سعد وملازم رياض) وإحدى أخواتي (الشهيدة أنسام) وزوجة أخي (تانيا) في حين واصلت بقية عائلتي النضال السري داخل الوطن. ولم أذهب الى كردستان لاجئاً أو للحماية كما جاء في رده المنفصل. فقد غادرت اليمن الديمقراطية باختياري وقناعتي فتركت زوجة وأطفالاً (لم أعد إليهم) وموقعاً وظيفياً ممتازاً، وذهبت الى كردستان باعتبارها جزءاً من وطني العراق وتلبية لنداء حزبي الشيوعي العراقي. وفي كردستان ساهمت في العديد من المعارك الأنصارية وحملت الشهداء والجرحى، والرفيق أبو سرباز وغيره يعرفون المهام التي كنت أتولاها، وليس آخرها مهمات عسكرية أثناء المعارك في خواكورك آب-أيلول ١٩٨٨ والتي استمرت ٤٥ يوماً قاتلت خلالها مع رفاقي الشيوعيين العراقيين قتالاً جبهوياً ضد سلطة كانت تقصفنا بين ٨ ـ ١٢ قذيفة مدفع في الدقيقة الواحدة، وبعدها توليت مسؤولية القسم العربي في إذاعة الجبهة الكردستاني في راجان حتى حزيران ١٩٨٩ حين تعطلت الإذاعة. ولم أغادر كردستان إلا بعد أن حشرنا في زاوية حدودية لا نحسد عليها، وبقرار من الحزب الذي لم يكن يدري ما يفعل بنا، وكان خروجي بتاريخ ٢٠/٩/١٩٨٩ بعد أن طرحت بإلحاح فكرة إرسالي الى الوسط أو الجنوب على القائدين أبو فاروق وأبو يسار، فأجابا أنه لا يمكن إرسالي في ظل ظروف أمنية صعبة وقد أشرت في قصيدتي «أحلام» المنشورة في الثقافة الجديدة (آب ١٩٩٠) وكانت القصيدة صرخة احتجاج وألم لهزيمتنا في كردستان. ثم التحقت بالمنفى مضطراً بعد أن سبقني إليه الألوف، وبينهم الرفيق أبو سرباز، ولم أكن

ولن أكون مسروراً بهذا المنفى، الذي أخذ مني كل ما هو جميل وأصيل، وأنا أحاول منذ خمس سنوات كسر شوكة المنفى بمنح أكثر وقتي للآخرين، فأنا أعمل بفعالية داخل منظمة الحزب في الدانمارك، وبين أوساط الجالية العراقية والبيت العراقي، وأساهم بجهدي الفكري والثقافي بالقدر الذي أستطيعه، ومن ضمنه هذا الحوار الذي لا أصفه كما وصفه الرفيق بحوار طرشان، لأنه حوار بين رفيقين حريصين لكل منهما وجهة نظره وقناعاته، والاحتكام مستقبلاً للحياة، التي هي أيضاً في حركة دائمة وتحولات مستمرة.

أسئلة خطيرة.. وتشكيك

يستغرب الرفيق أن أطالب قيادة حشك أو محلياتها أن تضع في برامجها خططاً لتطوير عمل (حشع) في الداخل فيقول «إنه لعجيب أسلوب تفكير الرفيق أمين فهو يعرف جيداً أن الوضع في كردستان معقد جداً وهذا ما أشار إليه في أكثر من موضع في مقالته، وخاصة نتيجة الاقتتال بين الحزبين المتحاربين إضافة الى الظروف الاقتصادية المزرية السائدة في كردستان في الوقت الذي تتطلب ظروف العمل العلني التي تواجه حشك أن يزج بأكبر عدد ممكن من كوادره الفعالة في مجالات العمل المختلفة والمتزايدة والتي يفتقر إليها حشك الآن وبالأخص بعد هجرة مجموعة كبيرة من الكوادر الكردستانية المجربة الى الخارج في ظروف شاذة. أوَليس الأجدى بالرفيق أمين أن يسأل نفسه مثلاً كم من أعضاء ل م حشع الحالية يتواجد في هذا الداخل الذي يتكلم عنه والذي هو أحوج ما يكون الى كوادر فعالة ومجربة من أهل المنطقة وهل في نية الرفيق أمين مثلاً أن يتوجه الى المدينة التي ولد وترعرع وعمل فيها؟ ولماذا جرى فضح أسماء أعضاء اللجنة المركزية الحاليين أمام العدو، ولم يجرِ التعامل بأسمائهم المستعارة السابقة أو بأسماء أخرى غيرها؟ وما الغرض من كل ذلك؟ أو. . . أو. . .؟».

لقد أوردت هذه الفقرة المطولة لاحتوائها على الكثير من الأفكار التي أرى ضرورة مناقشتها، فأنا مثلاً لم أفهم ما علاقة تعقّد الوضع في كردستان والظروف الاقتصادية الصعبة بمساعدة رفاق حشك لعمل حشع في الداخل، وهل الوضع في بقية مناطق العراق، في ظل سلطة صدام أفضل مما هو عليه في كردستان؟! ربما يقصد الرفيق أن تعقد الظرف الكردستاني يتطلب حاجة حشك لكوادر فعالة خصوصاً في ظل العمل العلني. ويعترف الرفيق أن حشك يفتقر إليها الآن. وهنا يشير الرفيق لهجرة مجموعة كبيرة من الكوادر الكردستانية المجربة للخارج في ظل ظروف شاذة، فهل تمنع هذه

الظروف عودة الكوادر الكردستانية المجربة الى كردستان وحشك في غياب سلطة صدام الإرهابية، وفي ظل العمل العلني الذي تحلم به المناطق الأخرى؟ يسأل الرفيق عن نيتي للعودة الى مدينتي، وهو سؤال محرج حقاً لو كان الرفيق مقيماً في كردستان. إن حشك، كما يؤكد الرفيق، بحاجة ماسة الى مئات الرفاق الكردستانيين الموجودين، مثله، في المنافي لينضموا الى الرفاق العاملين في كردستان رغم الظروف الشاذة التي ذكرها.

أما سؤاله عن عدد أعضاء ل م حشع الموجودين الآن في الداخل وعن سبب كشف أسمائهم، فلست معنياً بالإجابة على هذا السؤال الغريب والخطير. وكان يفترض بالرفيق أن يوجه سؤال هذا مباشرة الى قيادة الحزب بعد المؤتمر الخامس. أما إذا قصد بالسؤال التشكيك بقدرة هؤلاء القادة على الذهاب الى العمق، ولذلك فإن أسماءهم كشفت لكي لا يذهبوا الى هناك، فأعتقد أن الرفيق يشاركني الرأي في أن كشف الاسم لن يكون عائقاً لمن يريد أن يذهب الى العمق، إذ ليس هناك ساذج سيتوجه الى هناك بهوية تحمل اسمه الصريح.

لنكن موضوعيين

يقول الرفيق: «إن تنظيمات حشك كانت دائماً في خدمة تنظيمات الداخل، وهي التي كانت تزود منظمات الحزب في المناطق العربية بالكوادر للعمل فيها في أقسى ظروف الإرهاب وخاصة في أواخر الثمانينات أمثال الرفاق أبو فاروق وأبو سركوت وأم بهار وأبو هاوار وهوكر وكمال وغيرهم، وهي التي كانت تزود التنظيمات الموجودة آنئذ بكل ما تحتاجه من وسائل الدفاع وحتى الهجوم والى عام ١٩٩٣». إنه هنا يتحدث عن أواخر الثمانينات، أي قبل تأسيس حشك بسنوات، أي عندما كان الشيوعيون الكردستانيون، حالهم حال غيرهم من الشيوعيين العراقيين، يوجههم الحزب أينما يشاء. لقد كانت ملاحظتي واضحة في إشارتها لإهمال حشك (الذي تأسس في حزيران ١٩٩٣) لشؤون الحزب غير الكردستانية، ورد الرفيق أبو سرباز يعزز وجهة نظري هذه، فهو عما بعد ١٩٩٣. ثم إذا كان هناك عدد من الرفاق الأكراد الذين ذكرهم الرفيق قد عملوا في المناطق العربية، فلا يعني ذلك أنهم كانوا الوحيدين هناك، إذ أن صفة الإطلاق الواضحة في عبارته «وهي التي كانت تزود. . .» غير صحيحة، فالرفيق يعرف جيداً أنه الى جانب الرفاق الذين ذكرهم فقد عمل إضعافهم من الرفاق العرب. ولا أريد أن أذكر الأسماء. فأنا وإياه نعرف عديداً منهم، ونجهل الآخرين وهم الأكثرية.

كما أني لا أعتقد أن الرفاق الذين ذكرهم يفكرون بأن لهم فضلاً فيما فعلوه على حشع أو على رفاقهم العرب، كما ليس لمئات الرفاق العرب الذين قاتلوا في كردستان وعشرات الذين استشهدوا من بينهم على جبالها وسهولها فضل على رفاقهم الأكراد، فنحن جميعاً في حزب واحد هو حشع، ولانزال فيه حتى هذه اللحظة. ويعرف الرفيق أبو سرباز أنصاراً أبطالاً بالعشرات لم يكونوا من أبناء كردستان عندما قاتلوا في ساحاتها، وأثبتوا لرفاقهم الأكراد أيضاً أنهم يستحقون عن جدارة صفة البطولة، ومنهم من استشهد.

يذكر الرفيق أني أطلب في مقالتي من حشك ومن محليات أربيل والسليمانية القيام بواجبات لجان مناطق الوسط والجنوب والمحافظات التابعة لها. ولا أعرف كيف استنتج الرفيق ذلك وفي أي مقطع من مقالتي، لقد طلبت من ل م حشك ومحلياتها، باعتبارها جزءاً من حشع، أن تضع في برامجها خططاً لمساعدة حشع في إنجاز مهامه المركزية، وهذا أمر سأظل أطالب بهم مادمنا في حزب واحد هو حشع، ولا يعني ذلك أبداً إلغاء مهمات وواجبات حشك ومحليات إزاء المحافظات الكردستانية والتنظيم الحزبي فيها، ولا أن ينوب حشك والمحليات التابعة له عن رفاق المناطق والمحافظات الأخرى.

حزب أم حزبان؟

في الاستنتاج الخاطئ للرفيق في أني أصادر حقوق الشعب الكردي، طالبني بإعادة قراءة مقررات الكونفرنس الثاني لحشع عام ١٩٥٦. ومما أورده النص التالي: «إن حشع تجسيد حي لوحدة نضال الشعب العراقي بقوميتيه الرئيسيتين العربية والكردية وجميع أقلياته القومية والطائفية، ويكافح بلا هوادة ضد الشوفينية وضيق الأفق القومي وضد النعرات العنصرية والطائفية التي يغذيها المستعمرون والمستغلون. . . الخ». وبدوري أرجوه أن يقرأ هذا النص بتمعن، مادام قد استشهد به. فهل لازال الرفيق يؤمن بأن حشع تجسيد حي لوحدة نضال العرب والكرد وغيرهم؟ ألا يتناقض هذا الإيمان مع رغبته في انفصال حشك عن حشع، التي تجسدت بما أورده في رده على مقالتي؟ ففي صفحة ٨٨ يقول الرفيق: «كردستان والشعب الكردستاني باقيان لذا فالحزب الشيوعي الكردستاني هو الآخر باق. ويعمل الشيوعيون الكردستانيون وبالتضامن الصادق مع رفاقهم الآخرين في حشع على دعمه وتطويره وتحقيق استقلاله الناجز ـ أراد ذلك البعض أم لم يرد ـ لأن تكوين هذا الحزب إنما هو نابع من إرادة ورغبة الشيوعيين الكردستانيين أنفسهم». وأتساءل كيف سيفك الرفيق هذا الاشتباك بين فكرة أن حشع تجسيد حي

لوحدة نضال العرب والكرد وغيرهم، وفكرة المطالبة بالاستقلال الناجز عنه. وأسأل الرفيق: ألم يكن حشع أول حزب عراقي رفع راية الحكم الذاتي ثم الفدرالية لإقليم كردستان؟ وأول حزب عراقي اعترف بحقوق الشعب الكردي بما في ذلك حقه في الوحدة وتكوين الدولة المستقلة والانفصال؟ هل أحس الشيوعيون الأكراد بشوفينية رفاقهم العرب والسكرتير الأول لحزبهم وكذلك معظم الرفاق في المكتب السياسي من الأكراد؟ ألا يرى الرفيق في دعوته ضيق أفق قومي؟ النص الذي أورده من مقررات كونفرس ١٩٥٦، وأرجو أن لا يُصطدم عندما يقرأ من يغذي هذه النعرات! لقد كان المفروض بالرفيق أبو سرباز باعتباره عضواً في الحزب أن يكافح ضد هذه النعرات، وإذا كان يمتنع عن فعل ذلك فلماذا يحرمني من هذا الحق؟ لم يغيّر عندي شيئاً أن يكون الرفاق عزيز محمد أو كريم أحمد أو أبو فاروق أو غيرهم رفاقاً أكراداً، أو أن الفقيد أبو جوزيف أو أبو عامل كانا آشيوريين أو أن الفقيدين زكي خيري أو رحيم جينة أو أبو مخلص كانوا عرباً، كنت ولاأزال أتعامل مع جميع الشيوعيين باعتبارهم عراقيين، وأختلف أو أتفق معهم حسب مواقفهم، وليس استناداً لانتمائهم القومي. وأعتقد أن عدداً كبيراً من الرفاق، عرباً وكرداً وغيرهم، يشاركونني هذا الشعور، وبهذا الصدد أدعو الرفيق أبو سرباز لقراءة الحلقة الثالثة من مقابلة مجلة الوسط للرفيق عزيز محمد الصادرة في ١١/٨/١٩٩٧، إذ عندما يتحدث محاوره عن «سيطرة» الأكراد على قيادة الحزب فيجيبه عزيز محمد: «. . . نحن لسنا حزباً قومياً عربياً تقتصر عضويته على العرب أو كردياً تقتصر عضويته على الأكراد. ولسنا حزباً إسلامياً أو مسيحياً ولسنا منظمة شيعية أو سنية. نحن حزب كل العراقيين عرباً وكرداً وتركماناً وآشيوريين وكلداناً، مسلمين ومسيحيين وصابئة ويزيديين ويهوداً يوم كان في العراق يهود. وأرجو أن تصدقني أن رفاقنا في كثير من الأحيان لا يعرف أحدهم قومية أو دين الآخر، إلا إذا كان في اسم الرفيق ما يوحي بذلك. لا لشيء إلا لأن ما يجمعهم هو مصلحة الوطن والشعب وفكر لا يعبأ بهذه التقسيمات. . . الخ» ترى هل يختلف كلام الرفيق عزيز محمد هذا عما قلته في مقالتي؟ وهل سيتهمه الرفيق أبو سرباز بأنه ضد حقوق الشعب الكردي ومع حلّ حشك؟

شتيمة لا يمكنْ هضمها!

أما مفردة الايواء في كردستان التي يعيّر الرفيق أبو سرباز رفاقه العرب بها فلا أستطيع هضمها أو تخيلها، إذ من يتصور أن رفيقاً أمضى سنوات طويلة من حياته في

قيادة الحزب الشيوعي العراقي الذي يربي أعضاءه بالروح الأممية مغروسة في شرايينه، خصوصاً وقد رأى رفاقه العرب يقاتلون الى جانبه ويستشهدون بالعشرات على جبال كردستان، أقول من يتصور أن رفيقاً عراقياً سيصدمنا بهذه المفردة الجارحة في يوم ما؟ لقد اخترنا الذهاب الى كردستان باعتبارها جزءاً من وطننا العراق، ورضينا عن قناعة أن نمارس أرقى أشكال النضال وأقساها الى جانب رفاقنا الأكراد، وكان ثمن هذا الخيار الواعي حياة العشرات من الشهداء العرب، وإعاقة البعض وتهديم الكثير من العوائل، بالاضافة للأمراض الجسدية والنفسية التي تركتها التجربة على الكثيرين. ومن مدن الجنوب والوسط طالبين مأوى في كردستان فمعظمنا جاء من مقاعد الدراسة والعمل والامتيازات المغرية في الجزائر وعدن وبيروت وروما وباريس ولندن ودمشق وغيرها، أو من مقاعد الدراسة في موسكو وصوفيا ووارشو وبودابست وبرلين وغيرها أيضاً.

لم أسمع مفردة جارحة كمفردة الرفيق أبو سرباز من أشقائنا في اليمن الديمقراطية أو في المقاومة الفلسطينية أو في الحزب الشيوعي السوري أو في البلدان التي كانت اشتراكية، والتي احتضنت الالوف من رفاقنا وبينهم رفاق أكراد بالطبع. نحن نتهم الآن بالعنصرية السويديين والدانماركيين والألمان وغيرهم من الشعوب التي تحضننا اليوم عندما نسمع أبسط كلمة يُشم منها رائحة تمييز ونستطيع أن نقاضيهم قانونياً لو أردنا، فماذا نقول لرفيقنا أبو سرباز وهو يعتبر سنوات نضالنا وتضحيات رفاقنا العرب في كردستان طلباً للمأوى والحماية حيث «لم يكن له (يقصدني د. أ) ولايزال موطئ قدم واحدة على أرض العراق على مدى سنين عديدة، عدا في كردستان وبين أحضان الشعب الكردي».

أشعر أيها الرفيق العزيز بأن ألم رفاقنا الأكراد سيكون أكبر من ألمنا وجرحنا وهم يقرأون هذه العبارة! ولكني أطمئن الرفيق أبو سرباز بأنه كانت لنا ولاتزال موطئ أقدام ومنظمات حزبية ومناضلون أشداء في مدن الوسط والجنوب، ولا أقول ذلك من باب التباهي بل هي حقيقة أعرف بعض تفاصيلها، ويفترض في الرفيق أبو سرباز أن يعرف تفاصيل أكثر وأدق وأن يعتز بهذه المفخرة.

لقد فسّر الرفيق إشراف قيادة حشع على بعض اجتماعات قيادة حشك بأنه انتقاص من حشك وتشكيك في بلوغه سن الرشد، وبهذا الصدد يقول الرفيق إن «تنظيمات الإقليم كانت في مقدمة التنظيمات الحزبية الأخرى، عندما كانت تعمل بشكل شبه مستقل، إذ لم يكن يجري التدخل في شؤونها لا من قريب ولا من بعيد عند وضع البرامج والخطط وتنفيذها» لا أعرف عن أي فترة يتحدث الرفيق في فقرته هذه؟ وهل هي حالة صحية أن

تعمل إحدى منظمات الحزب الهامة (منظمة الإقليم) بشكل شبه مستقل في حزب كان ولايزال يعتمد مبدأ المركزية الديمقراطية. أعتقد بأن إشرافات قيادة الحزب على حشك، إن وجدت، أو على هتخ أو على أية منظمة من منظمات الحزب هي دليل صحة ومن مظاهر الحرص والمتابعة والاقتراب من هموم المنظمات الحزبية، وأتمنى من قيادة الحزب الاستمرار على هذا النهج وتطويره، علماً بأني أعتقد بأن الاشرافات التي تحدث عنها الرفيق كان معظمها اجتماعات مشتركة لقيادة الحزبين.

مَن يُكره مَن؟!

في رده أيضاً يقول الرفيق: «إن الحفاظ على الوحدة الحقيقية ومشاعر الرفقة الصادقة والأخوة الكفاحية المتينة لن يكون عن طريق الاكراه والقرارات الفوقية التي لا تأخذ مشاعر ورغبات وإرادة الآخرين بنظر الاعتبار، بل إن هذا النوع من الحرص وبهذه الصيغ سينقلب الى مقبرة لها حينئذ يمكننا أن نندم جميعاً ولكن. . . فقط حين لا ينفع الندم» لكن ما علاقة مقالتي بالاكراه الذي يتحدث عنه الرفيق؟ لقد كانت مساهمة في الحوار الذي دعا الحزب إليه حول الموضوعات التي طرحتها القيادة تحضيراً للمؤتمر الوطني السادس للحزب. ترى ما هي سلطتي لكي أكره «الآخرين» على تبني ما جاء في مقالتي وأنا مثل الرفيق أبو سرباز عضو في الحزب؟ ومن هم «الآخرون»؟ فإذا كان يقصد بهم الرفاق الأكراد، فقد صادر هو حقهم ليس فقط في أن يبدوا آراءهم فقط، بل كذلك في أن يتخذوا القرار الذي يناسبهم. أليس المؤتمر هو أعلى هيئة في الحزب، وقراراته ملزمة للجميع؟ وفي المؤتمرين الخامس والسادس، اللذين لا يستطيع الرفيق أن ينفي عنهما صفة الديمقراطية والحرية التامة في إبداء الآراء فضل الرفاق الكردستانيون، وهم الأكثرية، أن يكونوا مع حزبهم حشع. وهو قرار في مصلحة حشك وحشع على حد سواء. فالشيوعيون الكردستانيون الذين يعيشون فوق أرضهم وبين جماهيرهم يرون مصلحة حزبهم وقضيتهم أفضل منا نحن الاثنين، خاصة ونحن نعيش في المنفى، وقد لا نرى الأمور كما يراها الرفاق هناك.

أخيراً، أؤكد للرفيق أبو سرباز بأني مع ما يقرره الرفاق الكردستانيون، مع إرادتهم الحرة في اتخاذ القرار الذي يناسبهم، ولن يزعجني مطلقاً أن يعلنوا انفصالهم عن حشع متى شاؤوا ماداموا مقتنعين بما يفعلونه.

١٩٩٧/١٠/٧

في ضوء التقرير السياسي للمؤتمر السادس لـ ح.ش.ع.

قضايا وافكار خارج الحلبة

مؤيد عبد الستار

يمثل انعقاد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي العراقي داخل الوطن علامة بارزة في مسيرة الحزب وتتويجا لجهود المناضلين العراقيين المخلصين لمبادئهم، واداءاً متميزا لنضالهم من أجل تجديد البنية الداخلية للحزب وتطوير المسار الديمقراطي الذي صودر لسنين طويلة وحوصر بين جدران السرية والملاحقة والاختفاء، مما أخلّ بتطور اساليب العمل السياسي الديمقراطي.

وفي الوقت الذي يبارك فيه المثقف اليساري نجاح المؤتمر ونتمنى أن يخطو الحزب الشيوعي العراقي والاحزاب العراقية الاخرى خطوات كبيرة متقدمة نحو الديمقراطية، اود ان أناقش بعض القضايا التي اثارها التقرير السياسي والافكار الواردة فيه.

كان لفتح الحوار والمناقشات على صفحات ادبيات الحزب حول وثائق المؤتمر السادس قبل انعقاده بأمد مناسب أثره في مد جسور وأواصر الصراحة بين الحزب والجماهير، سيما وان العديد من المقالات والدراسات والاراء اتسمت بالحرص والرغبة في ارساء قواعد واساليب ديمقراطية في العمل السياسي، وقد أورد التقرير السياسي للمؤتمر السادس مطالعات هامة حول العديد من القضايا مما يحفزّ المرء على مناقشتها بغية اشباع الرغبة في بلورتها والوصول بها الى مرافىء العمل البنّاء.

أزمة النظام

يبدأ التقرير السياسي بعنوان هام هو أزمة النظام السياسي وطبيعة السلطة، ويفتتح الموضوع بعبارة يعرفها ويرددها الجميع: منذ أعوام، وهي: «يعيش النظام أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية تزداد استفحالا كل يوم. . .» وجاء أيضاً «إن السلطة القائمة هي ديكتاتورية فردية استبدادية مطلقة ذات طبيعة شوفينية. . .».

ولكي لا يأخذنا الحماس في تعداد أوصاف النظام وأزماته، من المفيد أن نتذكر أن النظام الذي نعدد أوصافه وسيئاته كان يعيش كل هذه الأزمات منذ انقلاب عام ١٩٦٨. وانه كان ابنا شرعياً لكل هذه الأوصاف، ولكننا لو عددنا السنوات التي مرت عليه وهو في دست الحكم سنجدها ربع قرن من الزمان أو تزيد، وتلك لعمري طامة كبرى. والملاحظ، مع شديد الاسف، اننا نجيد تعداد أوصاف النظام التي يعرفها القاصي والداني وننسى في غمار ذلك البحث عن حلول لأزماتنا المستعصية، فاذا كان النظام يحمل كل تلك السيئات ويعيش كل تلك الازمات فما هي الأسباب التي تحول دون سقوطه أو اسقاطه، أو ازاحته على الأقل، كي يأتي بديلاً عنه طال انتظاره.

قد تكون الاجابة جاهزة لدينا، والقاء الأمر على عاتق القوى الدولية أمراً بسيطاً جداً رغم أن فيه الكثير من الحق، ولكنه في نفس الوقت ليس كل الحقيقة. لأننا اذا قلنا بأن الحزب الشيوعي العراقي، ومعه قوى اليسار والتيار الديمقراطي، هو القوة الطليعية في الحياة السياسية العراقية فإن ذلك يعني أن أمر تغيير النظام المذكور يقع على عاتقه، أما اذا استدركنا لنقول أن هناك قوى أخرى لا يمكن تغيير النظام المذكور دون مشاركتها الفعالة، حين ذاك يجب علينا أن نحدد تلك القوى، وعلينا أن نعد العدة للتعايش معها والعمل المشترك معها.

إن العراق يعيش أزمة اقتصادية شاملة أكلت الأخضر واليابس، وهي إن اثّرت بعض الشيء على أداء السلطة الحاكمة وحدّت من إمكاناتها، إلا أن من الواضح تأثيرها المباشر على أبناء شعبنا، وعلى الأخص فئاته الفقيرة والمتوسطة، فسحقتهم سحق الرحى لثفالها، وعرض علينا التقرير السياسي أبعاد تلك الأزمة بالأرقام التي تؤكد الواقع المرير، إلا أنه لا يعرض علينا ولا يذكر أي شيء عن الوضع الاقتصادي لقوى المعارضة، أو للحزب، فعلى سبيل المثال لا الحصر إن تمويل بعض أحزاب وقوى المعارضة كان يجري من قبل بعض الدوائر الغربية المعادية لآمال ومطامح شعبنا، ومع ذلك جرت

تحالفات مع تلك الأحزاب والقوى، وكان من الواجب أن تجد تعليلاً في التقرير السياسي، اضافة الى ذلك، نقرأ أحياناً على صفحات منشورات الحزب، دعوات للمساهمة في دعم بعض المشاريع المالية، مثل جمعية بغداد المشاعية، من أجل مساعدة المحتاجين والمعوزين من أهلنا، وتلك مبادرة إيجابية مباركة، إلا أننا لا نقرأ شيئاً عن مشروع ينهض به الحزب الشيوعي من أجل مساعدة شعبنا وجماهيرنا بشكل استراتيجي وعملي مثلما يعمل مثلاً حزب الله في جنوب لبنان.

إنّ النهوض بتقديم العون الى الجماهير هو الذي يستقطب الناس والكادحين ويقربهم الى الحزب الشيوعي العراقي ولاشك أن على عاتق القوى الوطنية الحقة تقع مسؤولية انجاز مشاريع استراتيجية للسنوات القادمة من أجل انتشال عشرات الآلاف من المتضررين، وعلى الخصوص من النساء والأطفال والمعاقين الذين نأمل أن لا يطول انتظارهم لامرأة مثل الأم تيريزا عليها شآبيب الرحمة.

رفع الحظر الاقتصادي

لم تكن الحرب بفصليها، الأول مع ايران، والثاني مع الكويت، لتؤثر على نظام الحكم القادم، لسبب بسيط يدركه الجميع، وهو أنها حرب ساهم بدعمها الغرب ووظف لها خبراته وعدته واعلامه، والا لما كان الامام الخميني رحمه الله يتجرع كأس السم المقدر عليه بسهولة كما قال. ان في كون وكالة أخبار CNN الناقل الوحيد لأنباء طرفي النزاع، الكويتي والعراقي دلالة كبيرة على أبعاد اللعبة التي دفع شعبنا وشعوب المنطقة ثمنها غالياً، ولربما سيدفع لأعوام أخرى الكثير من قوته وأبنائه نتيجة ذلك.

وفي نفس الجلباب يدخل الحظر الاقتصادي، الذي أراده الغرب وسيلة مكملة لما بدأه بالحرب، وكان على القوى الوطنية أن تدرك ذلك منذ البداية وترفض تطبيقه وتقاتل من أجل عدم تشريعه وتنفيذه، لأنه جنف ظاهر، موجه ضد عباد الله، لا الحكام الظلمة، وان تبادل الأدوار بين الأمم المتحدة والنظام الحاكم في العراق، من أجل إطالة أمد الحصار الاقتصادي، أمر بات واضحاً يدركه كل ذي بصيرة، حتى وصلت الأمور الى لعبة النفط مقابل الغذاء والدواء، وانتهت أخيراً الى النفط مقابل الهواء لا غير. وليس من شك أن القوى الوطنية العراقية مسؤولة عن كشف التواطؤ القائم بين الدوائر الغربية ونظام بغداد، وعليها أن تطالب الرأي العام العالمي كشف هذه اللعبة والملابسات التي تمرر بها القوانين الجائرة التي تفرض على العراق.

إن كل هذه السنوات التي تراوح فيها لجان التفتيش، ولعبة القط والفأر التي يمثلها النظام بمهارة، يجب أن تُفضح على كافة الاصعدة، وأن تعمل الهيئات والاحزاب المعارضة لنظام الحكم العراقي على حشد المجتمع الدولي ومؤسسات الشعوب العادلة من أجل إيقاف هذه اللعبة، وأن ما يؤلم حقاً أن نرى الهيئات الخيرية تهب لمساعدة المنكوبين والمتضررين من آثار الفيضانات والزلازل، ولا نرى سوى تغييب مأساة شعبنا من وسائل الاعلام.

إن القيام بحملة عالمية لانقاذ الشعب العراقي من هذه المأساة بحاجة لهيئات وطنية قادرة وخبيرة وعلى اطلاع على القوانين الدولية ولها خبرة دبلوماسية تؤهلها للعمل بين أوساط الشعوب والمحافل الدولية، وحبذا لو استطاعت قوى المعارضة اشراك الشخصيات العراقية والعربية والاسلامية المعروفة في هذا المسعى النبيل بدلاً من ترك هؤلاء لقمة سائغة يجد النظام الحاكم سبيله الى تضليلها والوصول اليها متعكزاً على أزمة البلاد التي كان هو صانعها ومهندسها.

الثقافة والأدب

أصبح واقع الثقافة في العراق في أدنى مستوياته، ولاشك أن ذلك سيؤثر على مستقبل التربية والتعليم بشكل مباشر، فهجرة الخبرات بدأت منذ أوائل السبعينات، واشتدت ابان الحربين مع ايران والكويت. ولقد عانى شغيلة الفكر شتى انواع الاضطهاد واستلبت حرية الكلمة على أيدي دكتاتورية حمقاء جاهلة. ومن أجل دعم المثقف العراقي والحفاظ على مقوماته والنهوض بالثقافة الوطنية وتجنيبها كبوة قاتلة نرى أمامنا مهام جسيمة تستوجب بذل جهود جبارة، وتبدأ بالدعم المادي لأدباء وعلماء الوطن في الداخل ومساعدتهم على النجاة من براثن الدكتاتورية، وتنتهي بالتكاتف من أجل اصدار الصحف والكتب والمجلات ورعاية الدراسات والبحوث العلمية والاكاديمية، واشاعة الحياة الديمقراطية في الوسط الثقافي. وانه لمن المؤسف، ان الكثير من المثقفين العراقيين في المنفى لا يلقون بالاً للشأن الديمقراطي، رغم كونهم يعيشون في بلدان لها تقاليد ديمقراطية عريقة، بل وأحياناً يستهزئون بها، فالانفصال بين الواقع والمواطن العراقي قائم وظاهر بشكل بارز للعيان وبشكل يدعو للاستغراب، وما زالت اصدارات احزاب المعارضة العراقية بشكل عام قاصرة في رعاية الشأن الديمقراطي، وحبذا لو عرج التقرير السياسي على دراسة الواقع الثقافي والروابط والاصدارات الصحفية

والأدبية في الخارج بإعتبارها تشكل واقعاً لايمكن تجاهله في أي حال من الاحوال.

وإذا ألقينا نظرة على إصدارات الحزب الشيوعي العراقي فسنجد المعلنة منها ثلاث: «طريق الشعب» و« رسالة العراق» و« الثقافة الجديدة». وبالنسبة لجريدة «طريق الشعب» فإنه لا يمكنها تغطية أخبار الوطن لأنها تصدر متباعدة، كل شهر أو شهرين مرة في أحسن الاحوال، ولذلك فهي تعتمد على التعليق و التحليل الاخباري، إضافة الى مجمل نشاطات الحزب السياسية، أما «رسالة العراق»، فهي تحاول المحافظة على مستوى اعلامي يغطي نشاطات الحزب بالإضافة الى نشاطات الجاليات العراقية خارج الوطن، إلا أنها تفتقر الى مراسلين معتمدين متخصصين، رغم نشرها أفضل ما يصلها من أبناء الجالية العراقية في بلدان اللجوء، وغالياً ما تخلو كتاباتهم من المعايير الصحفية البسيطة. أما مجلة «الثقافة الجديدة»، . . . فإن الملاحظ عليها مؤخراً أنها أصبحت تميل بعض الشيء نحو المجاملة الاخوانية فتجد أسماء معينة تتكرر فيها يكتب أحدهم عن الآخر أو يحاوره أو يمدحه ولم تساهم في متابعة أدباء وكتاب الداخل وثقافة الوطن المعاصر.

إن آلاف الكادحين يقتطعون من لقمة عيشهم ليتبرعوا لاعلام الحزب الشيوعي العراقي واعتقد أن من اولى مهام «الثقافة الجديدة» البحث عن أدب ونضالات هؤلاء الكادحين والمناضلين داخل الوطن، وحث كل مدعي الالتزام بالثقافة الوطنية التقدمية متابعة أدب الشعب والوطن والكف عن الحديث عن أنفسهم وانجازاتهم وعذاباتهم التي اتخمنا الاطلاع عليها، ومن المهم أن يطلع قراء «الثقافة الجديدة» على ما يكتبه ويفكر به أدباء الوطن من العرب والاكراد والاشور والتركمان وغيرهم من الذين لايجدون مجالاً للنشر في وسائل اعلام السلطة ولا في وسائل الاعلام العربية.

المصالحة مع النظام الحاكم

تناول التقرير السياسي مسألة الدعوة الى المصالحة مع النظام وقدم لها بالقول «لقد صدرت دعوات من بعض الأوساط وهي ليست في الغالب بعيدة عن النظام والتنسيق معه، تدعو الى ما تسميه تجنيب البلاد. . .»، ويذكر التقرير ما يفيد أن هناك من يدعو للمصالحة مع النظام، وأنه ينسق الأمر مع النظام الحاكم. لا غرو أن من حق أي حزب، أن يتخذ موقفاً يتلاءم مع مصالحه من أية مسألة أو قضية مطروحة في الساحة السياسية، وليس لأحد الاعتراض على ذلك، ومهما يكن الرأي في قضية الحوار أو التفاوض مع

النظام الحاكم في العراق، أو التصالح معه أو الزعل عليه، فإن قضية التفاوض لابد وأن تناقش بشكل من الاشكال، والتفاوض هنا لايعني المصالحة، واذا كان النظام يريد ذلك، فما المانع أن تتفاوض أية قوة معارضة معه، أما إذا كان لايريد ذلك، فلا مبرر أساساً للحديث عن الأمر. ولقد استغربت من التعبير الذي ورد في التقرير السياسي والذي يضع كل من يدعو للحوار أو المصالحة أو التفاوض مع النظام في علاقة تنسيق معه، واعتقد أن إلقاء مثل هذه التهمة في وجوه الآخرين يمثل ارهاباً فكرياً واسكاتاً لكل صوت يختلف مع الآخر وهذا ما لايأمله الناس من الحزب الشيوعي العراقي، ولو فرضنا أن الجميع، أي النظام والمعارضة، بكل قواها، ينادون لا مصالحة، لا تفاوض، لا حوار. . .، فهل من غير المشروع أن يطلع علينا صوت انسان من جهة النظام أو من جهة المعارضة يدعو الى الكف عن التناحر واللجوء الى مائدة المفاوضات، واذا كنا نرفض أي صوت يخرج من دائرتنا يدعو للتفاوض مع النظام، فكيف نتوقع أن تعلو بعض الأصوات الخيرة (إن وجدت) في أوساط النظام لتدعوه الى الكف عن ممارساته اللاديمقراطية واللجوء الى الحوار مع الناس والعباد. هذا اضافة الى أن التقرير السياسي يذكر «أن أسلوب التغيير اللاعنفي يقلل الى حد كبير حسب رأي حزبنا من إمكانية انفراد طرف بالمسألة مستقبلا». فكيف بالله عليكم سيكون هذا التغيير اللاعنفي اذا كنا نتهم أي صوت يدعو الى مجرد التفاوض بأنه ينسق مع النظام؟ ألا يعني ذلك أن الطبول الداعية الى العنف هي سيدة الموقف؟ أعتقد أن مثل هذه الآراء بحاجة الى الكثير من التدقيق وأن تناقش وتطرح وجهة نظر لايعني ذلك أنك مع النظام وإلا لأصبح النظام الحاكم بأسعد حال، اذا كان دعاة اللاعنف معه*.

* يتناول الكاتب الفقرة الخاصة بالموقف من الدعوة الى «المصالحة» مع النظام (ص٩٩) ضمن التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر السادس المنشور من العدد ٢٧٨ من المجلة. ولعل قراءة الفقرة الثانية بإمعان تزيل الإلتباس بشأنها - المحرر.

ملاحظات حول الجذور التاريخية للطائفية في العراق

سعدي عبد النور

نشرت الثقافة الجديدة في العدد ٢٧٥ مقالاً مشتركاً، تحت عنوان «الجذور التاريخية للطائفية في العراق» للباحثين هادي العلوي وعلاء اللامي. تناول المقال قضية مهمة، لها مساس بالواقع الحالي للمجتمع العراقي، الأمر الذي يستحق إبداء بعض الملاحظات والتصويبات.

١ ـ جاء في المقال (ص٢٤):

ان الذي حكم تاريخ الاسلام في العصر الاسلامي هو الصراع بين السلطة والمعارضة وهو صراع طبقي اجتماعي. في رأينا، إن ذلك يمثل نصف الحقيقة. والحقيقة هي، ان ما حكم تاريخ الاسلام هو، ليس الصراع الطبقي والاجتماعي فحسب، وإنما الصراع العصبي أيضاً. فهو استمرار للصراع العصبي والقبلي قبل الاسلام، وطبع الحياة في الجزيرة العربية بطابعه. فالصراعات التي شهدها تاريخ الاسلام بين العلويين والامويين والعباسيين ما هي إلا عودة الى نفس الصراعات التي كانت سائدة قبل الاسلام بين عصبيات قريش، والتي أخذت شكلاً أقسى وأعنف بعد الاسلام. لعل خير من عَبّر عن طبيعة ذلك الصراع هو البيت الشهير ليزيد بن معاوية الأموي الذي يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لقد قامت الدولة العربية الاسلامية على اساسين متنافرين متناقضين: الدين الموحِّد، والعصبية المُفرِّقة.. لقد وَحَّد الدين العصبيات يوم كان يوفر مغانم كثيرة بفضل الفتوح..

وفرقت العصبيات وحدة الدين يوم توقفت الفتوح، يوم حل محل تجنيد القبائل من أجل الجهاد، تشتيتُ هذه القبائل نفسها واسترضاء بعضها بالمال، وضرب بعضها الآخر ببعض.. لقد قامت وحدة الدين والعصبية على اساس اقتصاد الغزو الذي ارتكز على فتوح واسعة ومغانم كثيرة، خلقت منذ البداية بُنى جديدة. تحتية وفوقية، فلم تكن هذه وليدة تلك، ولا كانت تلك اساساً لهذه ـــ وعندما توقفت الفتوح، أي عندما توقفت الغنائم وقلت الجبايات، إنقلب الغزو الخارجي (الجهاد)، إلى غزو داخلي، فكان الصراع العصبي ـــ الاقتصادي، وكان قيام الدول وسقطوها وتعاقبها وتزاحمها. ولم يحن القرن الثامن حتى استفحل ذلك المرض المزمن، مرض قيام الدول وسقوطها، وتقهقر الحضارة.

٢ ـ ورد في الصفحة ٢٧، ما يلي:

«أما التأسيس الشيعي الاثنا عشر فبيدأ من محمد الباقر، أخي زيد، الذي ينتظم في سلك القيادة التقليدية التي ابتعدت عن السياسة.. وجري على نهجه ابنه جعفر الصادق، الذي يرجع اليه تأسيس المذهب الجعفري في الفقه. واستمر هذا النهج حتى نهاية سلسلة الأئمة الاثني عشر. وفي ظل هذه الجهود البعيدة عن السياسة نشأ جمهور الشيعة الاثنتي عشرية مكرساً تحولها الى طائفة دينية خالصة».

في رأينا، ان وصف تلك الجهود بالبعد عن السياسة، هو أمر مغاير للحقيقة التاريخية. فكما هو معروف تاريخياً، فان الصراع بين العباسيين والعلويين* ـ الذي استفحل بعد ان انهار التحالف بينهما بسبب استئثار بني العباس بالحكم، مباشرة أثر نجاح ثورتهما المشتركة ضد الامويين ـ لم يكن صراعاً سياسياً وعسكرياً وحسب، لقد كان أيضاً، صراعاً ايديولوجياً، وبطبيعة الحال فلقد كانت الايديولوجيا، كما هو الحال دائماً، من أجل السياسة وليس العكس. وتؤكد معظم المصادر التاريخية ان استراتيجية جعفر الصادق (المتوفي سنة ١٤٨هـ) كانت ترمي الى السيطرة الثقافية أولاً، وصولاً فيما بعد الى السيطرة السياسية. ولهذا الغرض، فانه كان يرى ضرورة التقيد بمبدأ «التقية»، والذي جوهره هو عدم جواز التصريح بمسائل تخص العقيدة الشيعية، والتي كان يعتبرها سراً من الاسرار، خصوصاً وأن الشيعة كانوا تحت رقابة خصومهم العباسيين ومنافسيهم أهل السنة. ولذلك لم يتردد في التضحية بأحد زعماء حركته، وهو أبو الخطاب، انقاذاً للحركة ككل. وفي هذا الصدد يروى عنه انه قال: «وددت والله لو أني

* العلويون (نسبة الى الإمام علي)، هي التسمية التي كانت تطلق على احد تيارات المعارضة الرئيسة، وذلك قبل التنظير الايديولوجي والتحول الى طوائف دينية، كالشيعة الاثني عشري، والشيعة الاسماعيلية، والشيعة الباطنية.

افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النزق وقلة الكتمان» وقال أيضاً: «ليس من احتمال امرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال امرنا ستره وصيانته عن غير أهله».[1].

هذه الاستراتيجية «المسالمة»، استراتيجية السيطرة الثقافية والهيمنة السيكولوجية حاول العباسيون مقاومتها بنفس اسلحتها فعملوا على معارضة كل فكرة علوية باخرى عباسية: هكذا عارض المنصور فكرة «المهدي» و«القائم» العلوي بفكرة «المهدي العباسي» و«المنصور العباسي»، كما عارض قول العلويين انهم يمتلكون العلم السري المتوارث عن النبي، عارض ذلك بان ادعى للعباسيين علماً سرياً موروثاً خاصاً بهم، وفي هذا الصدد كتب في وصيته لابنه المهدي: «انظر هذا السَّفَط فاحتفظ به فان فيه علم ابائك، ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة»[2]. و«السَّفَط» وعاء تجمع فيه المرأة أدوات زينتها، وهو يذكرنا بـ «الجَفْر» الذي قال ابو الخطاب وانصاره ان جعفر الصادق قد اودعه عندهم وهو جلد أو وعاء من الجلد يقولون انه يضم كتابات بها علم الغيب والتفسير الباطني للقرآن وكل ما يتعلق بالمستقبل وذلك في شكل رموز. ليس هذا وحسب بل ان التنافس على الألقاب والشعارات وادعاء الأسرار، بين العباسيين والعلويين، انجب غلاة من الطرفين، فكان هناك غلاة من الشيعة ادعوا حلول الإله في أئمتهم. وكان هناك من العباسيين غلاة مثل فرقة الراوندية التي غالى اصحابها في حق الخلفاء العباسيين فرفعوهم الى درجة الالوهية، اضافة الى ذلك، فإن العباسيين ظلوا ينفون قول الشيعة إن النبي قد أوصى لعمه العباس بن عبد المطلب من بعده[3].

لقد نجح الشيعة في فرض سيطرتهم الثقافية على قطاع واسع من الناس ثم أنشأوا «قوة مادية»، تنظيماً سرياً محكماً في عهد الخليفة العباسي «المأمون»، الذي أخذ يدرك أن القوة وحدها لا تكفي لمجابهة المعارضة، لذلك لجأ الى استراتيجية مماثلة وهي أسلوب «المناظرات العقلية» التي كان يسهر شخصياً على تنظيمها. لقد لجأ الى استراتيجية مماثلة حينما رأى الجماهير الواسعة تتعاطف مع القضية الشيعية بفضل سلوك وسمعة جعفر الصادق، خاصة حينما تبين له أن تنظيماً سرياً شيعياً أخذ يتركز ويتعمم بعد وفاة جعفر.

لقد كانت استراتيجية المأمون الجديدة هذه ذات شقين: الدفع بالحركة الشيعية الى الكشف بنفسها عن تنظيماتها السرية من جهة، والتخطيط لمقاومة المعارضة ثقافياً.

تمثل الجانب الأول من استراتيجية المأمون في إظهار العطف على القضية الشيعية

ورجالها، وذهب في ذلك الى درجة أنه أعلن سنة ٢٠١هـ عن إسناد ولاية العهد من بعده الى الإمام الثامن للشيعة الاثني عشرية علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وبالتالي تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين. فشرع يرتدي الخضرة شعار العلويين ونزع السواد شعار العباسيين. وتجمع المصادر الشيعية على أن ذلك إنما كان حيلة منه قصد بها الدفع بالحركة الشيعية الى الكشف عن تنظيماتها وقادتها وبالتالي التخلص منهم ومن علي الرضا نفسه بعد ذلك، وتؤيد هذه المصادر دعواها بما انتهت إليه الأمور: إذ قتل علي الرضا وعاد المأمون الى لبس السواد وإسناد ولاية العهد الى أخيه المعتصم. لقد أحبط الهياج الذي أحدثه المتعصبون من أنصار العباسيين المخطط الذي ينسبه مؤرخو الشيعة الى المأمون، مخطط حمل التنظيمات السرية الشيعية على الظهور والكشف عن نفسها. ولكن هذا لم يمنع المأمون من السير قدماً في المواجهة الفكرية والثقافية، في سبيل مجابهة العقائد المانوية والشيعية. فاستعان بالعقلانية اليونانية وروحها: الفلسفة اليونانية. ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين الى العربية. وكما تؤكد المصادر الشيعية تهمته بتدبير مقتل علي الرضا، تتهمه بالعمل للقضاء على «علم النبوة» بنشر الفلسفة اليونانية. وتجعل نفس المصادر تأليف رسائل إخوان الصفا هو رد الفعل الشيعي الاسماعيلي على لجوء المأمون الى العقلانية اليونانية.

هدفنا من ذلك العرض للصراع (الايديولوجي ـ السياسي) الذي جرى في حقبة مهمة من التاريخ الإسلامي، والذي أغفله المقال واكتفى بوصفه بالبعد عن السياسة، تأكيد حقيقة: أن الصراع العصبي شكل جانباً أساسياً ومهماً من الصراعات التي شهدها التاريخ الإسلامي، وأن كل طرف من أطراف الصراع لجأ الى استخدام الدين من أجل السياسة، أي من أجل تأكيد أحقيته في الإمامة والخلافة والزعامة السياسية.

المراجع

(١) كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ص١٢٦، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩.

(٢) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص١١٥، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، ١٩٨٠.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

تعقيب على تعقيب العلوي

د. رشيد بندر الخيون

الأستاذ هادي العلوي من الذين أكنّ لهم التقدير فأتابع باهتمام ما ينشر له، ويعجبني ثباته على الدعوة للاشتراكية بينما انفض عنها، بذريعة أو أخرى، كثير من الذين كانوا يتصدرون الدعوة لها، لغاية أو أخرى. كنت قد ناقشت بعض ما كتب أواخر الثمانينات، كدفاعي عن المستشرق السوفييتي نؤمكين، وكذلك مقارنتي بين حميّة العلوي وهدوء المفكر الشهيد حسين مروة الذي كان يصغي الى ملاحظاتنا «نحن تلامذته» في عدن حول كتابه الشهير «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» ابتداء من العنوان الى تفسيره لأفكار المعتزلة. وقد نالني التعريض من البعض بسبب تلك المقارنة. لكني أبكرت في العلوي اعتبار نفسه من مريدي الشهيد مروة، فكان هذا تواضعاً حميداً يليق بالباحثين.

بعد قراءة تعقيب الباحث العلوي في العدد ٢٧٨ على تعقيبي مازلت أرى خطأ ما جاء في مقالته وزميله، في موضوع الطائفية حول تسمية الفرق الإسلامية، كالمعتزلة، بالطوائف. فعلى أية حال لكل منا حجته.

لكني، والحق يقال، صُدمت لأن رد العلوي يدل على أنه يعتبر نفسه المرجع الأعلى في تناول قضايا التراث بحيث طالبني أن أعرض عليه تعقيبي حول مقالته قبل نشره، بل طلب ذلك حتى من محرري المجلة. وفوق ذلك أوحى ردّه بأن تعقيبي ينسجم مع تشويه «العدو الأورو أمريكي» لوعينا بتاريخنا، فهذه شبهة لا يقبلها أي وطني. فهل نحن هنا إزاء احتكار الوطنية فوق احتكار الحقيقة؟ ولابد من العتب على المجلة لأنها لم تتحفظ على هذا الجانب من الرد حين نشرته، مع تقديري للباحث العلوي.

حوار

الرفيق حميد مجيد موسى

يجيب على أسئلة طرحتها «الثقافة الجديدة»

رغبت الثقافة الجديدة في تنظيم جلسة حوار مفتوح مع الرفيق حميد مجيد أثناء جولته الأخيرة في أوروبا، غير أن كثرة ارتباطاته بمواعيد في كل بلد حلّ فيه لم تسمح إلا بالحصول على أجوبة تحريرية على أسئلة مكتوبة قدمت إليه، واضطر الى الإجابة عليها بين زحمة مواعيده. وتأمل الثقافة الجديدة أن تسهم هذه المقابلة في الحوار حول الموضوعات التي يدور حولها النقاش بعد المؤتمر السادس.

■ *انعقاد المؤتمر السادس في الموعد المقرر في النظام الداخلي، والنقاش الديمقراطي الواسع لمشاريع وثائقه، وانتخاب مندوبي المؤتمر في الخارج وفي كردستان العراق تؤكد نجاح المساعي لتثبيت مبدأ الديمقراطية والتجديد الذي رفعه المؤتمر الخامس. غير أن بنية الحزب «البلشفية» والتقاليد غير الديمقراطية، تقاليد البيروقراطية المركزية، والظروف الموضوعية المحيطة بالحزب، ظروف القمع والإرهاب، وعدم شيوع الأساليب الديمقراطية في أحزاب المعارضة، سواء داخل صفوفها، أو في التعامل بينها، تجعل عملية التجديد والديمقراطية عسيرة ومعقدة. وبيّن المؤتمر وجود ثلاث اتجاهات داخل الحزب تجاه هذه العملية الى جانب وجود وسط لم يتبلور موقفه بعد. ووصف التقرير الميول الهادفة الى*

معارضة الديمقراطية بأنها ميول خطرة ومؤذية.

هل ان لهذه الاتجاهات الثلاثة قسمات وملامح مشتركة قد تتعمق لتتحول الى تيارات محددة؟

● انعقد المؤتمر الوطني السادس للحزب في الفترة ٢٧ ـ ٣٠ تموز/ ١٩٩٧ أي بتأخر حوالي ٩ أشهر عن موعده الطبيعي المقرّ في النظام الداخلي، وسبب هذا التأخير مشروع (هكذا قرر المؤتمر)، يتعلق بالظروف السياسية المعقدة والأمنية الخطرة التي تشكلت بعد اجتياح قوات الديكتاتورية لمدينة أربيل في ٣١ آب ١٩٩٧.

لقد استثمر الحزب فترة التأخير غير المقصودة للمزيد من النقاش العلني والدراسة المعمقة للوثائق المطروحة في جدول أعمال المؤتمر.

وقد سعى الحزب أن تكون عملية التحضير للمؤتمر وتركيبته ومجريات عمله تعبيراً عن جدية الحزب في التمسك بنهج الديمقراطية والتجديد. وقد نجحنا الى حد غير قليل في تحقيق هذه الوجهة رغم كثرة المعوقات والعراقيل.

إن طموحنا المشروع في ترسيخ نهج الديمقراطية والتجديد في جميع ميادين النشاط الحزبي: الفكرية والسياسية والتنظيمية، لا يتنافى مع ضرورة معرفة الواقع العراقي الملموس عموماً، وحالة الصراع السياسي القائم (وتسلط الدكتاتورية الدموية وسلوكها الفاشي)، ومستوى تطور الثقافة السياسية في المجتمع وفي تعامل وعلاقات قوى وأحزاب المعارضة الوطنية العراقية، ولا مع التشخيص الواعي والسليم لحقيقة تأثير التقاليد وقوة العادة ودرجة القناعة والإدراك بجدوى وسلامة العملية. وكل هذه وغيرها من عوامل تؤثر وبدرجات متفاوتة على صيغ وأشكال ووتيرة التجديد والديمقراطية وينبغي أخذها بالاعتبار.

ولهذا، فإن عملية التجديد والديمقراطية بكل أبعادها ومعانيها لا يمكن أن تأتي بضربة واحدة، أو حصيلة قرارات عليا، بل هي عملية حساسة، متناقضة، معقدة وصعبة، تحتاج الى جهود مثابرة، متواصلة، ووقت مناسب، وهي أيضاً عملية صراع مع النفس (مع الموروث المتأصل بسلبه وإيجابه) وداخل الحزب، وفي المجتمع.

كما وأن فهمنا للعملية هي كونها غير منقطعة ومتصلة ومتطابقة مع حركة الواقع المستمرة والجدلية، لهذا فهي ضد كل أشكال الركود والجمود العقائدي أو التحجر الفكري، منسجمة مع جوهر الماركسية وطبيعتها الخلاقة ومنهجها الإبداعي، مواكبة لروح العصر ومتغيراته واتجاهاته المستقبلية الواقعية والمؤكدة علمياً.

من هذا المنطلق ليس غريباً أن تواجه عملية التجديد والديمقراطية، فهماً متبايناً، أو ردود فعل مختلفة، أو مواقف متعارضة.

وإن ما أشار إليه التقرير السياسي للمؤتمر الوطني السادس من وجود ثلاثة اتجاهات داخل الحزب ومحيطه في الموقف من الديمقراطية والتجديد، ووسط لم يتبلور موقفه بعد، إنما يقصد الإشارة الدقيقة الى الميول الفكرية المتصارعة والمتفاعلة في مجرى العملية المعقدة، ودون رغبة في التبسيط والقفز على الواقع، الأمر الذي يضع على عاتق عملنا الفكري مهمة التعامل مع حالة واقعية وملموسة، وإدارة الصراع الفكري بما يؤمن إعادة الاعتبار وترسيخ الفهم للمنهج الجدلي الماركسي، الذي جرى في كثير من الأحيان التجاوز عليه أو تجاهله في مسيرتنا النضالية، عالمياً ومحلياً.

إن تأثير هذه الاتجاهات (الميول الفكرية) يجب أن لا يفهم بأنها تيارات فكرية/ أو منابر متبلورة في مواقف مقولبة أو محددة غير قابلة للتغيير والتبديل، بل هي موضوع حوار حزبي عميق وجاد ونقاش بناء، لصياغة الأدق والأعمق والأشمل في ميادين السياسة والفكر والعمل التنظيمي. ولابد أن يؤخذ ذلك كله في إطار الاستنتاج الأساسي الذي نصت عليه الوثيقة: «غير أن هناك حقيقة واضحة وهي أن الرأي العام الحزبي الغالب هو مع عملية التجديد والتطوير بالمنظور الذي يسعى إليه الحزب».

- *ناضل الحزب، منذ تأسيسه، في سبيل الحقوق والحريات الديمقراطية، وإقامة نظام ديمقراطي، واختار الأسلوب السلمي الديمقراطي الجماهيري سبيلاً لتحقيق أهدافه، ورفض أساليب الانقلاب العسكري والاغتيالات. وفي الكونفرنس الثاني للحزب عام ١٩٥٦، صاغ عبارة أن الأسلوب السلمي هو الغالب على طابع معركة الشعب ضد النظام، ونتيجة قمع انتفاضة تشرين ١٩٥٦، التي حدثت انتصاراً لمعركة الشعب المصري ضد العدوان الثلاثي، قرر الحزب أن الأسلوب العنفي هو الغالب في المعركة. ومنذ الثمانينات حدد الحزب أن العنف هو الطريق الوحيد لإسقاط السلطة، وخاض تجربة الأنصار. والمؤتمر الخامس تراجع عن أن طريق العنف هو الأسلوب الوحيد، دون أن يحدد بوضوح تام أسلوب الكفاح. وجاء المؤتمر السادس بما يشكل عودة الى الأسلوب السلمي الديمقراطي في النضال. فحدد التقرير: «إن حزبنا يعتبر الخيار السلمي والديمقراطي السبيل الأمثل للخروج من الأزمة، ويعمل من أجله». ويؤكد أن استبعاد الحزب للمصالحة*

الوطنية مع النظام لا يعني اعتماد العنف كوسيلة وحيدة لإزاحة الدكتاتورية بل كذلك اللجوء إلى أساليب أخرى كتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨. ما هي المعطيات والوقائع والتجارب التي اعتمد عليها الحزب ليس فقط للتخلي عن العنف كأسلوب وحيد، بل واعتبار الأسلوب السلمي الديمقراطي هو السبيل الأمثل الذي يعمل من أجله؟ هذه الانتقالة، وبعد عقود من التربية والتفكير وممارسة النضال العنفي، أليست بحاجة أيضاً لجهود مكثفة لإبرازها والتثقيف بها؟

● في البداية تجدر الملاحظة:

١ــ بأن الحزب الشيوعي كان ولازال يفضل الطريق السلمي ـ الديمقراطي ـ الجماهيري في التغيير السياسي الاجتماعي، فذلك هو منطلقه الفكري ـ النظري الماركسي. وإذا اعتمد الحزب طريقاً آخر، عنفي، فمردّ ذلك ليس رغبته وعشقه لقرقعة السلاح وسيل الدماء وأجواء القتال، وإنما لأنه مضطر للرد على عنف وحشي أهوج تمارسه السلطات الحاكمة الرجعية ضده وضد الجماهير الشعبية، ولا تترك له خياراً آخر.

لقد ناضل الشيوعيون العراقيون دائماً من أجل الحريات الديمقراطية والتعددية، وحق الانتخاب، والدستور العادل والمعبّر عن مصالح المجتمع، وسعوا لإقامة المؤسسات الكفيلة بضمان حقوق الإنسان العراقي في اختيار حكامه، ولكن للأسف كان جواب الحكام الدكتاتوريين والرجعيين عليهم وعلى حلفائهم من أبناء الشعب (بمختلف فئاته الوطنية وقومياته) وعلى مطالب المناضلين من أجل التغيير، بالقمع والموت، بالحديد والنار. . . وهكذا كان التاريخ الحديث للعراق.

إذاً، إن اختيار طريق الكفاح وأساليب النضال هي ليست مسألة رغبوية إرادوية بل هي قضية موضوعية يفرضها الواقع ومكوناته.

طبعاً هنا لا أبرر النزعات المتطرفة أو المغامرة التي لا تأخذ بالاعتبار الواقع وتوازن القوى. . . الخ في تقرير أساليب النضال، ولكن في كل الأحوال مثل هذه النزعات هي عابرة واستثنائية في حياة حزبنا.

٢ــ إن العنف الذي تمارسه القوى الوطنية والثورية لا يعني الانقلابات العسكرية والاغتيالات، بل يعني قبل كل شيء حركة الجماهير في العصيان المدني والانتفاضة الشعبية، التي لا تستثني التمردات العسكرية التي يقوم بها ضباط وجنود مساندين لقضية الشعب، وكذلك حركات الأنصار وغيرها.

وفي مواجهة النظام الدكتاتوري الدموي القائم لا نرى أن الاقتصار على الانقلاب العسكري أو اغتيال رأس النظام (بسبب جملة من الاعتبارات الفكرية والسياسية والتنظيمية الفنية) هو الطريق المناسب لإقامة البديل الديمقراطي، ونحن لا ننشد تغييراً فوقياً، يستبدل استبداداً باستبداد.

إن غضب وانتفاض الأبناء الشرفاء للقوات المسلحة يمكن أن يكون أحد الروافد الهامة للتغيير الجماهيري.

٣ــ لم يعتمد الحزب رسمياً في الثمانينيات العنف باعتباره الطريق الوحيد لإسقاط السلطة بل اعتبره أسلوباً رئيسياً، وهناك فرق بين المفهومين... ولكن هذا لا ينفي نقد الحزب في وثائقه لبعض الممارسات الخاطئة التي سعت في مجرى العمل الى تحويل الرئيسي الى وحيد.

٤ــ في المؤتمر الوطني الخامس/ ١٩٩٣ وقبل ذلك في اجتماع ل.م/ ١٩٩٠، قرر الحزب وبشكل واضح اعتماد كل أساليب النضال (السلمية والعنفية) لإسقاط الدكتاتورية. إن تبني الأساليب العنفية إضافة للسلمية ناجم عن ممارسة السلطة للعنف الدموي أساساً في تعاملها مع الجماهير والمعارضة (حتى مع هؤلاء الذين كانوا للأمس في صفوف السلطة ومن قادتها)، فكيف يمكن التصور بأن حزباً شيوعياً (يعاني من كل هذه الجرائم والمجازر أسوة ببقية القوى) قادر على التخلي عن أساليب العنف دفاعاً عن نفسه وعن الشعب؟!! أليس هذا وهماً لا يربطه شيء بالواقع وبالعمل النضالي الملموس؟

٥ــ المؤتمر الوطني السادس وقبله الخامس وكل مؤتمرات الحزب تعتبر الخيار السلمي والديمقراطي هو السبيل الأمثل للتغيير، هذه هي رغبتنا، وهكذا نسعى نحن الشيوعيين دفاعاً عن شعبنا، عن جماهير الكادحين، بهذه الطريقة نريد أن نحافظ على ثروات شعبنا من الدمار والتخريب، وبهذا الأسلوب نطمح في حماية أرواح أبناء شعبنا (والكادحين في مقدمة المضحين) من الحروب الأهلية وحمامات الدم... ولكن هل سيقبل النظام الدكتاتوري المتوحش هذا الخيار؟!

ولذلك يشير التقرير السياسي للمؤتمر الوطني السادس للحزب الى «أن أسلوب التغيير اللاعنفي يقلل الى حد كبير ـ حسب رأي حزبنا ـ من إمكانية انفراد طرف بالسلطة مستقبلاً، ويعزز مبدأ تداول السلطة سلمياً. وأن مسؤولية استخدام العنف، وما ينجم عنه من وقوع ضحايا وسفك للدماء إنما تقع ـ كما هو الحال دوماً في التاريخ ـ على عاتق مغتصبي السلطة ومضطهدي الشعوب وسالبي حرياتها وحقوقها الديمقراطية».

٦ــ يتيح قرار مجلس الأمن ٦٨٨ فرصة جيدة للتحرك، وكسب الرأي العام العالمي، وفضح حقيقة النظام الدكتاتوري، بمطالبته أولاً وقبل كل شيء بإيقاف القمع واحترام حقوق الإنسان، وعبر ذلك توفير الحريات الديمقراطية وإمكانية إجراء انتخابات عامة حرة بإشراف وإدارة الأمم المتحدة، إن تبني هذا القرار من قبل حزبنا والمعارضة العراقية والتمسك به (دون مبالغة في بناء آمال غير واقعية عليه، كما هو الحال بقية قرارات الأمم المتحدة)، يعكس الرغبة الكبيرة للمعارضة للتغيير بدون عنف وما يرافقه من نتائج. . . ولكن هل سيستجيب النظام لذلك؟! إن ظروف العراق الملموسة تؤكد أنه حتى لتحقيق الخيار السلمي الديمقراطي في حل الأزمة المستعصية يتطلب أن تكون المعارضة في أعلى درجات الاستعداد لكل أساليب الكفاح، وبضمنها العنفي (المسلح). ذلك هو الطريق الواقعي والمنطقي لإكراه أبشع دكتاتورية معاصرة في العالم، (ومستعدة في كل لحظة لإغراق العراق ومن فيه بالدماء)، للقبول بحلول غير اعتيادية من قبيل القرار ٦٨٨.

وبالتأكيد نحن نتحدث عن حل داخلي يعتمد الجماهير الشعبية أساساً للتغيير ومساندة دولية وإقليمية نزيهة، وليس العكس، أي بانتظار تدخل خارجي (عسكري أو حصار اقتصادي) يؤمل أن يغير الأوضاع ويسلم الحكم لمن يناصره ويواليه، وهذا سراب سيطول انتظاره.

٧ــ حينما تتحدث وثائق الحزب عن استبعاد اعتماد العنف كوسيلة وحيدة، واعتبار الخيار السلمي الديمقراطي هو الأمثل، تنطلق من فهم وتحليل عميق لطبيعة السلطة القائمة ومعرفة ملموسة بالأساليب المعتمدة من قبل النظام، ومتابعة دقيقة لتوازن القوى وإمكانيات قوى المعارضة، والظروف الدولية والإقليمية (التي تفاقم دورها في التأثير على مصير القضية العراقية) المحيطة بالعراق. وكل هذه العوامل متحركة، وتتطلب دوماً تدقيقاً وتصويباً للتكتيكات النضالية ولأساليب الكفاح، وبالتأكيد سيكون المنطلق في اعتماد العوامل الداخلية أساساً للتغيير، وتجربة الجماهير السياسية واستعدادها وخبرتها الكفاحية (الاستفادة من دروس انتفاضة آذار/ ٩١ المجيدة)، والإسناد الدولي الواسع (المتشابك الدوافع والمصالح) لنضال الشعب العراقي من أجل الديمقراطية في الاعتبار الجاد لتشكيل الصيغ المناسبة لأساليب النضال.

وفي كل الأحوال يتطلب الأمر عملاً تربوياً جاداً وحملة تثقيفية واسعة ومفهومة (مبررة علمياً وواقعياً) لتكوين تصور واضح عن أشكال النضال وأساليبه المطلوبة في لحظة تاريخية معينة، والمرونة الضرورية للانتقال من أسلوب الى آخر تبعاً لتطور طابع

الصراع وما يطرأ عليه من متغيرات ملموسة، وخطأ التقرير المسبق (بدون دراسة للواقع والإمكانيات ومزاج الجماهير واستعدادها وخبرتها) لهذه الأساليب والأشكال.

■ *التقرير المقرّ من المؤتمر السادس يعتبر أن النظام الدكتاتوري هو الذي حوّل الجيش الى أداة قمع وإرهاب ضد أبناء شعبنا؟ ألم يكن الجيش قبل ١٩٦٨ أيضاً أداة قمع وإرهاب ضد الشعب؟ فترة الأحكام العرفية في العهد الملكي، وبيانات الحاكم العسكري هي السائدة، ومنذ ١٤ تموز والجيش هو المتحكم في أمور البلاد. الجيش العراقي قام بضرب الحركة الكردية في عهد الحكم الملكي وعهد قاسم، وبعد انقلاب شباط ١٩٦٣ وبعد انقلاب ١٩٦٨ الى حد ضرب حلبجة بالأسلحة الكيمياوية واجتياح أربيل عام ١٩٩٦؟ فعلى أية وقائع تاريخية يستند الحزب في تحديده أن الجيش العراقي لم يكن قبل ١٩٦٨ أداة قمع وإرهاب، بل كانت مهمته الأساسية الدفاع عن الوطن؟ وإلى أية تجربة وتحليل نظري استند المؤتمر ليمنح الجيش بعد الخلاص من صدام مهمة «حماية الشرعية الدستورية في البلاد»؟ ألا تعتقد أن ضرورة العمل على كسب وتعبئة منتسبي القوات العسكرية للإطاحة بالنظام، وحقيقة وجود مناضلين وطنيين، ثوريين، برزوا من صفوف الجيش وضحّوا بحياتهم ينبغي أن لا تقودنا الى نسيان طابع الجيش كأداة قمعية بيد الدولة؟*

● لا شك أن الحزب ينطلق في تحليله لموقع الجيش في المنظومة السياسية للدولة من الموقف الماركسي العام ومنهجيته، ويأخذ في الاعتبار الخصوصيات الملموسة لتركيبة الجيوش في بلدان العالم الثالث، وواقع الجيش العراقي ودوره في الحياة السياسية العراقية.

إن ما قصده التقرير السياسي للمؤتمر الوطني السادس هو تركيز الاهتمام بالأساس على تشخيص ما آلت إليه أوضاع الجيش والقوات المسلحة على يد الدكتاتورية الحاكمة، وتوصيف الجديد الذي أضفته عليه بموجب توجهاتها «لبناء الجيش العقائدي»، وما ارتكبته من جرائم بحق العناصر الوطنية والتقدمية الديمقراطية فيه، وتفريغه منها، ونزعة العسكرة التي سادت المجتمع.

لقد مسخ الجيش، وجرى تشويه وظائفه حين حوّلته الدكتاتورية من مهمة الدفاع عن الوطن الى مهمة العدوان على الجيران والأشقاء في إيران والكويت لتحقيق أهداف

توسعية وأطماع حمقاء، فضلاً عما ارتكبه من مهمات قمع داخلي واسعة النطاق، وحشية السمات، ضد أبناء الشعب في كردستان والأهوار ومدن العراق الأخرى المطالبين بالحريات الديمقراطية والحقوق القومية، وخصوصاً أيام انتفاضة آذار المجيدة/ ١٩٩١.

وهنا، وفي الوقت الذي نتحدث فيه عن الجيش (في الإطار والمعنى العام) كمؤسسة من مؤسسات السلطة وكأداة من أدوات الدولة لممارسة السيطرة والقمع، لابد من الحذر من الخلط بين قرارات سياسية يتحمل وزرها في الأساس الزمرة الدكتاتورية المتحكمة ورجالاتها، وبين أفراد الجيش كمنفذين لتلك القرارات. لذلك فالمسؤولية عن ضرب حلبجة والأنفال والأهوار والنجف وكربلاء وغيرها يتحملها صانع القرار السياسي الأساسي صدام وزمرته، وليس صحيحاً ترحيلها على المنفذين، رغم ما يتحملون أدبياً عن هذا التنفيذ. هذا أولاً؛ وثانياً أنه رغم كون مؤسسة الجيش هي مؤسسة سلطة فإن هذا لا ينفي وجود الكثير من الضباط والجنود الذين يرفضون سياسات الحكام وجرائمهم وحروبهم، ويعملون على المساهمة بالإطاحة بهم بالاعتماد على قواهم الخاصة (انقلاب أو تمرد. . . الخ) أو بالمساهمة مع قوى الشعوب الأخرى، ومحاولات الانقلاب واغتيال رأس النظام والاعدامات والطرد من الجيش شاهد على ذلك؛ وثالثاً لقد مارست الدكتاتورية سياسة تمييز متعددة الجوانب داخل الجيش والقوات المسلحة، وحظت بعض أقسامه (الحرس الجمهوري/ القوات الخاصة/ قوات الأمن الخاص. . . الخ) بكل الأفضليات والامتيازات: الرواتب العالية، التغذية الجيدة، الأسلحة الجديدة والمتقدمة، التدريب المكثف، المهمات السهلة، وبالأساس لحماية رأس النظام وعائلته والمقربين إليه. أما غالبية قطعات الجيش وأفراده فتعاني الأمرّين من الفوضى والتفكك، وسوء السلاح، والهروب، وقلة الرواتب وسوء التموين وتوفير الأرزاق، وصعوبة النقل، وتردي الخدمات، إضافة الى المهمات الخطيرة (كخط أول في المعارك). إن كل هذه المؤشرات لابد من أخذها في الحسبان من تحديد الموقف من الجيش، وقدرات بعض أبنائه في المساهمة في مجهود جماهير الشعب للخلاص من الكارثة التي حلّت بالشعب والوطن على يد الدكتاتورية ولإقامة الديمقراطية.

للأسف الشديد راجعت التقرير السياسي فلم أجد نصاً يشير الى أن الحزب قد حدد «بأن الجيش العراقي لم يكن قبل ١٩٦٨ أداة قمع وإرهاب، بل كانت مهمته الأساسية الدفاع عن الوطن؟!»، هذا استنتاجكم الخاص، فهكذا قراءة لوثائق الحزب غير صحيحة ومجتزأة.

إن الخطأ في محتوى سؤالكم برأيي ينطلق من تصور الجيش العراقي كوحدة

متراصة متكاملة ومهيمنة ومقررة عسكرياً وسياسياً وفي جميع فترات تاريخ العراق المعاصر؟! وهذه قراءة غير دقيقة لحقيقة العلاقة بين السلطة السياسية المتحكمة، وأحد أدواتها «الجيش»، رغم ما لعبه الجيش في بعض المراحل من أدوار كبيرة ولكن متناقضة لمساندة السلطة في قمع الشعب أو المساهمة مع الشعب (١٤ تموز) لإسقاط السلطة.

أما بصدد تساؤلكم عن موقف الحزب في تحديد مهمة الجيش «الأساسية التي تتلخص في الدفاع عن الوطن وحماية الشرعية الدستورية في البلاد» بعد إسقاط نظام صدام حسين، فهذا ينطلق من الفهم القائل بأن الجيش لا يخلق الدولة، وليس هو النظام بكليته، بل هو أحد أدواته. فالنظام وطبيعته الاجتماعية والسياسية بالتالي هي التي تقرر سلوك وموقع الجيش في المنظومة الحاكمة (مع الإدراك للترابط الجدلي بين الجانبين). فإذا كان النظام ديمقراطياً (تحميه مؤسسات المجتمع المدني) والدستور هو الفصل والقانون هو السائد، عند ذاك يكون موقع الجيش ومهماته هي حماية الشرعية الدستورية واحترام مؤسساتها، والدفاع عن الوطن. من الصعب تحديد نماذج مثالية (أو تجاهل حالات استثنائية)، ولكن ألا يعني وضع الجيش ودوره في الكثير من البلدان المتقدمة وغيرها (ذات الدساتير والأوضاع «الديمقراطية») دليل على ذلك... أم أن الشعب العراقي وقواه السياسية ليس من حقها أن تطمح بمثل هكذا بديل للدكتاتورية؟!.

■ *للحزب والحركة الوطنية تجارب في العمل الجبهوي تزيد على ٥٠ عاماً. فمن لجنة التعاون في وثبة كانون ١٩٤٨، الى الجبهة الوطنية عام ١٩٥٤، الى جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧، والعمل مع منظمة الضباط الأحرار قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، الى محاولة تشكيل جبهة الاتحاد الوطني اليسارية عام ١٩٥٩، الى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، جود، جوقد، لجنة العمل المشترك، حتى المؤتمر الوطني الموحد، إضافة الى الاتفاقات الثنائية أحياناً مع البارتي. هذا العمل الجبهوي كدّس خبرات كبيرة وكثيرة وأكد على أن النصر معقود بتحالف القوى الوطنية، وانفراط الجبهة يقود للهزيمة والخسارة. هناك نقص في كشف تجارب العمل الجبهوي هو عدم تناول أسباب وعوامل انفراط هذه الجبهات، الموضوعية منها والذاتية. ألا تعتقد أن دراسة هذا الجانب يسهم في تكوين رأي عام يضغط ضد تفكك الجبهات ويعضد الجهود المبذولة لإقامة العمل الجبهوي والحفاظ عليه؟ هل درس الحزب الأخطاء التي وقع هو بها في العمل الجبهوي*

وساعدت على تفكك الجبهات التي شارك فيها؟ ما هي أهم العوامل التي تعرقل قيام جبهة وطنية رغم إعلان كل القوى رسمياً بسعيها نحو الجبهة؟

● حقاً إن تجارب الحزب والقوى المعارضة في التحالفات كثيرة، بل يمكن القول إن بعضها مرير. وكانت سياسة الحزب التحالفية على الدوام موضع دراسة وتدقيق في كل مؤتمراته وكونفرنساته، وإذا كانت غالبية دراسات الحزب تؤكد على ضرورة التحالف وتشكيل الجبهات انسجاماً مع تركيبة المجتمع العراقي، وطبيعة المرحلة التي يمر بها، والأهداف المطروحة للتحقيق، فإنها تشخص أيضاً حقيقة الإدارة الخاطئة في بعض التحالفات التي أوقعت الحزب في عثرات مؤذية به وبالقضية التي يراد تحقيقها من التحالف. ولا تتجاهل دراسات الحزب وهي تحدد مسؤوليته الذاتية عن فشل بعض التجارب، تحديد مسؤولية الأطراف الأخرى في هذه التحالفات، ودور العوامل الموضوعية، وتأثير القوى الخارجية الدولية والإقليمية التي تتعارض مصالحها مع تحقيق أهداف هذه التحالفات. لقد أدان الحزب مظهرين أو ميلين فكريين سياسيين متطرفين تجاه التحالف: الاتجاه الانعزالي/ المتياسر، والاتجاه اليميني/ التبعي. أي الاتجاه الذين يرفض فكرة التحالف أصلاً أو يقننها في ضوابط وشروط غير واقعية ولاعملية تنفي المرونة والحلول الوسط في حالة من هذا النوع تقتضي التوفيق بين المصالح على المشترك. والاتجاه الذي يسعى دون ضوابط ولا شروط من أجل التحالف ويفضي بذلك الى خطر ضياع استقلالية الحزب الفكرية بل أحياناً حتى السياسية، وتورطه في حالة من التبعية للقوى الأخرى بعيداً عن المشترك. إضافة الى ذلك يدين الحزب منهج التقييم ذي الطبيعة «المازوكية» الجلد الذاتي، والذي ينطلق من أن الحزب قادر على كل شيء، وهو دون غيره من يتحمّل مسؤولية الأخطاء والنواقص، ولا يرى في الآخرين ولا في الظروف (الداخلية والخارجية) الموضوعية أي تأثير، ومثل هذه النظرة السوداوية تثقل على الحزب، ولا تنسجم مع المنهج الجدلي والتقييم الموضوعي للأمور.

إن من يراجع «وثيقة التقييم» الصادرة عن الكونفرنس الثالث للحزب/ ١٩٦٧، و«وثيقة التقييم» الصادرة عن المؤتمر الوطني الرابع للحزب/ ١٩٨٥، وكذلك تقريري اللجنة المركزية للمؤتمر الوطني الخامس/ ١٩٩٣، والسادس/ ١٩٩٧، يجد بحثاً معمقاً ودراسة جادة لتجارب الحزب التحالفية المختلفة، بخلفياتها ومسيرتها وإنجازاتها وأسباب فشلها، ويستخلص العبر والخبرات الضرورية لبناء تحالفات صحية وعلى أسس سليمة تمكن شعبنا وقواه المنظمة من تحقيق أهدافها في إقامة العراق الديمقراطي

الفيدرالي الموحد.

ولو رجعتم الى التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني السادس تجدون في ثنايا غالبية فصوله وخصوصاً في الفصل السابع «الوضع في المعارضة وسياستنا التحالفية»، بحثاً مكثفاً وعميقاً في خلفيات وعامل تلكؤ تشكيل تحالف القوى المعارضة الوطنية العراقية، وسبل تجاوز هذه المعوقات والعراقيل. لقد كان تشخيص أسباب فشل بعض الصيغ الجبهوية، وسبل تحقيق تحالف راسخ ومتين بين أطراف المعارضة هو أحد العناوين البارزة لتصريحات قادة الحزب، وتقارير وبيانات اجتماعات ل.م. المختلفة، وفي صحفه ومجلاته.

وإذا توقفنا بالملموس عند أسباب عدم تحقيق صيغة كفؤة وفعالة للتحالف في الوقت الحاضر، رغم ما عليه الوطن من محنة وما يعانيه الشعب من كارثة (جراء سياسات النظام الدكتاتوري، وحروبه، والحصار الاقتصادي الدولي المفروض عليه)، ومن حاجة ماسة ومسؤولية تاريخية لإنقاذه، فيمكن تحديد بعض العوامل البارزة التالية:

ـــ ضعف في نمط التفكير الديمقراطي لدى العديد من قوى المعارضة، الذي ينعكس في التبرم بالرأي الآخر، وصعوبة في التفاعل والعمل المشترك، والرغبة في تغليب الذاتي الخاص على العام، ونزعة الهيمنة وفرض الزعامة، وسرعة الانجذاب الى الصراعات الثانوية وتغليبها على الأساسي. . . الخ. مثال على ذلك الصراع الدموي الجاري في كردستان بين قوتين أساسيتين من قوى المعارضة.

ـــ تأثير التدخلات الدولية والاقليمية وخصوصاً عبر بعض امتداداتها في المعارضة العراقية، والتي تغلب فيه أحياناً مصالح تلك الجهات على المصالح الوطنية، وهذا ما ينعكس سلباً على استقلالية قرار بعض أطراف المعارضة السياسي.

ـــ تخريبات النظام الدكتاتوري وتهويشاته، سواء عبر جهوده المباشرة، أو عبر بعض عملائه ووكلائه.

ـــ ابتعاد بعض قيادات المعارضة عن الاحتكاك المباشر بمعاناة الجماهير داخل الوطن، وبالتغيرات التي تحصل في تركيبة النظام، والصراعات التي تنشأ في إطاره، وبالتالي عدم القدرة على الاستفادة السريعة من كل هذه التناقضات.

ـــ تركيز النشاطات التحالفية على قيادات الأحزاب دون العمل في الوسط الجماهيري الواسع، والذي ينبغي كسب موقفه لصالح بناء الجبهة، والضغط على القيادات لتجاوز الصغائر من أجل ذلك.

هذه باختصار أبرز الأسباب الأساسية، والتي يتفرع منها الكثير، ويمكن إضافة العديد من الأسباب التفصيلية الأخرى.

ونحن إذ نشخص بالأساس هذه الأسباب التي هي في جلها ذاتية تخص المعارضة نفسها، لا نتجاهل الأسباب الموضوعية (الخارجية والداخلية) والتي في مقدمتها الإرهاب الذي لم يعرف له التاريخ المعاصر مثيلاً، الذي مارسه النظام ضد قوى المعارضة، وما ألحقه بها من خسائر رهيبة.

إن التشخيص السليم والنزيه لأسباب ضعف قوى المعارضة وتلكؤ وحدتها لا يستهدف قطعاً بث اليأس والتشاؤم وإنما شحذ الهمم وتحفيز قوى الخير والتفكير السليم لتجميع طاقاتها وتعبئة إمكانياتها لخوض النضال ضد الدكتاتورية وتهويشاتها وأكاذيبها وأجهزتها القمعية.

■ *أواخر الأربعينات والخمسينات، عندما كانت قيادة الحزب بأيدي شبان ثوريين وبسيادة المفاهيم الستالينية في العمل التنظيمي، كان شائعاً وسهلاً توزيع تهم الانتهازية والتحريفية والقومانية (النزعة القومية) والخ ضد المخالفين لنهج الحزب، وتوزيع تهم العمالة والخيانة الوطنية على القوى السياسية الأخرى. التسرع في إصدار تلك الأحكام تبين ضرره على الحركة الشيوعية، والحركة الوطنية. اليوم نجد مظاهر تطرف مقابل يصل الى حد التعاون مع عملاء للـCIA، والسكوت عن مواقف التبعية الى قوى إقليمية ودولية وتغليبها المصالح الحزبية على المصالح الوطنية والقومية الى حد الاستعانة بجيش النظام الذي اجتاح أربيل في خريف ١٩٩٦. ألا تعتقد أن هذا التطرف في التساهل يضر بالحركة الوطنية، وهل يمكن العمل على وضع ثوابت وطنية وديمقراطية في إطار السعي لتحقيق جمع كل القوى المعارضة للنظام من أجل الإسراع في الخلاص منه؟.*

● في الوقت الذي تحذرون وتنتقدون الممارسات السابقة بالتجريح بالقوى والشخصيات السياسية الأخرى، وإصدار الأحكام المطلقة ضدهم، أراكم تقعون بنفس الخطأ الذي تحذرون منه.

فالمعارضة الوطنية العراقية لا تتعامل مع عملاء الـ CIA بصفتهم هذه. ومن يستطيع أو يقبل بأن يحكم بعمالة هذا أو ذاك؟ وهذا قطعاً لا يعني أن الـ CIA وغيرها من مخابرات الدول المعنية بالشأن العراقي (وحتى النظام العراقي) لا تملك عملاء في

صفوف المعارضة، ولا تبرئه أو تزكيه لمن ربطوا نفسهم بالمخابرات الأجنبية وضد مصالح شعبهم.

إن حزبنا يتعامل مع قوى وشخصيات المعارضة، وهي واسعة، وذات اتجاهات فكرية وسياسية مختلفة وغاية في التنوع (وقد تكون فكرياً متناقضة) هذا هو واقع المعارضة العراقية، ولا يستثنى من هذا التشكيل قوى تؤمن بالاقتصاد الحر وحرية السوق والرأسمال ومعجبة بالنموذج الاقتصادي الأمريكي وغيرها. ولكن ما يجمعها هو العمل على خلاص الشعب من الدكتاتورية الدموية وإقامة النظام الذي يختاره الشعب بملء حريته، وفي إطار الديمقراطية السياسية.

وفي مجرى العمل يمكن أن تقع المعارضة، وقد وقعت بعض أطرافها كلياً أو جزئياً، في خطأ تقدير دور العامل الخارجي، والتعويل عليه (إن لم يكن علنياً أو رسمياً، فعلى الأقل ضمنياً أو عملياً) في إسقاط النظام القائم. وقد أثبتت التجربة خطأ مثل هذا التعويل، وخطأ قراءة الموقف الأمريكي المنافق والمزدوج.

لقد اتضح لأغلبية القوى حقيقة موقف الإدارة الأمريكية، وعدم انسجامه مع مصلحة الشعب العراقي، بل أصبح عملياً، متوافقاً مع استمرار الدكتاتورية في سدة الحكم في الظرف الراهن، ولأمد غير معروف.

وهذا الموقف ينسجم مع الستراتيجية الشاملة التي تتبناها الإدارة الأمريكية لعموم منطقة الشرق الأوسط، ولقضية السلام بين العرب وإسرائيل، وللقضية الفلسطينية، ولتحكمها في أسعار سوق النفط العالمي، أولاً؛ ولضمان احتكار مصالحها للمكاسب من أي عملية تغيير في العراق (ذي الثروات البترولية الهائلة) ثانياً؛ ولكي يأتي التغيير في الوقت المناسب لها ولحلفائها ثالثاً. أي تغيير فوقي، ومن داخل المؤسسة، وبالحفاظ على جوهرها، وضد أي مساهمة جماهيرية واسعة (يمكن أن ينجم عنها حقائق لإقامة ديمقراطية فعلية وتأمين الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي وغيره من القوميات المتآخية في العراق). وهذا ما يفسر حقيقة موقف وسلوك الإدارة الأمريكية إزاء القتال في كردستان واستمراره لمدة أربع سنوات تقريباً.

إنه لمن الخطأ الفادح وسم مواقف حزبنا بالسكوت عن الأخطاء السياسية والممارسات الضارة التي ترتكبها بعض أطراف المعارضة العراقية والتي تلحق أذىً كبيراً بقضية الشعب العراقي، وحقه في الديمقراطية واحترام حقوق الانسان، وبنضاله من أجلهما، وباستقلالية قرار المعارضة العراقية ورفض التبعية، والاستعانة بالقوى

المعادية الداخلية (الدكتاتورية) أو الأجنبية (إقليمية ودولية) لحسم الصراعات بين بعض أطرافها.

إن متابعة جادة وقراءة متأنية لوثائق الحزب الرسمية ووسائل إعلامه الجماهيرية (صحافة، راديو، تلفزيون) تكفي للتأكيد بأن صوت الحزب عالي وصريح إزاء هذه الأخطاء والتجاوزات بل والجرائم.

هكذا كان موقفنا إزاء المؤتمر الوطني الموحد (حين جمدنا وبعد ذلك انسحبنا منه)، وهكذا كان موقفنا من القتال الدائر في كردستان حيث بشّعنا نهج العنف واللاديمقراطية في حل الخلافات، وحين أدنّا التجاوزات على حقوق الإنسان، وانتقدنا الاستعانة بالدكتاتورية في ٣١ آب/ ١٩٩٦، أو بتركيا في تشرين/ ١٩٩٧، أو بإيران، وكذلك في اجتماع دمشق التداولي/ ١٩٩٥.

أما أن يكون أسلوبنا وخطابنا أحياناً وفي بعض الحالات في انتقاد أطراف المعارضة لا يشفي غليل البعض، فهذا مفهوم، ومن باب الاختلاف في تقدير الموقف. فنحن ننطلق في ذلك من تقدير واقعي ومسؤول، ومعرفة ملموسة بطبيعة الصراعات الدائرة وخلفياتها التاريخية، وكذلك تعقيداتها والعوامل المتشابكة حولها، ورغبة في حلها بطريقة تحفظ القوى وتمنع تحولها الى الخنادق المقابلة، وتفتح الطريق للرجوع عن الخطأ والاستفادة من دروسه وتمنع المتربصين من الأعداء من استثماره وتكبيره... كل ذلك من أجل تجميع الطاقات وتوحيد القوى على أسس سليمة تمكن في نهاية المطاف من إلحاق الهزيمة بالدكتاتورية وتحقق مطامح شعبنا. وهذا لا يعني بأننا قد توفقنا في كل الأحوال في اختيار الأفضل والأجدى.

لقد أقر المؤتمر الوطني السادس وثيقة «المشروع الوطني الديمقراطي للحزب الشيوعي العراقي»، وهي مطروحة للجميع (ومنشورة في الثقافة الجديدة وطريق الشعب)، وتحتوي على ثوابت وطنية وديمقراطية يسترشد بها الحزب في توجهه لتجميع القوى، وينطلق منها في حواراته مع الأطراف المعنية لتشكيل الإطار المناسب والمقبول لوحدة المعارضة، وصياغة الأسس البرنامجية التي يمكن أن تقوم عليها هذه الوحدة.

- *نتيجة المغامرات الحربية للنظام وغزو الكويت، تدوّلت القضية العراقية، وفرضت عليه عقوبات وإجراءات تمس بعضها بسيادة العراق كدولة، كما ثبت تقرير المؤتمر السادس ذلك. ومن هذا المنطلق يدعو الحزب الى إلغاء جميع العقوبات*

(القرارات) الدولية التي تمس بالسيادة الوطنية، والى «العمل على استبعاد الوصاية الدولية عن المؤسسة العسكرية». هل أخذ الحزب عند تحديده هذا الموقف بتلك الاعتبارات، التطورات الحاصلة عن مفهوم السيادة الوطنية ارتباطاً بتطورات مفهوم الدفاع عن حقوق الإنسان لا يشكل تدخلاً في الشؤون الداخلية، ولا مسّاً بسيادة الدولة، هذا المفهوم الذي دافع عنه فهد في تموز ١٩٤٣ بقوله: «إن الاعتداء على الحريات الشعبية في قطر ما لا تكون نتائجه محدودة ومقتصرة على ذلك القطر» «وهكذا لا يمكننا أن نعتبر من الشؤون الداخلية خنق الحريات الديمقراطية في العراق وتجويع الشعب ومطاردة الأحرار». وهذا التدخل هو جوهر القرار ٦٨٨، وهو حقاً مسّ بسيادة الحكومة، لكنه في صالح الشعب والمنطقة. فهل الحزب ضد هذا المسّ بسيادة الدولة؟ وهل يعتبر منع العراق الآن ومستقبلاً من امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وفرض إجراءات التحقق من تطبيق هذا القرار، الذي هو وصاية على المؤسسة العسكرية مسّاً بسيادة الدولة يتعارض مع المصالح الوطنية يجب العمل على استبعاده؟ أليس من المفيد للقضية العراقية تحديد دقيق لما يعتبره الحزب مساساً بسيادة الدولة يضر بمصالح الوطن؟ إن مخاوف بعض دول الجوار من إطلاق يد العراق في التسلح مخاوف موضوعية ومشروعة، إضافة الى أن التسلح إهدار للثروة الوطنية ويعرقل إعادة إعمار العراق المخرب.

● طريقة طرح السؤال توحي وكأن الحزب، باسم السيادة، لا يريد معاقبة النظام الذي ارتكب المغامرات الحربية وغزو الكويت... الخ. وهذه قراءة غير منصفة ولا صحيحة لموقف الحزب.

فالحزب حينما يثبت مطلب إلغاء جميع العقوبات (كما ورد في الفصل العاشر من التقرير السياسي للمؤتمر الوطني السادس وفي المشروع الوطني الديمقراطي) إنما يضع ذلك ضمن مهام سلطة البديل الديمقراطي (ما بعد إسقاط الدكتاتورية) وبعد تشكيل الحكومة الديمقراطية الائتلافية المؤقتة... الخ، (راجع ث. جـ. عدد ٢٧٨، ص ١١٠ ثانياً، وص ١١٧ ثالثاً)، وليس قبلها، وهذا عكس ما يوحي به السؤال.

إن حزبنا لا يمكن أن يسمح أو أن يسكت (وهكذا فعل وقدم الدماء الزكية والأرواح الغالية من أجل ذلك) عن جرائم النظام وحملات الإبادة في كردستان والأهوار وغيرها من المدن العراقية، واستخدم بها أبشع الأساليب اللاإنسانية، بحجة السيادة.

ولا يمكن أن يرضى بالعدوان وشن الحروب وانتهاك سيادة وحرمة أراضي الجيران والأشقاء أو يبرره بحجة السيادة الوطنية (وصوت الحزب عالي وواضح في هذا الميدان).

ولهذا أيّدنا العديد من قرارات الأمم المتحدة الهادفة الى إيقاف العدوان وردع المعتدي.

وأيّدنا بشكل خاص الجهد الدولي لتطبيق قرار ٦٨٨، ولجنة فان درشتويل، وإرسال مراقبين دوليين حول حقوق الإنسان، والمطالبة بمحاكمة صدام حسين وزمرته دولياً، والدعوة لانتخابات ديمقراطية تحت إدارة وإشراف الأمم المتحدة، ووجود الإشراف الدولي على تنفيذ القرار ٩٨٦ (النفط مقابل الغذاء والدواء)... الخ. وكل ذلك ينطلق من فهم سليم لعلاقة السيادة بالانتهاكات والجرائم التي يرتكبها النظام ضد الإنسان العراقي وضد البشرية.

بالتأكيد نحن لسنا في مورد الجدل الدائر عالمياً حول مفهوم السيادة وحدودها الشرعية وصياغاتها القانونية، ولكننا يمكن أن نشير الى أنه في الوقت الذي نرفض فيه التذرع باسم السيادة الوطنية، والاحتماء بها لارتكاب أبشع الجرائم ضد الجماهير الشعبية، ونؤيد الضغط الدولي الإنساني النزيه لإكراه المستبدين على وقف جرائمهم، لا نؤيد الفهم الكوسموبوليتي ـ الامبريالي الذي يستبيح استقلال البلدان ويتدخل بشكل فظ في شؤونها الداخلية، ويضطهدها وينتهك حرية الشعوب في اختيار نظمها الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية. ونرى بأن الادارة الأمريكية ـ بحكم ممارساتها المعروفة والثابتة ـ ليست جديرة بأن تكون راعية للقانون الدولي وحماية الشرعية الدولية.

نحن مع السيادة الوطنية التي تؤمن الإطار السليم لممارسة الشعب حقه في اختيار حكامه بحرية كاملة وديمقراطية، ودون أي انتهاك لحقوق الإنسان كما هي مثبتة في الشرائع الدولية ولوائح الأمم المتحدة.

وبالتأكيد لا يمكن القبول بالمهزلة (المأساوية) التي يلخص بها النظام البائس والمبتذل سيادة العراق بسيادة القصور الرئاسية؟!! كما يجري حالياً.

إن حزبنا حينما أيد نزع أسلحة الدمار الشامل وفقاً لقرارات الأمم المتحدة ينطلق أولاً من أن هذه الأسلحة لم يكن اقتناؤها إلا عبئاً ثقيلاً على الجماهير وعلى اقتصاد البلد، وقد ضاعت مليارات عزيزة عبثاً، وتطميناً لطموحات توسعية عدوانية. وثانياً: لأن هذه

التوجهات العدوانية ستخلق التوترات والكوارث في المنطقة، وستتضرر منها أولاً وقبل كل شيء الشعوب، وهي ربح صافي لاحتكارات السلاح وللدول الامبريالية. وثالثاً: أن أسلحة من هذا النوع بين نظام مثل النظام الدموي القائم، ستكون موجهه قبل كل شيء ضد أبناء شعبه، وهكذا وجدنا أن أول استخدام للأسلحة الكيمياوية كان ضد المواطنين العراقيين في كردستان (حلبجة/ باليسان/ زيوه وغيرها) وفي الأهوار.

ولذلك نرفض كل عمليات الكذب والخداع والتزوير التي يقوم بها النظام للتملص من القرارات الدولية الخاصة بنزع أسلحة الدمار الشامل، والتي تعطي الذرائع والحجج للإدارة الأمريكية وحلفائها لإدامة أمد الحصار الاقتصادي على الشعب، والتهديد باستعمال القوة وشن الحرب (الجوية ـ الصاروخية) من أجل ذلك.

وإذ نؤيد نزع أسلحة الدمار الشامل في العراق، حيث وضع النظام نفسه (بسبب عدوانه ضد الكويت) في مقدمة من ينزع سلاحه، فإن هذا الموقف ينسجم أيضاً مع موقفنا العام لنزعه هذه الأسلحة من عموم منطقتنا (الشرق الأوسط) وفي المقدمة منها إسرائيل المعتدية. إن عقد اتفاقية دولية (وللمنطقة) لنزعه أسلحة الدمار الشامل ضرورة ملحة وتخدم مصالح الشعوب في العيش في أجواء السلام والديمقراطية والتنمية.

إن تأييدنا للبعض من قرارات الأمم المتحدة لا يمنعنا، ولا ينفي، انطلاقاً من مصلحة شعبنا ووطننا وحقوقه العادلة، معارضتنا لقرارات أخرى نرى بأنها جائرة وغير عادلة، وفي مقدمة ذلك استمرار الحصار الاقتصادي ضد شعبنا (حيث يتساوى المجرم والضحية، ويؤخذ الشعب البريء بجريرة جرائم حكامه)، وكذلك فرض ترسيم الحدود في ظروف استثنائية وغير متكافئة. ومن حقنا أيضاً أن ننتقد وندين الأساليب غير النزيهة التي تتقصد تعقيد تطبيق بعض القرارات (٩٨٦)، وتتلكأ في ترجمة أخرى عملياً (٦٨٨).

إن سفالات النظام ضد شعبه وجيرانه، لا تبرر للقوى الإقليمية والدولية (خصوصاً التركية والأمريكية) التمادي في الاستهتار بحقوق الشعب والوطن وحرمة أراضيه وسيادته واستقلاله والتلاعب بمصائرهما.

عـرض

صوت لحقوق المرأة الكردية

إعداد: كمال محمود

صدر في أربيل الأعداد ٢، ٣، ٤ من المجلة الفصلية الثقافية التي تعنى بقضايا الدفاع عن حقوق المرأة الكردية (ده نگی = صوت). وسبق للثقافة الجديدة أن نشرت ملخصاً للعدد الأول.

يشير السيد جمال عبدول في افتتاحية العدد (٢) الى: أن التقدم الثقافي وتطور المجتمع قد أديا الى زوال الخرافات والعديد من العادات والتقاليد البالية. وهو يدعو الى تعليم المرأة وتأهيلها للعمل في مختلف مجالات الحياة.

ويقول شيرزاد حسن بشأن تحرير المرأة: إن حرية المرأة تعني إعادة الإنسانية إليها في مساواتها مع الرجل. ومن العار أن تتحكم القوانين الرجعية البالية في مصير المرأة أواخر القرن العشرين. ثم يقول: مازلنا لا نؤمن بحرية نصف مجتمعنا لأننا لا نملك إرادتنا. ومن المحال بالنسبة لمجتمع نصفه رهين السجن والأسر أن يتجاسر وينشد للحرية... ويشير الى مراحل الرحلة الطويلة الصعبة من الكهف الى القصر.

وعن وضع خطة لأدب النساء، يتحدث د. عز الدين مصطفى رسول عن وجود مثل هذا الأدب، لذلك يدعو الى رعايته والعمل من أجل تطويره وتشجيع المرأة في هذا المجال. ويبدي اشتياقه لمعرفة تصور المرأة ذاتها للرجل في كتاباتها، ثم يوجه خطابه الى الأحزاب لمنح الخبراء وذوي الاختصاص في اللغة فرصة معالجة المصطلحات اللغوية المتعلقة بالمرأة بعيداً عن العصبية وتوجيه الاتهامات.

ويقول رؤوف حسن حول المشاكل التي تعاني منها المرأة: أنت حر في اختيارك الجهل والتأخر والعبودية في صراعها مع الحضارة والتقدم والحرية. وأنا حر في رفع الحجاب عن الحيل والأراجيف والخرافات عن جانب واحد على الأقل مما تعاني منه المرأة. ويؤكد بأن صراع المرأة يجب أن يتوجه نحو تحقيق مساواتها مع الرجل من الحرية والسعادة، ويدعوها الى رفض واقعها المؤلم وعدم الجري وراء سراب الشعارات الخادعة، والى توحيد جهودها في الكفاح من أجل حقوقها كإنسان وحل مأساتها من جذورها.

واختار السيد عبدو بابا شيخ الحديث عن السيدة (ميان خاتون) والسلطة، ويقول بأنها أصبحت بعد وفاة زوجها أميرة لليزيديين ووصية على ابنها ومن ثم على حفيدها. وكانت سياسية وإدارية بارعة، تجنبت محاربة البرزانيين أيام الملكية رغم الضغوط التي سلطت عليها. بل وارتبطت مع المرحوم مصطفى البرزاني عن طريق أحد أبناء جلدتها بصلات جيدة... ورغم أنها كانت أمية، إلا أنها أحبت المدنية واستقبلت في دارها ضيوفها من المسؤولين وكبار الشخصيات في زمانها.

وكتبت شيرين آمدي حول موضوع انحراف الأطفال، تقول: أصبح الانحراف والجرائم التي يسببها ظاهرة يومية بسبب الوضع الاجتماعي المتردي وتصدع العلاقات الاجتماعية والعادات والقيم والتقاليد البالية والمشاكل العائلية والاقتصادية التي تؤدي بالمنحرفين الى الانزلاق نحو استعمال المخدرات ثم ارتكاب الجرائم. وتقدم مجموعة نصائح عملية إيجابية لمساعدة المنحرفين والعوائل لمعالجة الأسباب الحقيقية.

وكتبت بيان سلمان عن مشاكل المرأة فأكدت أن المرأة لم تصل بعد الى المستوى اللازم لإثبات وجودها بإرادتها وآرائها الحرة... وهناك نظرة خاطئة من الرجل تجاه متطلبات الجنس التي تؤدي الى تصدع الحياة الزوجية بالإضافة الى المشاكل الأخرى ومواقفها السلبية من الحياة. وتربط بين تخلف المرأة الكردية وسيطرة العادات والتقاليد القديمة. وتدعو المرأة الى الكفاح من أجل التحرير.

وفي العدد ملف حول قانون الأحوال الشخصية، طالب المشاركون فيه بضرورة إعادة النظر في القانون لإجراء تعديلات أساسية في مختلف أبوابه، كالزواج والأهلية والمهر وتعدد الزوجات والطلاق والقسوة... الخ لحماية المرأة.

وتتحدث (دلسوز محمد) عن المرأة والحب وتقول: لا يوجد تعريف معترف به للحب. لأنه مسألة نفسية ذاتية يصعب تحديدها ولا تخضع لقوانين ثابتة. وتؤكد أن الحب يشمل فترة معينة من حياة الرجل لكنه يمثل حياة المرأة كلها. ولن يصل الحب الى الكمال ما لم

يمارس بين طرفين متساويين في الحقوق. . . وتقرر أن العلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة لإدامة مصلحة معينة أو التي تهدد كرامتهما ووجودهما الاجتماعي لا يمكن أن تعبر عن الحب.

وتتحدث (بهار علي) عن مشاكل المرأة في مجال العمل وتقدم إحصائيات مستلة من تقرير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة وتشير الى عدم المساواة بين المرأة والرجل والى ضرورة توفير العمل للعاملات والعمال ومساواتهم من حيث الأجور.

واختار هادي محمود ظاهرة ضرب المرأة وموقف الشريعة الإسلامية والقوانين العراقية ويبين اتساع مديات الاضطهاد واستعمال القسوة ضد المرأة والتي تتخذ إطاراً شرعياً وقانونياً. ويؤكد ضرورة القضاء على الأسباب المولدة لهذه الظاهرة.

وفي العدد مقال مترجم عن «المرأة في برامج اليسار» للدكتورة عايدة سيف الدولة لم يشر مترجمه (ازاد حسيب قرداغي) الى المصدر.

وعرض (أ. بهار) كتاب «الزواج المؤقت عند الشيعة ـ حالة إيران ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢» لكاتبته (شهلا حايري) ويتناول مبررات ذلك الزواج في التاريخ الإسلامي وأنواعه.

وأخيراً، هناك مقال مترجم بعنوان (المرأة في تاريخ المجتمع) تأليف د. بشرى تبسي، طبعة أولى ١٩٥٥ وهو متوفر باللغة العربية.

العدد الثالث ـ شباط ١٩٩٧

تتحدث (بهار) في «بدلاً عن المقال الافتتاحي» عن صعوبة إنشاء المشاريع التقدمية واستمرارها خاصة إذا كانت متعلقة بقضايا المرأة، وتؤكد على أن الحرب الداخلية أدت الى تراجع المسائل الإنسانية ومعها قضايا المرأة.

ويتحدث هادي محمود عن المؤتمر العالمي الأول (استوكهولم ١٩٩٦) حول استغلال الأطفال والأحداث في الجنس وسوق النخاسة. . . ويبين أساليب خداع الأطفال والضغط الاقتصادي الذي يعاني منه عوائل الأطفال لدفعهم للانزلاق. ويتحدث بالأرقام عن انتشار هذه الظاهرة في آسيا وأمريكا وأوروبا ويشير الى تفشيها في البلدان العربية ويقدم مقترحات وقائية وعلاجية عن طريق تطبيق اتفاقية حقوق الأطفال المبرمة عام ١٩٥٥ من قبل هيئة الأمم المتحدة.

وهناك مقال مترجم من قبل (دلسوز محمد) بعنوان «القسوة والاضطهاد ضد المرأة» مستل من كتاب «الحريم السياسي» للكاتبة المعروفة فاطمة المرنيسي.

وترجم (ع. وريا) مقالاً بعنوان «ختان الفتيات عادة ضد الانسانية» للدكتور (ناصر طهماسبي) منشور في مجلة (علم وجامعة) العدد ١٤٤ أكتوبر ١٩٩٦. ويتناول ظاهرة ختان المراهقات، أسبابها ونتائجها السلبية والنفسية على الفتيات وضرورة وضع نهاية أبدية لها عن طريق إصدار قرار خاص من هيئة الأمم المتحدة.

وطرح (هادي محمود) أسئلة حول قضايا المرأة والدفاع عن حقوقها في برامج الأحزاب السياسية في كردستان على ممثلي الأحزاب والمنظمات النسائية لنشر الردود في المجلة. وجاء في جواب شمام شوقي (من أوك): «فإلى كم من العيون واليقظة الفكرية نحتاج نحن الذين نعيش كشعب مضطهد متفكك دون كيان، ومتأخر عن ركب المدنية والحضارة؟» وتتحدث عن مرحلتين، الأولى قبل انتفاضة آذار ١٩٩١ والثانية ما بعدها. وتدافع عن سياسة (أوك) وتذكر، كمثال، التصويت الذي جرى خلال انتخابات البرلمان، حيث صوتت أكثرية النساء لصالحه. وتنتقد بعض الظروف والملابسات التي لم تكن في صالح المرأة خلال العمليات الثورية. إلا أن (أوك) اتخذ عدة قرارات في مؤتمره الأول لصالح المرأة. وتنتقد (أوك) لعدم وجود عنصر نسائي في مركز إصدار القرارات. وتأمل أخيراً، انتهاء الحرب الداخلية وعودة المجتمع الى وضعه الطبيعي وإجراء تغييرات جذرية فيه.

ويقول فلك الدين كاكائي (من حدك): ساهمت نتيجة النضال المستمر لـ(حدك) عشرات الألوف من النساء الكرديات في ميادين النضال السياسي والوعي الاجتماعي وقدمت التضحيات. . . وذكر بأن الحزب يولي اهتماماً كبيراً بمشاركة المرأة بحرية في نضال شعبها.

وشاركت بهار علي عن (حشكم) فذكرت بعض الظواهر والأرقام التي تؤكد عدم مساواة المرأة مع الرجل، وأرقاماً عن تفشي الأمية والفقر، وفرق الأجور بين العاملات والعمال، وضعف تواجد المرأة في البرلمان، والعادات والتقاليد البالية واستغلالها لاضطهاد المرأة في العائلة وفي المجتمع. وتشير الى دور الحركات الأصولية في تشديد الخناق عليها. وانتقدت بعض رفاقها لاتخاذهم مواقف متخاذلة تجاه المرأة وحقوقها في قضية الرد على الآراء الرجعية التي أثارتها جهة أصولية. وتشير الى تبعية التنظيمات النسائية للأحزاب وإهمال فعالياتها ونشاطاتها. وتأثير الحرب الداخلية على قضايا المرأة، وأشارت الى ظاهرة انتشار القتل واستعمال القسوة اللاإنسانية التي تمارس ضدها بحجة الدفاع عن الشرف. . . وانتقدت عدم وجود نساء في المكتب السياسي

واللجنة المركزية للحزب. . . وتطالب الحزب بالوقوف بحزم دفاعاً عن حقوق المرأة واستعادة الجذب الإيجابي للنساء كما كان في السابق.

وشارك ابراهيم لاجاني عن الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني وبيّن بأن (حدكا) أعار اهتماماً كبيراً للمرأة وشكل منذ آذار عام ١٩٤٥ اتحاد المرأة الديمقراطية الكردستاني. وأن المرحوم قاضي محمد شجع بناته على المساهمة في النشاط السياسي والاجتماعي. وتطرق إلى حالة التخلف في كردستان ايران حيث تعم الأمية بين النساء. ويؤكد استحالة خلق مجتمع متحرر وديمقراطي خال من الظلم والاستغلال دون تحقيق مساواة المرأة مع الرجل التي تتطلب كفاحاً مستمراً. ويطالب بتحقيق الديمقراطية في إيران لينال الشعب الكردي حقوقه وليتسنى له النضال لإزالة التأخر الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. . . الخ. ويؤكد بأن النضال ضد امتيازات الرجل وإزالة سيطرته على المرأة يتطلب حركة جماهيرية واسعة.

وكتب ناصر حسامي حول «المرأة في البرامج والاتجاهات السياسية للمجتمع» واستغلال الحكومة الايرانية للمفاهيم والتقاليد البالية وتحويلها الى قوانين للدولة، وتحويلها المؤسسات والمحاكم والشرطة والسجون والقصاص والتعذيب والرجم بالحجارة الى دعائم لتلك القوانين والسلطة. ثم بيّن اندماج حزبهم مع الحزب الشيوعي الإيراني، وأن مؤتمرهم الخامس خصص ست صفحات من تقريره للمطاليب الخاصة بحقوق المرأة السياسية والاقتصادية وحقوقها داخل العائلة والمجتمع في قضايا الزواج والطلاق والجنين.

وكتب طارق جامباز عن مواقف الأحزاب السياسية تجاه المرأة، فهي لا تعطيها دوراً في واقع النشاط السياسي، وعجزت عن تشكيل حركة نسائية مؤثرة تناضل لفرض إرادتها على الجهاز السياسي لتحتل المرأة مكانها اللائق.

ونجد في نهاية العدد حواراً مترجماً من قبل (زنوبر لاجاني) بعنوان «جسم مقدس وشعر مبجل» بين [(تسليمة نسرين) وهي كاتبة بنغلاديشية متحررة] وثلاث فتيات مسلمات فرنسيات، حول قضايا المرأة والدين، الزواج، نظرة القرآن الى المرأة، الحجاب، الخ. إلا أن المترجم لا يشير الى المصدر الذي ترجم منه الحوار.

العدد الرابع:

من خارج الوطن تتحدث (بهار علي) في الافتتاحية عن مأساة (كژال خدر) التي

جُدع أنفها بتهمة العلاقة، ثم قالت إنها فاتحت كاتبة للمساهمة في ملف فتحته إحدى مجلاتنا حول أوضاع المرأة فدونت الكاتبة في دفتر مذكراتها الشخصية، «كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل للرد على المحاور المتعلقة بمشاكل المرأة الكردية. فإن أردتُ الإجابة عليها بصدق، فإنني سأفتح باباً لمشكلة أغلقته قبل بضعة أيام بعد محاولات وتوسلات مضنية. لمصلحة أولادي والمحافظة على كيان العائلة. ينبغي أن أكون حذرة جداً في إجاباتي حتى لا ينهار ما بنيته ووجدته بعد تلك المتاعب الكثيرة إرضاء لزوجي. . . فإلى متى أقدم التنازلات للحفاظ على الحياة العائلية المضعضعة هذه».

وتستمر (بهار). . . «فإذا كانت كـزال خدر تمثل هوية القسوة وآلام امرأة أمية في وطني، ارتكبت بحقها ما هو أسوأ من الاغتصاب والارهاب والقتل. فإن مشاكل تلك المرأة الكاتبة تعبر عن شكل آخر من القسوة داخل عائلة مثقفة. . .».

وكتب هادي محمود أن الإعلام ميدان واسع للدفاع عن قضايا المرأة برفع مستوى الوعي الاجتماعي. . . رغم أن الإعلام لم يكن إلا لنخبة من القارئات والقراء. . . وينتقد الإعلام عموماً لإهماله طرح قضايا المرأة بصورة واقعية ويقدم مقترحات من أجل تغيير قناعات الجماهير والعمل لخدمة قضايا المرأة وحل مشاكلها.

ويشير (ك. أ. ك) الى وضع العوائل الذين عانوا من عمليات الانفال. ويذكر إحصائيات عن مختلف جوانب حياتهم وخاصة في (قشتبة الجديدة) ويتطرق الى المشاكل الاقتصادية والصحية والخدمات العامة والاجتماعية والثقافية لسكان القرية ويقول: إذا كان عدد ضحايا الانفال يقدر بـ ١٨٢ ألفاً فإن من بقوا من بعدهم أكثر من ذلك العدد بكثير وهم بحاجة الى تحسين ظروفهم الحياتية وإعادتهم الى أماكنهم الأصلية.

وترجمت (زنوبر) مقالاً عن ظاهرة الاغتصاب وتبين حصول عملية اغتصاب في أمريكا كل ٦ دقائق. . . وتذكر نماذج مماثلة في كينيا والبوسنة حيث جرى اغتصاب عشرات الألوف من النساء. . . وتعيد السبب الرئيسي للاغتصاب في افريقيا الجنوبية الى التمييز العنصري. ويستعمل أيضاً كوسيلة لقهر وقمع المعارضة في بلدان مختلفة كما جرى ويجري في العراق، حيث يشارك في العملية رجال من الشرطة والأمن والمخابرات. . . وتوجد في سجون ومعتقلات العراق غرف خاصة لممارسة اغتصاب النساء. هذه الحالة التي تؤدي في النتيجة الى قتل الضحية من قبل أوليائها غسلاً للعار، كما يقال. ويمارس الاعتداء الجنسي على الذكور أيضاً كما حصل في سجون جنوب افريقيا أيام التمييز العنصري. إن النضال ضد الاعتداء الجنسي والاغتصاب هو نضال

من أجل خلق عالم يستحق العيش فيه.

وترجم ابراهيم لاجاني مقالاً من المجلة الفارسية عن ضرب المرأة.

وكتب هابيل يوسف عن تعدد المصطلحات للإشارة الى المرأة لدى الأحزاب. ويقول: «لدينا قادة في الأحزاب الكردية ينظرون الى المرأة بازدراء ويتساءل، ما هو النظام الذي يعمل خلف العقل السياسي للأحزاب الكردية؟» وهو يشك في وجود برامج لتمدين المجتمع الكردي وتطور المرأة والاعتراف بحقوقها.

ويشير د. سلام عثمان في فسلجة جسم الإنسان الى وجود الاختلافات الفسلجية بين أعضاء جسم المرأة والرجل، لكنه يؤكد مساواتهما من حيث قابلية العمل والتفكير والذكاء.. . الخ.

وفي ندوة المنظمات النسائية التي انعقدت في السليمانية، والتي ساهم فيها عدد من ممثلات الجمعيات النسائية مع أكثر من ستين محامياً حول (جدع أنف) كـژال خدر، أدان المجتمعون العادات والتقاليد البالية ووجهوا اللوم الى الدوائر الرسمية والأحزاب الكردستانية لتقاعسها تجاه أمثال تلك الجريمة. وحثوا الجماهير لتحمل مسؤولياتها في الضغط على المسؤولين وإنزال العقاب بمرتكبي الجريمة.

وعن أهمية البحث الميداني للأوضاع النفسية للمرأة تذكر جوان سعيد افتتاح وحدة طبية للعلاج النفسي. وتقول: نحاول في وحدتنا نشر الثقافة الصحية لإرشاد المرأة وتقديم أفضل الخدمات لها.

وملف العدد بعنوان «المنظمات النسائية بين الكثرة العددية والاتحاد» وجهت المجلة أسئلة الى تلك المنظمات والمعنيين بشؤون المرأة. وشاركت مجموعة من المثقفات في الرد على الأسئلة. ولوحظ ما يشبه الاجماع على نقد الأحزاب التي خلقت منظمات نسائية تتميز بالتبعية والعجز عن اتخاذ الموقف المستقل وتوحيد نشاطها في الدفاع عن المرأة إزاء مختلف أشكال التمييز والاضطهاد والدعوة الى أشكال من التقارب والتنسيق بين المنظمات النسائية. وتطرقت المساهمات كذلك الى مظاهر التمييز والاضطهاد للمرأة.

وشارك في الحوار: بهار علي، شمام شوقي، د. شكرية رسول، كويستان عبد الله، ينشتمال كمال، باشنگه هاوار، شكريه محمد أمين، شلير محيد، روخوشر اسماعيل، سولاف أحمد ودلكش.


أدب وفن

«نحو القرن الحادي والعشرين»..

أم نحو غلاف «مسكين»؟!

غلاف العدد الماضي، عدد الراحل الجواهريّ الكبير، الذي صنعه الفنان (عباس الكاظم)، هو غلاف غير مسبوق، إذ كل الدوريات التي احتفت بالشاعر الكبير لم تكن أغلفتها تزدان إلا بصورة له، في حين تفرّد (الكاظم) فاكتفى بعلامة للجواهري طريفة ومحبوبة، هي قلنسوته التي كانت، ولعشرات السنين، علامته الفارقة، ثم أضاف الفنان إلى ذلك أن جعل عنوان المجلة وشعارها تحت القلنسوتين، كما لو يكون ذلك تنكيساً عن تمجيد وتخليد، أو كأنه يقول أنْ لا شيء فوق قلنسوة الجواهري سوى السماء!

لقد حظي الغلاف بالإعجاب لدى الكثير ممن رأوه كما هو، لا كما ظهر غلافاً للعدد الخاص، حيث جاء باهتاً عند التنفيذ رغم دقة التعليمات المرفقة.

***

كنت قد هيأت للعدد قبل الماضي افتتاحية أجدّد فيها الدعوة للكتّاب، كي يدلوا بخواطرهم في زاوية (نحو القرن الحادي والعشرين)، ولكنّ «خبر» الجواهري أزاح تلك الافتتاحية... ثم جاء العدد المكرس للجواهري، فإذا بالغلاف يأتي عاثر الحظ «مسكيناً»، فتأجلت، مرة ثالثة، تلك الافتتاحية، فكأن الأمر مازال مرهوناً بالجواهري، ابن القرن العشرين، طولاً وعرضاً!

إزاء كل ذلك، نقول لأعزائنا القراء وللمساهمين الأفاضل، ولراحلنا الكبير، ولفناننا عباس الكاظم... نقول: معذرة، وسامح الله تلك الغفلة وذلك الخطأ الذي ذهب بالكثير من بهاء الغلاف الذي نحرص على إعادة نشره، على الغلاف الأخير لهذا العدد، كما صنعه الفنان.

إنه ـ حقاً ـ لأمرٌ عَجَبٌ، أن نكون غافلين ـ ونحن نتهيأ لملاقاة القرن الحادي والعشرين، ورغم أفضل أنواع التقنية الطباعية ـ فننفّذ، على نحو باهت، غلافاً **سهلاً**، وإن كان **ممتنعاً**!

مهدي محمد علي

تحية إلى الفنانة زينب:

دمت للفن وللشعب !

المبدع الحقّ لا يحتاج إلى من يحفّزه على الاستمرار في العطاء، لأن إبداعه هو المحفز، وتاريخه هو الذي يدعوه لمواصلة مسيرته الإبداعية... وعليه فليس لنا ـ ونحن نتتبّع بقلق ولهفة ودعاء مديد من أجل أن تنتهي الأزمة الصحية التي تمرّ بها فنانتنا المجاهدة زينب... ليس لنا إلا أن نقول لها: دمت للفن والشعب، وأنتم الثلاثة: الفنان، والفن والشعب، أقوى من أن يضعفوا، بل هم يضاعفون الإبداع كلما تضاعف الألم والحزن والمنفى!

نود، هنا، أن ننشر مادتين: الأولى كلمة الفنانة زينب في الحفل التأبيني الذي أقيم في السويد للراحل الكبير الجواهري... ومثل ذلك ننشر قصيدة لمحبٍّ يعبّر عن مشاعره، مثلما عن مشاعر المحبين من أبناء شعبنا، راجين أن تتلقى فنانتنا ذلك، مثل باقة ورد مبللة بدموع الاعتزاز:

إليك يا ابن وطني !

إليك يا ابن وطني، يا جزءاً من دمي... أيها الراحل العظيم الأشم... أيها الخالد إلى الأبد... أقول:

أنا لا أبكيك... أنا لا أرثيك. يا أعظم شاعر أنجبه القرن العشرون للعراق وللعرب أجمع... إنك لم تمتْ بل رحل جسدك الضعيف الذي أتعبه اضطهاد السلاطين وجبابرة الحكام وآخرهم من أوجع قلب العراق بحرمانك من حق المواطنة فأسقط عنك جنسيتك

العراقية لتدفن في أرض غير أرضك التي تنسمت هواءها العذب واستقيت من نمير مائها الطيب... لتعيش محروماً من كل ذلك...

لكن إبداعك بقي خالداً في ضمير شعبك الذي أحبك وبقي يتغنى بشعرك تردده سماوات العراق من شماله إلى جنوبه...

أيها الملهم في طريق النضال المرير لا ننسى تحيتك لأولئك الذين كافحوا من أجل الحرية والكرامة...

سلام على جاعلين الحتوف - جسـراً إلى الموكب العابر

إنها عزيمتك الموغلة في التصدي لسطوة الحكام والمستبدين، إنها نور الهداية لكل قلب ضعيف متردد.

أيها الخالد أبداً يا ابن المدينة المقدسة التي جمعت كل تراثها الإبداعي وجواهر تاريخها البطولي لتصوغ منها قلائد تطوق بها أعناق المبدعين من أبناء وطنك العراق والوطن العربي الكبير ومبدعي الإنسانية جمعاء...

ولا غرابة في ذلك فأنت بحق... (الجواهري).

زينب

يا نجمة الفن الرفيع

شعر / عبد الستار نور علي

[الى فنانة الشعب زينب]

يا نجمةَ الفنِ الرفيعِ تألَّقي
بينَ النجومِ، وحلِّقي
أنتِ الجناحُ، فلم تلوذي بطائرٍ
كي ترتقي
وارتقينا في رحابك
مذْ ألفنا منهج التشخيصِ
والتعبيرِ، والفنِّ النقي.
يا نجمةَ الفنِّ الرفيعِ،
حلِّقي
رفّي بجنحيك ملاكاً
في سماء التوق
نحو مواطنِ الفنِّ الأصيلِ

المبتغى... وتدفقي
رفّي فأنت الطائرُ الذهبي
ذو النور الّذي لا ينطفي
رفّي فزادك عنفوانُ الناس،
حبُّهُمْ... اصطفافهُمْ معاً،
وقلوبُ عشاقِ الأماني الراقيات،
الملهمات... الشمس، والقمرِ المنادي:
«ارتقوا،
وتدفّقوا،
فالشوق ملحمةُ الحشود،
وإنْ تدافعَ ألفُ هو لاكو
لكي لا تلمسوا وجهي،
فنودي في انتظار الحشد
أزماناً... وأزماناً...
وإنْ طالتْ،
فدربُ الألف يبدأ واحداً.
ويطولُ...
يقصرُ...
ذاكَ صفرٌ في حسابِ التائقين
الأقوياء
المتعبين.»

* * *

يا نجمةَ الفنّ الرفيع،
فقد تطاول صبية أقزامُ وهماً.
ما استطاعوا لمسةً من قمة شماء،
ما ألفت سفوحَ القوم،
مجمعهم، وهم حولَ الموائد،
يتخمون، ويرقصون،
يصفقون لغلمة الأمراء
نخاس الكلامِ يباعُ في سوقِ الجواري
باخساً، من غير حدٍّ لا
ولا نبض تقي
يا نجمة الفنّ الرفيع،
لأنتِ لونٌ من نخيل الرافدين
النهر... والأهوار...
والسهل الأبي.
يا نجمة الفنّ الأبي،
فلئنْ تزاحمَ حاملو سيف الذبائح
كي يهيلوا صفحة النسيانَ
ما حصدوا سوى الخسرانْ
إنَّ شعاعَ نجم الرافدين
لا ينطفي.

دعوة للحوار

كـتـابـة بـلا حـدود

فارس فرات

ما كانت الحروب طموحنا في هذا العالم الذي وجب علينا أن نعيش فيه، ولم تكن السماء المتخمة بالطائرات والقنابل وكل النتاج التكنولوجي الهادف إلى تدمير ماهو طبيعي في حياتنا هو قدرنا الذي صممته لنا المؤسسة (بكل مسمياتها) أن نقبله، حياتنا الآن لا تتحمل حسابات السياسيين ولانظريات المعاهد الجامعية ولاحسابات الرياضيات. كل هذه الحسابات قد قادتنا إلى عالم الحروب والقتل والدمار ومحاولات غير مسؤولة في تدمير البيئة والإنسان والحيوان. أما المحاولة الأكثر بشاعة هي العملية المتواصلة في تحويل الطاقات الإبداعية إلى سلع يمكن عرضها في سوق التجارة العالمي مهما كان نظام السوق... ما الذي تبقى كي يؤسسه الشعراء؟ كل الدمار الذي حدث والخراب في أي جزء من المعمورة منذ آدم وحتى كتابة هذه السطور... أكان من الممكن تجنبها؟ ربما...

ما الذي يكبح الإبداع من ركوب موجة المغامرة بعيداً عن الكوابح المعدة مسبقاً لتدجين روح المغامرة وتقنينها لتصب في سواقي السلطات الآسنة؟ هنالك أكثر من عامل يؤثر سلباً أو ايجاباً على المعادلة الإبداعية وقد يظهر هذا التأثير كلياً أو جزئياً تبعاً للبيئة ولظروف أخرى. من يسرق الدهشة من عيوننا؟

الحرية شرط أساسي لكل منجز إبداعي وبدونها تكون المعادلة الإبداعية في حالة عدم إتزان وهي نتاج لما يمارس يومياً منذ أول صيغة للسلطة عبر التاريخ وحتى كتابة

هذه السطور، لذا ولإسترجاع حرية مغتصبة من قبيلة المجانين علينا أن نطلق جنوننا بدون شروط مسبقة وقوالب أكاديمية أو مجتمعة وجدت لقتل كل ماهو طبيعي قادم من أرواحنا التي تنشد فضاءات أكثر سعة لاتبدو فيها أية أسلاك شائكة معدة من قبل المؤسسة. . . نعم إنها اللحظة التي علينا فيها أن نطلق صراخنا الطفولي دون خوف، نطلق أحلامنا بعالم أفضل، كوابيسنا بسبب المؤسسة واضطهادها لنكتب عن هذا ولنترك للآخرين حرية إستقبال النتاج الإبداعي بإيجابية مأمولة أو بغضب وسلبية. والأهم هو إن صراخنا قد خرج من كهوفنا ــ أرواحنا ــ إلى العالم ليلقي حجر الإنذار في البحيرات السالكة.

إنها اللحظة المناسبة لإطلاق هذه الكلمة البدائية بصوت طفولي رافض، إنها:

لا، لا، لا

إنه الإعتراض المطلق على الحياة المعاصرة بتفاصيلها المعقدة، غياب الشعور بالإنسان كضرورة لإستمرار الحياة، سطوة التكنولوجيا على مجريات التأريخ، عمليات الإغتيال اليومية للبيئة ومكوناتها الجميلة، الإغتصاب اليومي المتواصل للطبيعة الأم وتشييء مكوناتها الجميلة لإدراجها ضمن قوائم الأشياء الصالحة للبيع في سوق التجارة وبسبب الخلافات المالية التي حدثت فيه أو التي ستحدث، كانت الحروب والضحايا والتدمير والتي ستتواصل كخاصية معروفة للمؤسسة إذا لم نطلق على الأقل إعتراضنا الطفولي بكلمات سهلة دون أي إطار سياسي أو عكازة فلسفية إنها:

لا، لا، لا

يكفينا ماسبق من حروب وإضطهاد ودمار وأنظمة رقابة صارمة حاولت ومازالت تحاول خلق الجنون الطفولي وبدائيته عبر محرمات الغاية من إختراعها هو الحفاظ على السلطة المطلقة للكيان المخيف ذي الوجه البشع الذي يرتدي عدة أزياء: الدولة، الرئيس، الملك، الحاكم، الكنيسة، الجامع، الأخلاق المجتمعية السائدة، الأب في كيان الأسرة، المعلم، الشرطي، أو الشخص الذي يمثل الرب والقادر على إستعمال السلطة المتوفرة لردع أي طور من أطوار الجنون الإبداعي.

ما الذي تبقى لنا نحن أطفال الجنون؟

أكان هنالك شرطي يمارس شيئاً من الرقابة حين بدأ الإنسان البدائي رسم مشاعره على جدران الكهوف أو كتابة قصائده باللغة الهيروغليفية على الواح الطين في بابل القديمة؟

كانت لغة الرياضيات هي اللغة التي أوصلت العالم لكل الحروب الكبيرة والتي أنتجت مآسي سجّل بعض فصولها التاريخ أما الفصول المفقودة هي الفصول المتعلقة بالخراب الكبير الذي تعرضت له الروح البشرية في إمتلاك القابلية على القتل والعيش من أجل القتل بأجهزة فتاكة قابلة على تدمير العدو المفترض مع أجزاء كبيره من أمنا الأرض. . . أتلوم لغة الرياضيات؟ أم نلقي لومنا على الإستخدام السيء للأرقام المحايدة في كل المجازر. إنها كحلقات في سلسلة واحده، تقود في النهاية لليد المحركة، اليد التي تزود إغواء البروبغندا للمجموعات البشرية من أجل مكاسب جلية أحياناً وغير جلية كل الوقت، والنتيجة النهائية هي تشويه كبير لطبيعة الفرد وتشويه أكبر للطبيعة الأم تحت مسميات لا تعد.

إن مراجعة مختصرة للتاريخ البشري الحديث في هذا القرن تظهر حقائق مؤلمة لعملية تدجين الروح الإنسانية ضمن مسارات سياسية ومجتمعية جادة قابلة للإنهاك، كل من خالف هذه المسارات كان ضمن الشواذ التاريخية في أي مجتمع. لذا كان مايكوفسكي يغرد خارج السرب الستاليني، وناظم حكمت يعلن أشعاره الرأسمالية التركية البدائية وسلفيا بليث تواجه الخواء الإنساني في الغرب الأمريكي أو في برد لندن القارس. أليس هو الوقت المناسب لإعلاء صرخة طفولية كانت ومازال شرارة أولى لنار الشعر، إنها:

لا، لا، لا

إنه من المهم جداً أن نفهم العالم بفطرية مطلقة دون الإعتماد على الشروحات الفلسفية المتكلفة التي أستخدمت لتبرير الإضطهاد القادم من جبهة المؤسسة تجاه القبيلة المجنونة وللحد من الموج الإبداعي مهما تنوع وبأية صيغة كان، ليس من واجبنا تغيير العالم لأننا لاننشد سلطة المؤسسة لكن علينا أولاً وثانياً وأخيراً أن نحرر كل الطاقات الداخلية المخزونة فينا ضمن منجز إبداعي لايخشى السلطة (أي سلطة). نعم علينا أن ننذر العالم بالكارثة التي تقرع أبوابنا: غياب الطبيعي التلقائي المطلق عن الأرض - بيتنا الكبير - كيف يمكننا إطلاق هذه الطاقة الداخلية في عالم مسور بلاءات المؤسسة التي ترفض الإعتراف بأن الكتابة الإبداعية هي محض مغامرة داخلية تعكس النبض الداخلي الذي قد يتفاعل مع المؤثرات الخارجية القادمة من الآخر أو لايتفاعل، إنه ليس بتعريف مقدس غير قابل للتغيير للطقس الكتابي: الطقس الكتابي نوع من المغامرة الداخلية، نوع من ممارسة الحب، حالة موت وولادة، لحظات طيران حول نار غير مرئية،

رقص داخلي تحت إيقاعات يصعب وصفها حول نار أكثر بهاءً وحزناً من نار الهنود الحمر، لم لايكون الطقس الكتابي طوراً من أطوار الهستيريا الذي لم تدركه نظريات العلوم الحديثة أو الأديان المعروفة؟ ولنعلن من هذا الجنون في كتابة لها مميزاتها دون شروط مسبقة أو تعريفات نقدية كانت ولاتزال مسؤولة عن صناعة التابوات التي لايصح الإقتراب منها والأعمال الرثة التي نالت الاضواء. . . إنه الوقت المناسب لصراخنا، نحن أطفال الجنون:

لا، لا، لا

إنها لحظات تتزاوج فيها رغبات طفولية مع أحلام برئية لتنتج نصاً يحتفي بالجمال الفطري، ويحتفى به في ذات الوقت، هو ذات الإحتفاء الذي يظهر جلياً في عين الشاعر حين يبحر في خضرة الأشجار والمهدد دائماً بعين الصياد الذي يجيد نصب الكمائن للغزلان الجميلة وإشعال النار في غابات الأشجار العزلاء. لم هذا التأخير في تحرير طفولتنا؟ لم لا يتوج طقس الكتابة بطفولة حاول الكبار تشويهها لخدمة المؤسسة؟ إنها اللحظات المناسبة لكتابة غير مشروطة، بلا حدود، كتابة مطلقة لاتخضع لأي مقياس مسبق، إنها اللحظة المثالية للصراخ الطفولي:

لا، لا، لا

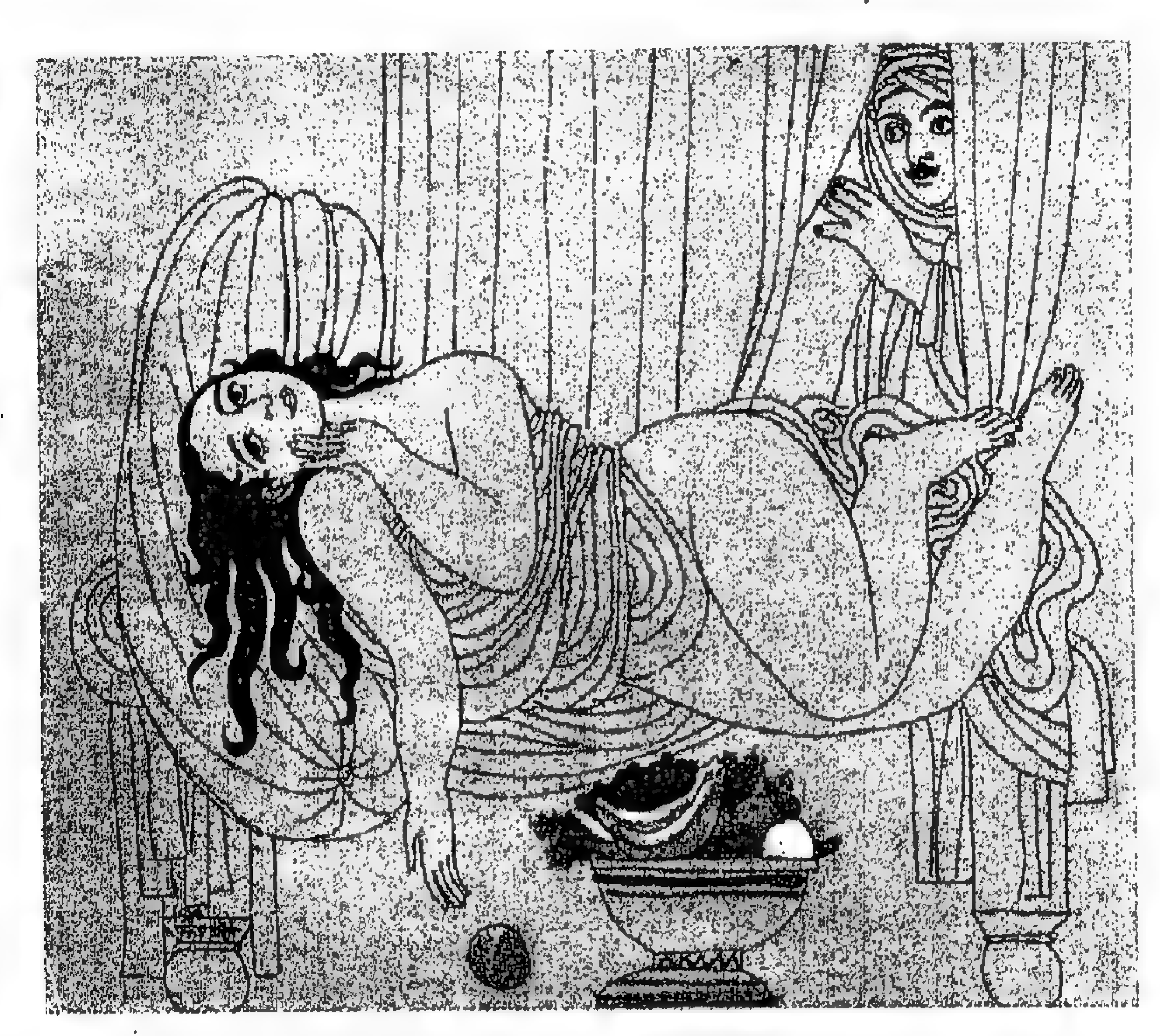
١٩٩٧/٧/٦

شيوخ الأزهر وبعض «الكتاب»

هذه ليست المرة الأولى التي يهاجم بعض كتّاب المطبوعات اليسارية، الأعمال التي تتناقض مع معلوماتهم الأولية عن الفن والتي لا يعرفون غيرها. فقد تعرض من قبل الفنان جواد سليم الذي كان ينتج أعمالاً عن (كيد النساء) ورسوماً عن (الحمّال والثلاث بنات) ويبحث في التراث العراقي الاسلامي والقديم، في الوقت الذي يرى فيه أمثال هؤلاء أن المدرسة السوفيتية الرسمية في الفن هي قمة التطور الذي وصلت إليه الفنون في عصرنا هذا، ولم يكن نصيب بدر شاكر السياب أفضل من نصيب جواد فقد هاجمه شاعر فاشل أيضاً لا لشيء إلا لكون السياب قد رأى أبعد من الجميع. ومع الفارق الهائل بيني وبين السياب وجواد وهو كفارق الثرى والثريا، إلا أن هذا الموقف لايزال يتكرر وبأشكال مختلفة.

ذكّرني ما كتبه د. محمد صادق رحيم عن معرض (بدر البدور وقمر الزمان) في «الثقافة الجديدة» بفتاوى شيوخ الأزهر حول كتاب (ألف ليلة وليلة)، اذ نجد نفس المبررات والادعاءات، أن خطورة مثل هذه الفتاوى تكمن في معاداة ما هو خارج الفهم والمعتاد، أو في جهل ما هو مطروح على المجتمع من قضايا تغييرية تحتاج الى عقلية مخالفة للمألوف. إنه يحاكمني من خلال تقييمات نقدية لمؤرخ انكليزي محافظ وتقليدي جداً هو (كينث كلارك) ويقارن النساء عندي، بمفهوم الفنان الألماني البرت ديورر، عن المرأة في الفن، والذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي. ومع أن هذا المفهوم

اليوناني الأصل سينتج لنا دمية وليست امرأة طبيعية، لكنه يضعه كمقياس لرسم المرأة ويحاسب الناس على أساسه، فيقع في خلل منهجي واضح مع أنه ليس الوحيد الذي يفتقر الى المنهج في هذه الكتابات الاستهلاكية عن الفن. فأنا، مثلاً، أحاول أن أبتعد عن المفاهيم النقدية الشائعة عن الفن، وبالذات المفاهيم الغربية، وأعمالي، عموماً، تتطلب نظرة مختلفة نوعا ما عن النظرة السائدة الى الأعمال الفنية المنتشرة في عالمنا، المتخلف فنيا، والذي يستهلك ما تنتجه أوربا بدون تمحيص، أي ضرورة فهمها على أساس جديد أو من زاوية أخرى اذا أحسنّا استخدام هذه العبارة.

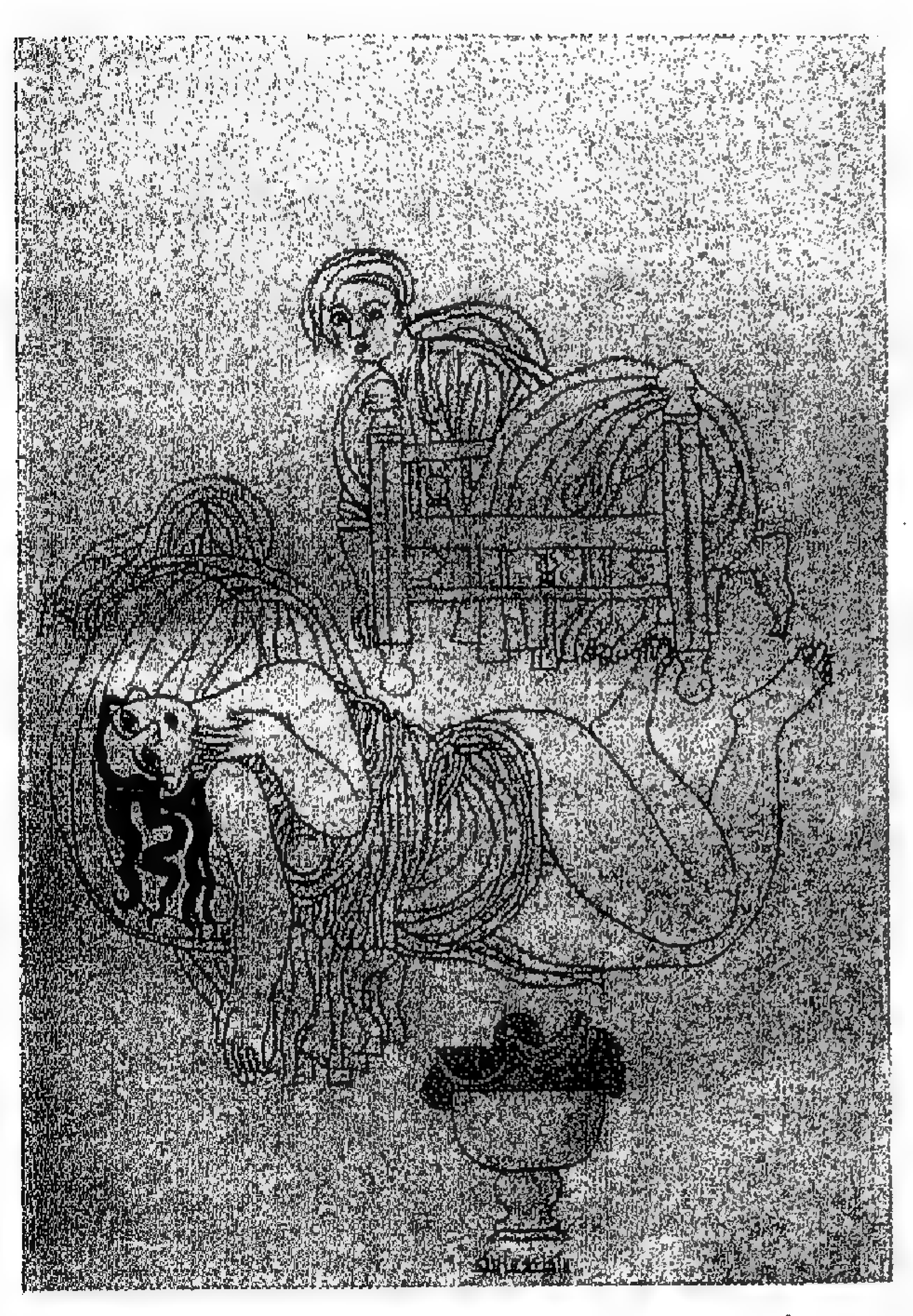


لقد سُئل ابو تمام مرة: لماذا تقول ما لا يفهمه الناس؟ فأجاب: ولماذا لا يفهم الناس ما أقول؟ أما وليم فوكنر عندما سئل عن نصيحته للذين قرأوا أعماله للمرة الثالثة ولم يفهموها، أجاب: أنصحهم بقراءتها مرة رابعة.

إن المعلومات الأولية عن الفنون لا تخلق ناقداً فنياً كما أن المعلومات الأولية عن الرسم لا تخلق فناناً، وهذه هي مصيبتنا مع بعض كتاب المقالات التي تعالج قضايا الثقافة والابداع ورسامي معارض السوق الرخيصة.

إن مقالة د. محمد صادق توضع في خانة المقالات التحريمية وتجر المطبوع الذي ظهرت فيه الى نفس الموقف مع الأسف الشديد، وهو موقف رجعي تماماً ومعاد للفن في

جوهره، فالكاتب لا يبيح الرسم عن الجنس ويصف المعرض بالابتذال والتحلل والبذاءة أيضاً، ويتهم الأعمال بأنها تمجد العلاقات الاقطاعية، مع أن المعرض مخصص لأدانة هذه العلاقات بالذات، ففي قرار تحريم تداول كتاب (ألف ليلة وليلة) من قبل شيوخ الأزهر نلاحظ نفس هذه التهم، بينما يعرف الجميع أهمية هذا الكتاب ودوره الفني والابداعي في الأدب العالمي والانساني، وكان على رجال الأزهر أن يُحَرِّمُوا القرآن أيضاً لما فيه من العبارات الجنسية والقصص الغرامية المعروفة وهي أيضاً تثير وتهيج أمثالهم، (انظر قصة يوسف، قصة لوط وبناته، قصة سليمان وبلقيس، قصة زواج النبي محمد من زوجة ربيبه زيد وحكاية الافك التي تخص عائشة أقرب زوجات النبي إليه، إضافة إلى عبارات، مثل «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» أو «النكاح» وغيرها من الأمور التي عالجها القرآن بكل جرأة، كذلك كتب الجنس والحب والغرام وقصص العشاق في تراثنا الجريء سابقاً). لم يجد «الدكتور» في رسومي غير محاولة تدجين لأعمال بيكاسو لا أكثر، وهو يكشف هنا عن جهله اذا احسنا النية وسوء قصده اذا نظرنا في عباراته بتفحص، وجردها من أي صلة بالتراث الشرقي والعربي ـــ الاسلامي، ولم ير في الاختزال الشديد والخطوط اللينة والحساسية الواضحة أو الألوان الموزعة بتوازن ضمن المساحات والأحجام أو الكتل وأهمل الانشاء التصويري المختلف ومسرح خيال الظل الذي أحاول الاستفادة منه ولا انتبه الى تأثيرات الواسطي أو جواد سليم، أو



الروح الجمالية الحديثة فيها، ولا تقاليد وانجازات الرسم العراقي في الخمسينات والتي شخصها بدقة في اعمالي فناننا محمود صبري، حيث اعتمدت عليها في محاولاتي هذه، اما اهتمامه بالموضوع فلم يكن أكثر من اهتمام من يراه رجساً من عمل الشيطان ليس غير، وهذه جهالة ملفتة للنظر.

لم يتكلم الدكتور عن الخط كقيمة فنية قائمة لوحدها، لم يلتفت الى كتابات الذين تناولوا أعمالي -للاطلاع عليها مثلاً- ككتابة استاذنا محمود صبري الذي كتب عن المعرض ولا الى كتاب غربيين يستمد هو شخصياً مفاهيمه الفنية من تراثهم الفني، أمثال الناقد الايطالي المعروف (جيوفاني كاراندينته)، الذي يعتبر واحد من أعضاء لجنة التحكيم الرئيسيين في بينالي فينيسا، او الناقدة الالمانية گابريل سبريكاث التي تكتب في المجلة الفنية الألمانية (ثاندانس) اليسارية الاتجاه ولا الى ما كتبه الناقد الانكليزي والمحرر الفني لجريدة (المورننغ ستار) اللندنية الفنان (جف ساوتل) عن الموضوع نفسه -وهم ليسوا من دعاة الرسم الشرقي بالتأكيد- ثم أهمل كتابات فنانين، أمثال صلاح جياد وحسن المسعود وضياء العزاوي وهاني مظهر، إضافة الى كتابات كتاب سبقوه في الكتابة عن الرسم أمثال الشاعر الراحل بلند الحيدري والكاتب زهير الجزائري والنقاد الساخر خالد القشطيني أو الاستاذ صباح سلمان، واخيراً، لم يسألني، حتى عن هدفي المثبت في نهاية الدليل، والذي أطمح للوصول اليه. لقد اكتفى بما لديه من معلومات وأضاف لها ما قاله (كينث كلارك) وما اقترحه (البرت ديورر)، ليقرر صلاحيتي الفنية، وابتعد عن القضية الاساسية في كل الفنون منذ القدم ألا وهي الهوية المحلية او الشخصية الفنية لهذا الشعب أو ذاك، ولهذا الفنان او ذاك، واكتفى بالهدف الحقيقي من كتابته ألا وهو «تحطيمي» وكأنني هدف عسكري للعدو على حد تعبيره الساخر عندما التقاني آنذاك، ولم ينظر الى الجهد المتواصل، والذي يمتد الى أكثر من ثلاثين عاما، حيث يشهد العديد من المؤيدين المختلفين معي في الاتجاه بجديته، وهو هنا يكشف عن أزمة حقيقية في المعرفة والنظر اليها، وينطبق ذلك على مجموعة كبيرة من العاملين في حقل الثقافة والفنون من أمثاله، إنها، من زاوية أخرى، الوجه الآخر للأزمة السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي نمر بها، مع الأسف الشديد والتي تجد لها حتى الآن من يسوقها لنا.

النقّاش الشعبي العراقي

فيصل لعيبي

الفنانة العراقية إنعام البطاط:

إنني أشعر بارتباط بكل الشخصيات النسائية في العالم

أجرى الحوار: نجم والي

لم تتميز في العراق ممثلة جدية بهذه السرعة، مثلما تميزت الفنانة إنعام البطاط. فبالرغم من إعتبارها ممثلة مقلة، مقارنة بالكم الهائل الذي كانت تقوم به زميلات لها، إلا أن نوعية العروض التي قدمتها الفنانة القادمة من الجنوب، وحرصها على العمل في نصوص غير تقليدية، وإبتعادها عن المساهمة في أعمال الدعاية المسرحية التي كانت تقدمها في مناسبات كثيرة الفرقة القومية للتمثيل التي كانت تشتغل فيها كموظفة، جعلها تصنع إسماً خاصاً بها، إذ نقرأ على حسابها الفني الأعمال المميزة التالية: «الإنسان الطيب» (فازت إنعام عن دورها فيها بلقب أفضل ممثلة ثانوية في عام ١٩٨٤)، «نديمكم هذا المساء»، «كليوبترا»، «تساؤلات مسرحية»، «ترنيمة الكرسي الهزاز» (فازت المسرحية بلقب أفضل عرض مسرحي للهواة في مسرح قرطاج السنوي لعام ١٩٨٧)، «دزدمونة» (فازت إنعام فيها بلقب أفضل ممثلة لعام ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠). بالإضافة إلى مساهماتها المتميزة في المسلسلات التلفزيونية المشهورة في وقتها مثل «شيء من الماضي» و «وجهة نظر».

يقيناً لعب إصرارها ورغبتها في العمل على خشبة المسرح الشعبي، المعروف في تقديمه الأعمال التجريبية والجريئة في طرحها منذ تأسيسه، على بروز دورها كممثلة واعية لما تقوم به، لم تكن إنعام ممثلة مسرح فقط، إنما هي صاحبة صوت غنائي يشهد جمهورها له بها مثلما يعترف نقاد الفن به «إن صوت إنعام البطاط بكل مافيه من رقة

وعذوبة وقوة تعبير وتأثير يؤكد أن مجدها الغنائي قادم» كتب الناقد المسرحي المصري نبيل بدران في مجلة آخر ساعة ذات مرة.

الفنانة الشابة إنعام البطاط المولودة في سوق الشيوخ في أواسط الستينات، والتي قضت طفولتها في مدينة الكويت، حيث أقامت عائلتها في دولة الكويت لأكثر من عشر سنوات، لتعود بعدها إلى مدينة طفولتها قبل أن تنتقل مع العائلة إلى بغداد بعدها، كان عليها أن تهاجر هذه المرة إلى منفاها، الذي إنتهى بها إلى برلين حيث تقيم الآن، لأنها تؤمن بأن الفن موقف، وفي بلد تغيب عنه الحريات، يصبح من المستحيل لها تحقيق ما تحلم به من مشاريع دراسية وفنية، ناهيك عن الشعور بنفسها مهددة يومياً من سلطة لا تستحي، آخر ما قامت به بحقها ـ بعد مغادرتها البلاد ـ هو إصدار القرار بإعدامها ومصادرة أموالها وإتهامها بالهروب إلى سويسرا، وإشهار القرار ليس في دائرة السينما والمسرح فحسب ـ حيث كانت تشتغل الممثلة ـ إنما في كل دوائر الإعلام الرسمية في بغداد.

في برلين كان لنا هذا اللقاء معها:

بوصفك ممثلة متميزة، كان النقد العراقي والعربي يشير إليها بالبنان، لانجازها تجربة مختلفة في نوعيتها عن زميلاتها، كيف تنظرين إلى تجربة إعدادك كممثلة؟

حيث لا احب تكرار البديهيات، لكنني أُرغم أحياناً وخصوصاً في اللقاءات الصحفية ـ أتمنى ألا يكون هذا اللقاء كباقي اللقاءات ـ أن أجيب على اسئلة، هي نسخة لكل اللقاءات الأخرى، لممثلين وممثلات أخريات، فاشعر بأن اللقاء معي، ممل و فأصبحُ أنا بالتالي مملة ـ أرجوك لا تجعلني أصبح مملة!

ولكن كيف يكون اللقاء مشوقاً، سؤال، لم أجد له جواباً... لست أهرب من السؤال... فسأجيب عليه مطيعة... كما تعلمنا في أكاديمية الفنون الجميلة، وفي دروسنا الجميلة التي تكاد تتكرر كل سنة، هو أن يقوم الممثل، بأداء تمارين جسمانية وصوتية معينة، طُبعت لنا في كتب، هذه التمارين، قد درّسها أساتذتنا في الأكاديمية، ثم قمنا نحن بدورنا بتعلمها... وكنا ـ شطّار ـ وتعلمناها... تمارين جسدية، تمارين إلقاء، تمارين صوت، تمارين موسيقى... ألخ، لست أنكر أن هذه التمارين مهمة لإعداد جسد وصوت الممثل، لكن ما يُزعجني حقاً، عندما أتذكر أننا تعلمناها لأنها كانت درساً، ولكننا لم نتعلم منها الفائدة، أعني، كيف لا يُمكن أن تكون هذه التمارين فعلاً، قاعدة يجب الإستمرار عليها وبشكل يومي متواصل. حينها أسأل نفسي لماذا لم أستمر على ماتعلمته حقاً حتى بعد

تخرجي؟ أو لأنني كنت ما أصدق أن أستلم شهادة التخرج وأركض لأصبح متفاخرة، ها أنذا خريجة أكاديمية الفنون الجميلة وبإمتياز!!... أنا ألوم نفسي قبل أن ألوم أي شخص آخر... وفي الفرقة القومية للتمثيل، حيث تعينت كموظفة بليدة، عليها أن تحضر كل يوم إثنين لتُوقع في دفتر كبير وُضع عند الإستعلامات، ثم نصعد معاً إلى كافتريا المؤسسة لنشرب ونأكل بعضنا بعضاً!!... وحيث نأتي بأزهى حُللنا وأجمل إكسسواراتنا، نعم فنحن ممثلات مشهورات ويومىء المارة لنا إعجاباً، ها هي الممثلة الفلانة... وطبعاً يأتي الصحفيون للتصوير واللقاءات المتكررة التافهة، ماهي أفضل ألوانك؟ ماذا تحبين من الأكلات، كم ثوباً تشترين في الشهر؟ ألخ ربما كانت هذه النمطية في وسط الفن قد جعلت الممثل العراقي يعتاد على أن يقتل وقته في عدم الفائدة ولكن ربما أتت بعض الأعمال المسرحية القليلة جداً التي أحسست فيها فعلاً أني أتعلم الآن التمثيل، حيث كنا مجموعة من الممثلين والممثلات يقوم بإعداد وتهيئة أجسادنا وأصواتنا للتمرين المسرحي ذاته، ولكنها لم تستمر... طويلاً، حيث أن معظم المخرجين يعتمدون الشكل البائس للتمرين المسرحي المعتاد، وهو قراءة النص جماعياً، ثم حفظه، ثم توزيع الحركة وحفظها، ثم الفرح بالملابس المسرحية ولبسها ثم جنرال بروفة ثم العرض المسرحي، ربما نملك تطوراً واحداً في أننا لانعتمد الملقن!... أتحدث هنا عن تجربة إعداد الممثل بشكل عام لأصل إلى جزء السؤال المهم.

دعني أقول لك، هناك جانب آخر من إعداد الممثل لنفسه ـ أعتقد بأنه أكثر أهمية وهو الذي صقلني أكثر ـ وهو جانب إعداد الممثل لحواسه وخياله ومشاعره ضمن إطار مجتمعه الذي يعيش فيه، حيث إنتباهة الممثل! كل ما حوله من أوضاع سياسية وإقتصادية وإجتماعية ونفسية... أي أن الممثل ـ واجبه المقدس ـ أن يكون مدركاً حقيقياً لهموم ناسه، حيث يشعر بآلام الجنود الآتين من جبهات النار والعائدين إليها، آلام الأمهات اللواتي فقدن أولادهن، النساء اللاتي فقدن أزواجهن، أحباءهن وأخوانهن، وآلام الفنان الذي فقد ريشته...

البلاد التي فقدت أبناءها ومثقفيها... كل مايلم بهؤلاء جميعاً ليس فقط من أحزان وآلام بل حتى من أفراح وطموح وآمال... ان إقتراب الممثل من كل تلك الهموم الوجودية المحيطة به والتعايش مع البشر ومعاينتهم وفهمهم كانت يُغنيه كثيراً في تنمية وصقل وتعميق لذاته، ومن مشاعر ورهافة حس، ناهيك عن حياته الذاتية هو. فكلما كانت حياة الممثل مفعمة بأفكار وحكايات وقصص معاشة تتجدد وتنمو، حياة فيها الكثير الذي

يصبح بالتالي حزيناً من تجارب ذاتية، تكون مصدرَ غنيً ينهل منه الممثل دائماً عطاءً لدوره أو الشخصية التي يؤديها، في الإقتراب منها وليكن حتى الإلتصاق حيناً. أنني ألخص التجربة الذاتية والمكتسبة بعمقها وليس بتسطحها هي أروع إعداد للمثل. . .

الا يلعب النص عن طريق علاقته المتميزة معك دوراً مهماً، ربما حاسماً، في تجلي شخصيتك على الخشبة؟

النص هو أساس كل عرض مسرحي، سواء أكان عرضاً حوارياً ـــ يعتمد الحوار ـــ أم عرضاً إيمائياً، فلا يمكن أن يكون هناك عرضاً مسرحياً دون وجود نص مكتوب، فالممثل لا يستطيع أن يرى نفسه في الدور الذي لايستند على قاعدة نص مكتوب بشكل درامي سليم وقوي. أن النص المسرحي هو الخشبة التي أمشي عليها. . . فحينما أقرأ النص للوهلة الأولى، لابد أن أشعر، بقوة الصلة بيني وبينه، حيث الفكرة، الأحداث، الشخصية وقوة بناءها، الشخصيات الأخرى، الحوار المكتوب واقترابه مني وكانني أنا التي كتبته. . . ثم منح هذا النص لي الإنطلاق في الحلم، التخيل، أعني ما يمنحني هذا النص ومن خلال حواراته وشخوصه وأحداثه بسرعة الإنتماء إليه. . . فإن خُلقت لحظة الإرتباط الأولى بالنص، فيعني هذا إشارة مفرحة أني أنتميت إليه، وحرّك حواسي وقدرتي على إستيعاب الأفكار وأساس ما تطرحه تلك الأفكار، ثم يأتي تأملي للشخصية التي سأؤديها، والشخصيات التي سأناقش الحوار معها، وهكذا يتطور الإنتماء للنص، على أنه العنصر الأول لخلق العرض المسرحي. أن قوة الشخصية المكتوبة بالنص تجعلني، أهيم بها وأغوص في داخلي إليها وبالعكس، إذ أنني أشعر بإرتباط مع كل الشخصيات النسائية في العالم بل والشخصيات الرجالية ـــ إن لم أبالغ ـــ حيث نشترك جميعنا، نحن أبناء الدنيا بهموم وعذابات وجودية ورغبات وأحلام. . .

نأتي هنا بالضرورة عن علاقة الجمهور بالممثل والممثلة، هل يضيف الى تشكل شخصيتها الكثير؟

كما هو معروف أن المتلقي هو العنصر الأساسي الثالث لخلق العرض. علاقتي أنا بالجمهور، هي علاقة بدأت تتعمق كثيراً في السنوات الأخيرة، في عملي إذ بدأت أدرك أن هناك علاقة مختلفة من جمهور لآخر. وإن سمحت لنفسي ان أقسم الجمهور إلى قسمين ــ من خلال تجربتي المتواضعة في المسرح العراقي، ويأتي هذا التقسيم ايضاً في إختلاف

الأعمال الأعمال التي قدمتها:

منها أعمال كانت تنتمي إلى عمل الفرقة القومية للتمثيل، وكانت أعمالاً شبه شكلانية أو تقليدية تعتمد الإسلوب الكليشي المعروف، رغم محاولاتي بأن أنفذ من التقليدية في أي عمل مسرحي أشارك فيه بإهتمامي وعملي الذاتي على الدور، وهذا الجمهور يأتي إعجابه بي كممثلة سُجلت على إسم الفرقة القومية للتمثيل وهذا يعني أنني معروفة، وربما قد عرفني هذا الجمهور من خلال الأعمال التلفزيونية أيضاً، فالعلاقة هنا تنشأ من الإعجاب بالوجه المعروف أو الإسم المعروف. أذكر حادثة بسيطة، لكنني لن أنساها. . . وأنا في طريق السفر من بغداد إلى عمان، حصل وإن عطلت السيارة التي سافرنا بها، لأن صاحبها، السائق الفلسطيني، قد إستعمل الإطارات القديمة كي يبدلها في عمان بجديدة ويعود لبيعها بسعر عال، يستفيد منه لإطعام أولاده المساكين الذين يتضورون جوعاً!! فقال، علينا أن نعرج على مسكن قريب منا يبيع الإطارات فسأبدّل الإطارات التي عندنا لأنها لن توصلنا إلى عمان. . . فقلنا: إفعل رجاءً. . . فادار العجلة وإذا بنا ننزل (ليلاً) عند بيت قديم أظلم، شحت فيه الكهرباء، في هذا البيت كانوا يبيعون انواع الإطارات لكل أنواع السيارات، ولكنهم للأسف لم يملكوا شرشفاً نظيفاً نجلس عليه. . .! المهم في الأمر. . . ان بنت هذا الرجل (أبو البيت) قد صُعقت عندما رأتني، فقالت: من أنت؟ أجبت ببساطة: إسمي إنعام. . . قالت وبخوف ودهشة مخلوطة برجفة أحسست أنها سيُغمى عليها، قالت: إنعام البطاط. . . قلت لها بإبتسام: نعم، أنا إنعام البطاط. فذهبت راكضة إلى الداخل، وجلبت معها البوما فتحته مسرعة وكأنها غير مصدقة فعلاً، كان البوماً يحمل صوري التي جمعتها واحدة واحدة من كل ما إستطاعت يدها الحصول عليها من الجرائد والمجلات التي كانت قد كتبت عني. . . وبدأت تقارن صوري في ألبومها ووجهي الذي أخافها حقاً، رغم ان ذلك صعب التصديق بالنسبة لها. . . وكررت، هل أنت هي فعلاً لا أصدق نفسي، وبدأت تلطم على وجهها. . . وكأنها لم تكن تريد ان تصدق حقيقة أن أنعام البطاط أمامها وتسلم عليها، بل أظنها ظلت متمتمة بأن كل هذا كان مجرد حلم ـ بعدها ذهبنا، وظلت هي في حلمها. . . أما القسم الآخر من الجمهور، هذا الذي كان يتابع أعمالي التجريبية التي كنت أقدمها من خلال فرقة المسرح الشعبي في بغداد، والتي أجد أنها كانت تقدم أجمل وأرقى الأعمال منذ نشأتها، رغم ما كنا نعانيه من مصاعب متعددة الأشكال والجوانب، فكان كفاحنا، ان نقدم ما هو جيد وكان هذا يعنيني أنا بالذات ـ ثم يأتي هذا من جمهوري أيضاً الذي كان يتابع أعمالي هذه ويحاسبني ويناقشني ويعجب

بي يصدقه كله. لا أذكر ان معظم هذا الجمهور كان من مثقفين وفنانين عراقيين وعرب ولايعني هذا أنه لم يكن من بينهم أناس إهتموا فقط بمتابعة مسرح يُعنى بفن حقيقي. وهم ليسوا بفنانين أو معنيين بالأدب. . . هذا الجمهور الذي يتفاعل معي ويخلق من العرض الذي أقدمه قصته الخاصة به، هو الجمهور الذي أحدث في داخلي تفاعلاً وتأثراً وخلق لي التواصل معه. . . مستقبلاً في التواصل معه.

ألا تؤثر الهجرة على عمل الممثل، طبعاً أعني منفاك بشكل خاص في هذه الحالة؟

الفنان يتنفس الحرية فإن أردت أن تقتله، إسلبه حريته. . . هذا كان حالنا في العراق. . . لقد عانينا من الخوف والرعب والمراقبة وكبح كل ما هو جميل في داخلنا، صعوبات شديدة وخوف من أن تودي بحياتك وحياة عائلتك وأصدقائك عندما تريد أن تقول شيئاً، ربما فقط لصدقك، وليس لأنك تريد البطش او التنكيل بالسلطة. كانوا يرسلون إلى كل عرض نقدمه على خشبة المسرح الشعبي ضابطاً للأمن، يطلب بعد كل عرض تفسيراً لكل كلمة يعتقد أنها محملة بمعاني أخرى، بل وصل الأمر أن يرفضوا مقدماً كل نص تعرضه الفرقة على رقابة وزارة «الدعاية» والإعلام.

وبدأ هذا الوضع القاهر، يسحبنا حتى درجة الإختناق، بل كنت أشعر في حالات كثيرة أنني وصلت إلى حد الشعور بالأنفاس الأخيرة، فلابد من التنفس لأننا نريد الحياة، فكان المنفى في المنفى (المنفى الداخلي). نحن أُغتصبنا من أرضنا إغتصاباً، لم نكن نريد ذلك المنفى اللعين.

لقد كتب الكثير من الكتّاب عن تجاربهم في المنفى. لم يفعل الممثلون والممثلات ذلك. ألا يحملك منفاك على كسر هذا التقليد؟

أود أن أشكرك على هذا السؤال الغريب من نوعه، أعني أنني لم أسأل سابقاً مثل هذا السؤال الجميل. . . أصارحك القول: أولاً انا لم أفكر في هذا سابقاً. ثانياً: إن كتب الكثير عن تجاربهم فهذا لأن مهنتهم الكتابة، فهم يكتبون قصة أو رواية (كما تفعل أنت بلاشك) فلابد وأنهم في كتاباتهم يستقون ما يكتبون من تجاربهم الوجودية وذواتهم، فهم يكتبون بالتالي أنفسهم أما أنا كممثلة فأسجل كتاباتي على خشبة المسرح. في العرض المسرحي اكتب نفسي، اما أن أردت ان اسطر هذا في كلمات داخل كتاب، ربما سيكون من الأفضل لي أن أصوره بشخصية ذات أفعال تدخل أحداثاً، تتفاعل مع حوار. . . هكذا أجده

أجمل لي وأكثر خيالية. . . ثالثاً: أصدقك القول، أنني لا أحب الحديث عن نفسي، ولا عن تجاربي لأنها مازالت ناقصة، لأنها كانت تجارب إجتمعت لتخلق لي تجربة جديدة سأخوضها غداً، أو سأقوم بالأستفادة منها لأقدمها لك. . . فإن كتبت عن تجربتي السابقة، لابد لي أن أكتب عن اللاحقة وهكذا، سوف أتحول إلى مؤرخة لتجاربي الشخصية التي لا أتمنى لها أن تقف عند حد. . . رابعاً: لايعني هذا أنني ضد الفكرة. . . ربما سيكون مفيداً لو كتبت عن تجربتي في المسرح، من باب أن أسجل ما مر بي لكي يستفيد منه الآخر الذي بدأ خطوته الجديدة، ولكنني أحتاج وقتاً آخر، ربما أجد أن تجربتي المسجلة في كتاب ستفيد الآخر. . . ولكن لكل رأيه الخاص. . .

أين مواضع الإنكسار والسمو والإحباط في شخصيتك كممثلة؟

انا أكسر عندما ارى معوق حرب. . . وأسمو عندما أمنح حريتي الإنطلاق وأنا على المسرح وعندما أُحب! وأُحبط عندما أتذكر أنني بعيدة عن أمي. . .

على مدى خبرتك المسرحية هل تكونت عندك معرفة عن المسرح العربي والأجنبي؟

لقد شاركت في عدة مهرجانات عراقية ومهرجان قرطاج العربي في تونس، وإلتقيت بالطبع مع فنانين عرب، ورأينا أعمالاً كثيرة، ربما لم تكن هي المُنتخبة، التي كانت تأتينا. . . ولكن البعض القليل منها كان يُفرحني كثيراً كمسرح فرقة المسرح الجديد في تونس، وهناك فرق أخرى منها لبنانية ومغربية، ويؤسفني انني لم أر عملاً سورياً مثلاً. . . ولست أدري متى نتخلص من تسلط السياسات العربية على فننا، فطالما هي تعمل كرقيب وكسجان لحريتنا، فلن نستطيع أن نبعث فننا من محليته إلى عالميته. . .

أما بالنسبة للمسرح الأجنبي، فالإختلاف ولابد أن يكون واسعاً، إذ أن الإختلافات تبدأ من كافة الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فهم يعملون بحريتهم المطلقة، وهم يمنحون أنفسهم لمسرحهم دون معوق سياسي أو ديني أو إقتصادي أو إجتماعي وهذا مايجعلهم يتفوقون علينا في الإمساك بجوانب عديدة تمنح المسرح عندهم سمة متطورة، حتى لو كانت فوضوية وأعني بالذات انهم يبحثون دائماً في الإحتراف، اي بمعنى التمكن من وسائل المسرح، الممثل، المخرج، المؤلف، الديكور، والملابس والإنارة والتقنيات الأخرى. . . ولا تنسَ ان المجتمع الأجنبي (الأوربي بالتحديد) ينظر للفن نظرة راقية، بل ويعتبر الفنان عندهم، على المستوى الإجتماعي، والفنان في أوربا بالتحديد ـ

لأنني اعيش فيها ـ عنده مجالاته الواسعة في التعلم فلو أراد أن يتعلم أي شيء يستطيع وبكل بساطة. مثلاً إن أراد أن يتعلم فناً من فنون الرقص الكلاسيكي أو الشعبي، فيستطيع الممثل أن يكون له خبرة خاصة به في تقنيات الممثل لمختلف الأدوار. . . فهنا المجالات واسعة جداً لتطوير موهبة الفنان. . . أنا احسد كثيراً الممثلات هنا، لأنهن أخذن فرصتهن في تعلم الكثير. . . واشعر أنني فاتني الكثير، ولكن هذا كله جعل عندي حماسة جيدة لأتعلم الأشياء التي كنت أتمنى أن أتعلمها قبل عشر سنين، لو حالفني الحظ. . .

أوربا التي قادك منفاك إليها هي مكان مختلف يتحرك في جسد الممثل. كيف تنظرين أنت إلى حركة جسدك كممثلة وسط هذا المحيط الجديد؟

حركة الفرد في أوربا تأتي من حركة العصر كله، فكل شيء في عجالة، بحيث ينتهي الوقت بشكل سريع، فأنت تقضي بعض حاجاتك اليومية، ولابد لك أن تحمل الكثير من الأوراق والأكياس، الأوراق لتملأها وتبعثها إلى دائرة يومية والأكياس تتسوق بها في الطريق، لأنك إذا أردت أن تتسوق مثلاً عليك أن تمشي مسافات ليست بقريبة، لذلك لايحتاج الفرد الكثير من الرياضة، لأنه يمشي كل يوم مسافات لابأس بها. . . وهذه الحركة السريعة والكثيرة، تمنح الجسد مرونة ونشاطاً، لكنها تمنحه في الوقت ذاته الشتريس. أو ما معناه الضغط النفسي، لما يتراكم عليه طوال الإسبوع، حتى أنه ينتظر عطلة نهاية الإسبوع بفارغ الصبر لكي يهرب بعيداً عن المدينة ويرتاح من ضوضائها، وسرعة إيقاع الحياة فيها، ليرتاح قليلاً في هدوء. . . حتى يستطيع أن يبدأ بالحركة ذاتها في الإسبوع القادم. . . وهكذا دواليك. بقي على الفرد أن يعرف كيف يتمتع بالوقت الذي يغتصبه إغتصاباً. . .

كل المقالات التي كُتبت عنك من قبل نقاد المسرح، عراقيين كانوا أم عرباً، تتحدث عن فرادة صوتك الغنائي، وهو ذات الإنطباع الذي تحصلت عليه شخصياً، بعد عرض مسرحية «ترنيمة الكرسي الهزاز»، التي يقيناً انقذها صوتك الجميل من ضعفها الإخراجي وجعل نصها يملك عمقاً ويقتل الملل الذي سببته إحتفائية إخراجية ساذجة. بالرغم من ذلك لم تسمع لك شريطاً غنائياً. ماهي حكايتك مع الغناء؟

أيها الصديق؛ أنت تؤلمني قليلاً، حينما تُذكّرني باشياء ابتعد أحياناً عن مناقشتها مع نفسي. . . أليس ظلماً أن تكون صاحب موهبة فريدة، ويسحقها الآخرون. . . ولكنني

سعيدة إذ لم أمنحهم هذه الفرصة (فرصة أن يسحقوني). لقد بدأت بالغناء منذ كنت صغيرة، بموهبة عالية في المدرسة، في الشارع، ومع نفسي، كانت المعلمات يسرقنني من الدرس أغني لهن أغنية، يستمتعن بها ثانية... وكنت لا أفهم هذا. ثم كنت نشطة وأحب ما أمتلك من موهبة في الغناء أو التمثيل، ولم أدرك ذلك حين كنت صغيرة... في دراستي للفن المسرحي، ظهرت موهبتي في المسرح واستقبلني الجميع بحماسه عالية وأهمهم المخرجون في الأكاديمية... كان امتع الأشياء بالنسبة لي... إذ أن الغناء كان جلاء لنفسي.

عرف هذا أحد المخرجين فإكتشف موهبتي وسعى لاخراجها في المسرح الأكاديمي وغنيت بفطرتي دون أن أعرف ماهية الغناء أو الموسيقى... كان كل شيء رائعاً في العمل المسرحي، وبآخر وبآخر، إلى أن وصل إلى آذان الكثير أن هناك في العراق صوتاً ساحراً أكتشف، سجل هذا الكثير من المخرجين والنقاد الصحفيين في كتاباتهم... لكني طول الوقت وأنا أشعر بخوف عميق، لست أدري لماذا كنت أخاف كثيراً، فقد أصبح الخوف يعيش في داخلي... ضمناً، وصلت الأخبار إلى آذان الملحنيين العراقيين المعروفين، أن هناك صوتاً نسائياً عراقياً نادراً... فإذهبوا لتستغلوه، إذهبوا ليصدح وينادي بإسم «القائد»، كنت أكره هذا الإسم ومازال... كنت أخاف أن يستغلوني فعلاً... قد أصل إلى نقطة ضعف كإمرأة تلاحقها لعنة أنها متميزة... أو تملك شيئاً مختلفاً عن الأخريات...، وكنت أراوغ بلطف وأرفض ان أصبح مغنية... أنا لست بمغنية... أنا ممثلة...

لقد درست التمثيل، ولابد أن أبقى ممثلة، الغناء ليس مهمتي... كان في داخلي رفض صارم وحازم أن أصبح مغنية، كالباقيات اللائي يركضن وراء المال والشهرة، مهما كانت الطريقة (الغناء في الملاهي مثلاً)... كنت أرفض وكلهم يتساءلون. لماذا لا تغنين يا إنعام، هذا حرام، هذا ليس إنصاف، إنهم لا يعرفون الإنصاف حقاً... أأصبح مغنية ليأتي ضابط أو تكريتي ليقودني إليه بكل سلطته، لأصبح تحت سيطرته ولا أحرك ساكناً ولا أستطيع التنفس... نعم سأكون هكذا لو بدأت فقط بإغنية واحدة، فلابد أن أغني لأصحاب السلطة اللعينة التي أحرقت نخيل العراق، والسلطة التي قتلت فيَّ أشياء جميلة، أخذت مني الأصدقاء، والأحباب ورائحة التراب في أرضي... فكيف أغني لهؤلاء؟... كان علي أن أنسى إمكانية أي غناء جاد... أن أبطل حلمي بنمط من الغناء يشبه صفاء غناء فيروز أو عظمة غناء إيرين باباس... كلا ليس هناك مجال للإثنين في بلد مثل العراق... فخرجت أنا، ثالثتهن... أقول ثالثتهن لأنهن مثال أعلى لي ولست أقول ذلك مقارنة نفسي بهن.

قصة قصيرة

المستوحشون

جنان جاسم حلاوي

في تعاقب ثقيل، وبطء غير محسوس، تدور دوّامات من غبار أصفر دورات هائلة تسحق في تجبّرها وقوّتها الجاثمة سماءً تخيّم على المدينة، فتغمرها بأوشحة ترابيّة، ترقص في طيّاتها كرات نقّاش حول محاور وهميّة في الفضاء.

كان الغبار يهبط طبقات. . . طبقات: على الرموش، على زغب الشفاه، على مشبكات الشرفات، ودكّات المخابز، على خوص النخيل والمياه الراكدة، ناكثاً ذروره رويداً رويداً على الشواخص والمتحرّكات، مغرقاً تفاصيل البيوت البعيدة، والنخيل والجوامع في أثير عجاج يحيلها أشباحاً وشواهد ممسوحة الأجزاء تندرس بالتدريج لتصير مجرّد ظلال باهتة، مطحونة تحت وطأة سدم صحراوية. لوّثتها أبخرة البحر وأهوار البصرة ومستنقعاتها.

كان ذلك النهار الصحراوي ميتاً في (محلة نظران) حيث أغلق السمّاكون أبواب بيوتهم، وسدّ سادن (مقام الخضر) شبابيكه، الملبوخة بأكف محنّاة، وغادره، ولملمت عجوز غسيل الملابس في الطست وأنزلته إلى الداخل، ومياه نهر العشّار تنحسر فاضحة قاعاً مكتظاً بصفائح دهن «الراعي» وأشلاء من أطارات السيارات والأنعل وجذور نخليّة مختنقة متآكلة، ودمى مشوّهة، وحدائد علقت بأطرافها أشنات طحلبيّة لزجة، أطلّ عليها عابر لفّ رأسه بكوفيّة حمراء، من فوق جسر نظران وبصق في الماء، ثم حثّ خطاه صوب الساحة المتربة، واختفى في ضباب الغبار.

قبالة دكّان بائع قزم، وداخل بيت يكاد يكون متميزاً في طابوق واجهته المنجور وبابه ذي القبضة النحاسية، الذي ينفتح على باحته غير المسقوفة.

وقف رجل أشيب أمام غرفته، ونظر إلى السماء، ثم تفحّص أبواب الغرف بعينين نصف صامتتين، ملاحقاً دقائق الغبار، إذ ما أن تنفذ إلى الحجر من الشقوق، فيحسّها تستقر على الكنبات والستائر وعلاّقات الملابس، والملابس ذرة... ذرة...

بينما كانت كرات النفّاش متموّجة في خلاء الحوش، فتلتصق بحسّاسيّة بين أشواك «الكمبار» المطوي في أحد الاركان، أو تتدحرج قلقة بشعيراتها النجمية على ستارة «الروشنة» ثم تطير، فجأة، في هبّة هواء دبق. بان النفّاش اللاصق في الأرجوحة المهجورة، جنب السجاجيد، والمتطاير، حينها، في الفراغ مثل حشرات أعماها التراب، وأثقلت أجنحتها حبيبات الرمل. اصطاد الرجل كرة نفّاش علقت بشعره ثم قرّبها من فمه، أراد أن ينفخها في الهواء، ولكنّه رفع يده وأطلقها إلى العلاء بحركة نزقة.

لم يكن نزقه وليد حاجة مفاجئة فهو ليس متضايقاً إلى هذا الحد من ذلك النهار الفظ، رغم أن حرارته قد استفزته، حتى أنه بدا في وقفته، مثل رجل سرقت آماله وأمانيه تلك الكرات الملعونة وطارت بها.

طرق الصمتَ صوتٌ كان صوته، ولكنه كان بلا نبرات إلا من بحّة كادت أن تضيع في وشيش العاصفة، التي مازالت تصر على تطويق الجمادات بغلالات طحينيّة من هباب الصحارى.

ــ أشم رائحة مرض... الطيور مريضة!

أجابه صوت زوجته المخنوق في جوف المطبخ متسائلاً:

ــ ما بها؟... مريضة؟

ــ الجدري... ضربها الجدري.

عاد الصمت إلى الحوش، مما زاد في إحساسه بالمرض الذي تنقله الذرّات الدقيقة في مويجات الهواء، ولكن من يستطيع مقاومة غزوها؟ وهل يطيق أسرابها المريضة وهي تلوث ملابسه بترياقها لتجدّر جلده. كان يحس بمستعمراتها السود، ورائحتها المهوّمة تنسلّ عبر شرفات السطح إلى أرض الحوش منقضّة بوحشيّة غدّارة. تحرّج قليلاً مما سيقول ولكنّه قال، وربما كان قد صرخ لأنه لم يكن يجرؤ على تصوّر كل ماسيقوم به.

ــ سأحرقه... سأحرق برج الطيور!

ــ حسن... أحرقه.

كان وهو يقرر ذلك يتابع من طرف خفي ابنه «حيدر» في «الرازونة» خلف كيس الرز. كان حيدر يتطلّع فيه أيضاً غير مصدّق أن أباه سيحرق الطيور! سيحرق الأورفلي، والأشعل، والزاجل، والصخري، والشمعي، والهنداوي، ان ريشها سيشتعل ويذوب في اللهب، سوف تهدل وتنوح، وبثور الجدري تنفقىء في مناقيرها، في الأعواد اللاهبة ألما! سوف تصرخ، ولكنها ستموت بعد أن تتعذّب وتلتاع!... حملق الصبي بفزع باكٍ في عباءات الغبار النائم على بلاط الباحة، ودسّ جسمه أكثر وأكثر خلف كيس الرز. ودفن رأسه في فتحة الكيس علّه يتحوّل الى حبّة رز، أو يتفتت غبارا، يتبدد في شواسع العاصفة.

ـــ حيدر... صاح أبوه!

ردّ حيدر بضعف: هاه...

ـــ تعال معي!

تبع أباه إلى السطح، حيث الفضاء أرحب، والعاصفة أشد، حيث تحوّلت بيوت المحلّة إلى ثغور دخانية، حددتها أسيجة طينيّة ضُفرت بالقصب، وشظايا جذوع النخيل وصفائح (تنك) ساحت الحرارة فوقها بشعاع وامض مالبث أن مات، والأسرّة الفارغة تجيش بصليل ينفلق عن صفير ربما يكون لكائنات هشّة تحملها العاصفة وهي تكنس الصحارى، والأهوار، ومحلاّت المدن المغبرة.

وفي وهجة ضوء ضارب، وسطعة نافثة لحرارة ضاربة، في غمرات سعير حام، فقد الصبي قدرته على التمييز، وغاص في بحران ارتياكات كادت أن تؤدي به إلى ردود أفعال عنيفة كأن يبكي، أو يرمي حجراً خارج السور، على الناس، أو يضرب أباه. حقاً!... كاد أن يموت من القهر وهو يرقب العاصفة تجتث البيوت، تصهر الجسور، وتطمر في التراب بقايا شمس بيضاء، مريضة... ثم فاحت عفونة حريفة لعلّها رائحة مرض قتّال، وتصاعدت ألحان ابتهالات ـــ كان قد سمعها من قبل ـــ مع دقّات كنيسة خلف تلال (محلّة البلوش) وتعالت صرخات مذعورة لسلاحف تتشيّط في صليات الحرارة الخانقة على ضفاف الأنهار، والجرادات الطائرة تصبح في بشاعة، وهي ترتطم ميّتة بجدران السطح، والطيور هنالك، تلك التي يعبدها، تحشرج مخروقة ببثور الجدري متوسّلة في همهمات ذليلة بقايا حياة، فيما ظلّت تتنامى في أجتياحاتها عاصفة الرمل المبخّر مصرّة على أغراق روحه بالسموم والبثور والمرض. سمع أباه يقول له:

ـــ حيدر لفّ وجهك بقطعة قماش، وأحضر صفيحة النفط.

ثم هزّه صوت رفسة عنيفة وتطاير ريش أحمر وزغب مع اندفاعة رائحة إلتاثت بالمرض. ناول حيدر أباهُ صفيحةَ النفط، ورمى بصره إلى بطن البرج وتراجع مأخوذاً، أدار وجهه المذعور إذ لمح طير الأورفلي، وقد شوّهت البثور المتقيّحة منقاره وأعمت عينيه حبيبات الجدري، أراد أن يصرخ بصوت باك:

ـ أحرقه يا أبي!

إلا أن رائحة الدخان ملأت منخريه، ولسعت خدّه لَهبةٌ فززته فيما راحت سورات النار تدق جدران البرج، والريش يتقصّف مع القش وأكوام الذروق والذرة، والأعشاش الصفيحيّة تتبعّج في النار وأكواز الماء الفخارية تتجمّر، والرفوف تتفتق ـ عن خنافس سود وسحالي، وعناكب رقطاء تتراكض، وتزحف في المحرقة لتموت.

كان حيدر يسمع في يقظة ساهمة: بحّات مختنقة لصدور امتلأت بالدخان وأقداماً تدب في السخام المشتعل، ومناقير تتفطّر في الرماد. أذاك الأشعل أم الهنداوي أم ذاك الشمعي هو أم الصخري يصرخ فوق الجمر ويحجل؟ أذاك طيف الأورفلي أم الزاجل أم ذاك طير البُتّة ينسلخ في الحريق متكّوماً في بثوره المجرثمة؟ أذاك الصوت هو عواء الطيور المجنون يرتعش في هديل زائل؟ أيسمع أبوه بكاءها، أيفهم صرخاتها؟

لماذا تموتين ياطيوري. . . لماذا؟

كادت العاصفة أن تهدأ عندما ضؤل نور العصر، كما لم يبق أي أثر للحريق عدا رماد أنصال ريشات تناثر فوق بلاط الحوش. ليست سوى الظلال الآن تشيع في النفس سكينة لاتخبيء أمرا طارئا أو أية مفاجأة، غير أنها ماكانت إلا نذيرا لحيدر كي ينطلق صوب ملاذ يحتمي به من الوحشة والجمود.

إن تلك الهُنيهات إنما كانت فترات قلق، وتوجّس تجعله يتردد كثيراً في أن يتصرف كما يبغي، لذا فانه يتحوّل إلى مايشبه الحوّامة، يلبد هنا، أو يتأرجح في الأرجوحة، أو يتعلق بدرفات باب المجاز، ولكنه في النهاية يقترب من أمه المشغولة في الطبخ ويقول لها:

ـ أريد سكّرا!

ـ لم؟

ـ للطاووس

ـ خذ قليلاً منه. . . في «الشكردان»

في الغرفة المواجهة للمطبخ، فتح حيدر كتاباً أصفر الورقات، ناثراً بلّورات السكّر

بين طيّاته، نافخا برقّة، ورهبة سطح ورقة شفّافة، التصقت بأنامله، حتى إذا قلبها شعّت تحتها ألوان قزحيّة، موّجتها ريشة حريرية، بقدرة سرّية كامنة، كأنها رفرفات طيور رجعت صداها عبر عصور غابرات: ريشة طاووسية يخفق قلبها بالأزرق والشذري، والأسود، تقطر ضوءاً، وسحراً، خلّفته وقائع نورانيّة منسيّة.

عاد فموّج ذوائبها بأنفاسه، تنافر زغبها، خبا منها الألق، ثم فاض في تشكيلة لونيّة، أقواسا، ودوائر زرقا رصّعتها اشعاعات نجميّة متسارعة، نفذت عبر أنامله، فشعر معها بقوّة طمأنته بحمايتها، وكأنه في حرز غريزي من أطياف هجس كوكبتها، تهمس خلف سجّادة معلّقة على الحائط ساترة روشنة، فارغة، منادية تلك الجسيمات الهابطة مع الغبار كي تحكي لها عن عيون طيور مجدورة، وأجنحة تعط بالنفط والشواء.

شال الريشة برفق، وهشّ بها الأشباح، وظلال السجّادة، والأريكة، والدقائق الطائرة، والأطياف الراقصة كالوطاويط في أنثيالات الغبار، ثم دفنها بين الوريقات الصفر ونثر فوقها السكّر، وردد بصوت خافت:

ـــ كل يا طاووسي، كل حتى تكبر. . . كل يا طاووسي!. . .

وحده كان، وريشة نائمة بين الصفحات، والسكون في الغرفة مالبث أن صار مريبا، السجّادة تقفل على طلاسمها في العتمة، مطلقة شراشبها مدلاة مثل مجسّات عدائية.

أغمض عينيه، ثم فتحهما على كون أظلم، مسكون، أقتحم ذاكرته بالعجائب، المرئيّات: طناطل بيض، وسعالي مشعرة، وأشباح شفّافة تغيّر أشكالها، وعفاريت وجن تلصف أمواقها الطولانيّة كالقطط. . . ثم أغمض عينيه إذ ما توهّج ضوء خفي لثريا طرّزت فوق قبّة حمراء، مقرضنة، وسط السجّادة، اشتعلت داخلها مجمرة، شقّت في الظلمة باباً من نور ونار، فضح حركة الأطياف الصاعدة، الهابطة، العابثة، الساكنة، والهاربة من الضوء إلى الظلام، والقافزة فوق الجمر، والمحلّقة في السقف، وهي تطل من فطر فيه إلى الغرفة بخبث وولع.

المساء يستحيل ليلاً، والليل كهفاً تطرقه الأقدام، «المحنّطة»، والرغبات الحبيسة، والأجساد المائعة بنزواتها الجبانة، والوجوه المخاتلة، والعيون الحذرة: كهفاً للمنزوين والمطرودين، والمنبوذين والتائهين، والذين أنفقوا حياتهم في الغرف المعزولة، كارهين ومكروهين، تلمّس حيدر الصفحات، ثم رفع الريشة أمام الكهف، أمام حلقة النار وواجهة الخلائق ـــ التي كشف عنها برق اللّهب حركاتها، وعلائمها، وطوالعها المطموسة ـــ بحلقة الالوان القزحيّة المريّشة، وتمتم:

ـ ستكبر يا طاووسي، سأطعمك سكراً كل يوم. . .

تجسّمت زخارف السجّادة وحواشيها، ثم ما لبثت أن انفصلت عن النسيج في رعدات الضوء، وتساقطت مثلّثات، ومربّعات، وأهلّة، ونجوماً، وأهراماً، وصلباناً، وأفرع أغصان. ساحت ألوان اللهب من الثريا فوق القبّة المغروسة في قاعدة حبلى بتعريشات نباتيّة: ثريّا معلّقة بخيوط منمنمة، شاهد في بلّوراتها السحريّة وجوه أولاد يضحكون عليه، وأحصنة تغرق في (شط نظران)، ونساء يبكين في (مقام الخضر)، وأعراباً يحملون السكاكين والقامات، وامرأة تحمل دلواً مليئاً بالنجس لتلقي به على القزم علاّوي. رأى القتيل حسين مقطّع الاوصال، والمشلول جبّار، والأسود خميس، رأى علي ظاهر يصطاد الضفادع، وعلي الأعرج يلقي بنفسه في شط العرب، والعاهرة حسنة تصفع أحد الزبائن، والمستورة عوّاشة، والمضمّد مظلوم مفروماً تحت عجلات سيّارة مسرعة، رأى الشقي ستار يطارد ثعباناً في بستان محمود، والمجنون رزّاق يظهر عورته للناس، رأى مدرسة النبراس بمراحيضها العفنة، وأباه يشاجر النذل «سعد فختاية» حول طيرين من طيور الهنداوي، وعباس يسقط من أعلى نخلة «ساير» في بستان «ساهي»، وكلبا قاوم السم طويلا ثم كشّر قبل أن يفطس. . . رأى رعبا وموتا وحريقا قبل أن ينفرط النمنم، وتتفتت الثريّا على القبّة الماثلة فوق الأشياء المبعثرة، التي داستها أقدام هاربة دمدمت مع طقطقة أحجار القبّة المنهارة، وحفحفة الاجنحة، وضربات خفيّة لأيد تلطم الجدران، وأثواب أطياف تهفهف، تدخل، وتخرج من الغرفة، ودقّات قلوب مفزوعة، وضحكات قبيحة تعبث بالزخارف المتشظيّة. . . ثم رابته حركة أنسي كلّمه بغموض، همس في أذنه لابدا في الظلام، عاد فجرّه من ثيابه ثم أختفى مع مجسّاته المبلولة، ربّما كان شبح أمه أو أبيه، أو صورة رجل رآه قرب دكّان علاّوي القزم: كل شيء بدا حلمياً حينما التفّت اللوامس حوله، وقاده ذلك الانسي ــ الذي تأكد أنه أخوه الصغير الذي مات بالفالج منذ عامين ــ خارج محلّة نظران عابرا به مقام الخضر، وبيوت «الجديدة» وأزقّة «الصويلات» ودرب «الشوك» ومحطة السكك المهجورة، عابرا به دار العجائز ونهر «الخندق» وبساتين «صبخة العرب»، ليعوفهُ في مكان ناء أجرد تحت سماء أرجوانية، هناك على جرف صخري يطل على ساحات مائيّة، يحلّق فوقها طائر لايكاد يُرى، يترنّح قلقاً، في ركود الأفق، وحده هناك: بين الصخر، أمام الماء، تحت الأرجوان، مع ذلك الطير البعيد، راح يتحسّس خطواته بين ثلمات منحدر، زلق، متفاديا عاصفة توشك أن تهب. . . ها أنها الأمواج قد ألقت سمكاً ميتاً على الجرف، وذلك هو الأرجوان قد أصفّر، ومخاريط الحجر

تقاوم زحف المد، مودّعة غيوما مزّقتها ريح بدأت تجن، والزبد يرغو في تيجان صخور لاحت مثل وهم مفضوح إذ ما تفتّقت بيوض الطيور، فيها، عن ديدان «أبي الزّمير» والسماء، خلفها، عن هياكل آدمية تتراكض مع الغيوم، وجيف الأسماك، بين شعابها، عن «زوريّات» بططت زعانفها الأصابع: كل شيء بدا خيالياً، وقد تناثرت على صفحة الماء المستولية على نصف السماء: أوراق آس، وحبّات نبق وبَمْبَر، وأغلفة طلع يابسة، وأوراد جت، وليف جمّار، وجثث «بازنينو»، مع قحوف طيور مجدورة، وريش أجنحة ملّوث بقيح مرضي، حتى صك سمعه هديل مخيف لطيور تساقطت محترقة من ثقوب تنّور سماوي، فسحقتها زخّات الرماد، والغبار المتشيّط.

أليست تلك غرفته التي يتفجّر فيها الماء؟ أليست تلك (محلّة نظران) التي تتساقط فوقها أشلاء الطيور؟ أليس ذلك المساء كان أرجوانياً؟ أليست تلك هياكل أبيه وأمه والقزم صاحب الدكان وأخيه المفلوج وعلي وحسين وراضي ومصطفى؟ وتفجّرت مع الانفجارات المتتالية دوّامات المياه، وهبّ من جوفها طاووس جبّار، تطاير السمك من حوله، وتناثر دم أنسي من أشباح أخذت تصارع بالرماح الطيور الهائجة، والحيتان الجريحة، والخيول المجنّحة، والسباع البحريّة، انبثق طاووس مثل دخان تصاعد من قمقم، فغطّى ذيله الأسطوري الجبال والهضاب، وطعن منقاره هالات النجوم، وتصارخت من حوله المخلوقات، وغرزت الأشباح مناجلها في بطون الأسماك، ونهشت الحيتان ظهور رجال غرقى، واشتبك الأزرق المائي، بالأحمر الدموي، بالأخضر، بالأصفر، باللازوردي مرصّعا منطقة الأفلاك السماويّة بأعظم الوقائع عن: دماء جرت، وطيور أُحرقت، وشمس خبت على سعفات النخيل، وفجر ضمر فوق المروج الغبشيّة: عمّا سطّر في كل الأسفار، والأوراق المبيّنة في ذلك الكهف الذي تموت فيه الطيور والأسماك، مع البنات البواكر، واليتامى، والبحّارة، وبائعي «دك السبال»، والزنوج، والفلاحين المصابين بالبلهارزيا.

زعق الطاووس، وفتح منقاره كأنه يموت، فحبيبات الجدري قد فقأت عينيه، وبثوره جرحت باطن جناحيه، وخرمت حراشف ساقيه، وخربت منابت ذيله، تهدل ريشه الملوّن في ندى العاصفة، ثم انهارت جثته على متاهات سيول وحشية، وغاص إلى الأعماق.

كانت الغرفة مظلمة تماما، لاهمسات، لا حفيف، لا أصوات. كان السكون متّحدا مع الأشياء، حتى طقطقات أمه في المطبخ، ونفثات أبيه الذي هو بكل تأكيد منكمش كعادته في الأرجوحة، بدت متناغمة مع الليل. حبا حتى الباب، ثمّ تلمّس شيئاً زلقاً تحت أصابع

رجله، فوجده ريشة أحد الطيور: دفعتها الريح إلى عتبة الغرفة. . . أحس بالوحشة حينما رأى أباه في الليل يتطلّع إلى نقطة ما في أحد الرواشن، متيبسا.

أمه الوحيدة التي بدت حيه تماما وهي تقترب منه. . قالت له:

ــ ها حيدر، ماذا بك؟. . . نعسان؟

ــ لا!

أضاءت نور الغرفة

ــ سأدع أباك يجلب لك طيرين من سوق الجمعة!

ــ ما أريد!

خرجت دون أن تطفيء المصباح، تسلل النور إلى باحة الحوش، فكشف فضاءً مكتظا بكرات نفّاش تتدحرج على ستائر الرواشن، وأفاريز الشبابيك، ودرفات الأبواب، لتلتصق بملابس أبيه، وبأغطية الأرجوحة، وسلال الثوم والبصل في كوى المطبخ.

وشيشٌ عاصفة أخرى يشرخ شيئاً ما في السماء. . . فيما كانت دوّامات الغبار في الخارج، فوق المحلات، وأسطح البيوت، وأبراج الطيور تدور دورات هائلة تسحق في تجبّرها وقوّتها الجاثمة قبّة مظلمة تخيّم على المدينة. . .

كان الغبار يهبط طبقات. . . طبقات: على الرموش، على زغب الشفاه، على مشبّكات الشرفات، ودكّات المخابز، على خوص النخيل، والمياه الراكدة ناكثا ذروره رويدا رويدا على أرواح ناس هائمين كأنهم قاموا توّا من قيعان أنهر البصرة العتيقة. . . فَجّوها في صوت عاصف وخرجوا إلى العراء مستوحشين.

ـ من مراحل الراحل ـ

«مثنويات ورباعيات عربية»*

كريم الأسدي

مرَّ كان الشيبُ نقّاشاً وكان العرسُ أزرق**
مرَّ ما مرّ ولكنّ المدى في العينِ حدق..

***

كلما صكَّ عليه الدربُ بابَهْ
لبس الماءَ ثياباً
وامتطى الماءَ سحابَهْ

***

شبقاً كالماء كان
ومكاناً في إناء
وإناءً في الزمان

***

اشعل النارَ على أرجوحة العمرِ وطار
عابراً في النارِ من نارٍ لنارَ

***

صوتهُ ظلٌّ وتحت الظلِ روح
جلستْ فرحانةً بين الجَروح

قلبهُ ما قلبهُ
سعفٌ قد غسلتهُ الشمسُ بالشمس
مساءَ البارحة
ومضت فيه الى الريح
خيولٌ سابحه

***

كان نبعاً من سماءٍ سابعه
وأحاديثَ براري
كان منقوشاً على أروقةِ العرش
وأجسادِ الحواري

***

أينعت في دمهِ شمسُ خريف
رغباتٍ وازرقاق
ومضى فيه الرصيف
مبحراً نحو المحاق

***

* «مثنويات ورباعيات عربية» هي نصوص من مجموعة شعرية لم تنشر بعد اسمها «مراحل الراحل».

** النفّاش: هو مادة نباتية تنمو على ضفاف البحيرات والأنهار والجداول في جنوب العراق، تتناثر ازهارها البيض راقصة في الريح.

اعتاد النسوة والفتيات الجنوبيات ترديد اهزوجة شعبية في الأعراس مماحكةً ومداعبةً لأم العريس، واصفات شيبها بالنفّاش.. فاذا كان اسم الأم «بدرية» مثلاً رددن الأهزوجة كما يلي:

«شيبج نفّاش يا بدرية» أي «شيبكِ نفّاش يا بدرية»

وإذا كان اسم الأم «حسنة» رددن الأهزوجة بالشكل التالي

«شيبج نفّاش يا حسنه»

واذا كان اسمها لا يتفق والوزن وكان اسم ابنها «حمدان» مثلاً قلن «شيبج نفّاش يأم حمدان»

وهكذا في كل مرة يجري ادخال الاسم الى الأهزوجة بما يتلاءم والايقاع.

تماثيل الموت

هادي الحسيني

ـ الى سعدي يوسف ـ

١ ـ

لِيبقَ الصوت منبعثاً
من أجراس الرذيلة
يرسم شلل النوافذ
لتدخل عصافيرنا الرمادية
غرف النسيان
وتسعف الذاكرة
ذاكرة اللغة العجوز
الريح.. طير ذُبح أسفل الجبل
وتوّج الماء ملكاً على الألوان
الريح ذبحت قرباناً للأشجار المورقة من دمي
حينها أنتحرت المعادن في الأرض
حلقت بين غيم الرذيلة طائراً
حمل سر التكوين بين جناحيه

....

....

لأنني خلقت معادلة للوهم قرعت جدران الفراغ
لأكون افتراق الألم عن حسه
الليل يتوارى خلف حركة الحجر
والنهار يلملم حطامه المتناثر فيَّ
لقد ضاع وجهي
في أنسيابية الليل والنهار
ليعلو نشيد التراب وموج الصمت
خلال جدران الهواء
انتج معادلة النفاذ بقلبي
افتراق الألم عن حسه المستمر
الليل توارى عن حركة الحجر
النهار ودع حطامه وضاع
كما ضاعت المياه التي كنا ننتظر منها
بزوغ وردة التلاشي

٢ ـ

موج يطارد موجاً،
لون ينقض على لون،
شكل يبلع شكلاً،
فيكون شكلاً آخر،
البحر يتكيء على قلب العاشق المجنون،
متأملاً طيوراً فارّة الى العدم.

٣ ـ

قوة العقل هذيان ثعلب مغلوب
والقلب العادل يوتوبيا

نجم مفقود
لا طريق يؤدي إلى الحلم.

٤ ـ

التماثيل التي نحتت من ظلال المجهول
تتقدم نحو
كاتدرائية القلوب قسراً تضج الفصول
تضج الفصول بالنحاس
لكن الصوت سينبعث
وينحسر سبات الجدران السرية.

٥ ـ

الموت نقطة مضيئة في العدم
الحرب.. حوار الكائنات الخرافية
السلام.. زهرة تتفتح دائماً
أنت قوتي..؟؟؟

أغنياتٌ لنهر القلب

دلدار ڤينوس

بمحاذاة نهر القلب الممتد، من رأسِ الحزن لأخمص الغربة
ثمة مقهىً أبعد من ضوء الروح
فيه شاعرٌ يُطلقُ من مكامن وحشته،
ومع رحيل أواخر ذيول قرص الشمس،
أسراباً من النوارس التي ثملتْ بعشبة الخلود
والشاعر، بخميرة روحه، يصنع أرغفةً
وقواربَ للذين تنورسوا فوق نهر القلب
فتمايلوا مع جراحات الشوارع
والتقطوا من قاع المدينة ترانيم عشقٍ
كانت مخبوءةً
تحتَ «صُرَرِ» أحلام الراحلين

١٩٨٨

في لقاء مجموعة من مثقفي أربيل

أزمة الثقافة الكردية، على حافة العلاقة بين المثقف والسلطة !

حوار: عبد اللطيف السعدي

في الخارج، في الصحافة وفي أحاديث الناس في كل مكان يغلب اعتقاد ظالم عن الوضع في كردستان العراق حيث يؤخذ وجه واحد، من الصورة كلها. فكردستان صارت في الأذهان، تعني الاقتتال والنهب، والتهريب، والاغتيال والصراعات العشائرية والحزبية المنفلتة. بينما هنالك وجه آخر، من الصورة الواقعية لمكونات الوضع الكردستاني. هناك الناس، أبناء كردستان، الطيبون وهم الغالبية الصامتة الرافضة لكل الذي يحصل جهراً. هناك، أولاً وقبل كل شيء، مثقفون ومبدعون منتشرون في كل المدن الكردستانية يقاومون، كما قاوموا السلطة الدكتاتوريه طيلة سنوات سيطرتها وحتى انتفاضة آذار المجيدة، عام ١٩٩١ والهجرة المليونية.

مثقفون يصارعون، اليوم، أساليب شتى من الضغط، من ألوان الترهيب والترغيب، ليواصلوا قول الحق... لأكمال مسيرة إبداعهم ودورهم مع كل ماهو جميل في الثقافة العراقية عموماً او في ثقافات الشعوب المجاورة، وشعوب المنطقة والعالم أجمع. وأيضاً لتصعيد اسهاماتهم في الجهود الساعية لوقف الأحتراب نهائياً وللعودة إلى أسلوب الحوار والمصالحة الوطنية لأعادة التجربة الكردستانية إلى مسارها الذي انطلقت من أجل ترسيخه وتطويره، لتطمين آمال الكرد في الحرية والأمن والأستقرار على طريق تحقيق طموحاتهم القومية المشروعة.

لعكس بعض مكونات هذا الوجه، ولابراز حقائق تؤكد وجوده ونصاعته في التعبير،

إجتمع عدد من المثقفين الأكراد في أربيل عاصمة إقليم كردستان، وتحاوروا حول بعض جوانب الوضع ومهام المثقف الكردي. وشارك في اللقاء السادة: ـــ كريم دشتي (شاعر وصحفي) اسماعيل برزنجي (شاعر وكاتب صحفي) رزكار عبد القادر (ناقد سينمائي) وعمر فرهاوي (صحفي) وآزاد حسيب قره داغي (رسام كاريكاتير ورئيس تحرير صحيفة ريكاي كردستان) وهادي محمود (صحفي وكاتب).

□ **عبد اللطيف السعدي** - إن هنالك نقص عام في التفاعل مع مكونات الثقافة الكردية. ونتحمل جميعاً، مثقفين ووسائل نشر وإعلام، المسؤولية في ذلك. وجلستنا هذه هي محاولة بسيطة لتلافي بعض هذا النقص. فتحية لكم من العاملين في مجلة (الثقافة الجديدة).

إذن، اقول، إذا، اتفقنا على تسمية الواقع الثقافي لكردستان حالياً، بالأزمة وكونكم تمثلون ميادين إبداع وعمل ثقافي متنوعة. كيف يمكن الحديث عن تجليات هذه الأزمة في هذه الميادين: الصحافة، الكتابة بشكل عام القصة، الشعر، المسرح.. الخ؟

○ **عمر فرهادي** - باعتقادي أن تسمية أزمة لاتنسجم مع الواقع الحالي للثقافة الكردية، أو في كردستان عموماً. هنالك كثرة في الأنتاج الأدبي والفني وهنالك محاولات جرئية للارتقاء به. وإذا كان هنالك حديث عن أزمة، فهي تكمن في تعامل الساسة مع المثقفين. وعندما أقول الساسة فأنا لا أقصد الذين يفهمون السياسة كفن وعلم. بل أولئك الذين يحصرونها بالأنتماء والولاءات الحزبية الضيقة. فهنا يبرز الفرز والحصر بين مثقفين يسايرون نهج مراكز القوى السياسية ومثقفين، وهم يقلّون الآن يريدون لابداعهم الاستقلالية بعيداً عن الوصايات.

إن قادة الأحزاب السياسية المتنفذة، يريدون المثقف الكردي أداةً في يدهم، يسايرهم، ويبرر مواقفهم، يصالح من يصالحهم ويعادي من يعاديهم، وهذه مسألة خطيرة جداً، بتقديري، خطيرة على الثقافة الكردية وعلى مستقبلها.

أنهم يستغلون حاجة المثقف إلى المال لتمشية أموره المعاشية. ويجعلون من حق العمل والتعيين في الدوائر والمؤسسات الرسمية وسيلة ضغط وإكراه لتحقيق نواياهم وأغراضهم الضيقة.

ولهذا أضطر العديد من المبدعين، شعراء وكتاباً وفنانين، للرضوخ ولبيع - نعم بيع - نتاجاتهم لتوفير لقمة العيش. وهذا أدى وسيؤدي في حال استمراره إلى الهبوط بمستوى

الكتابة الأبداعية. هكذا يتعامل الحزبان مع الثقافة والمثقفين في كلا منطقتي النفوذ.

○ **هادي محمود** ـ طبعاً ما تحدث به الزميل (عمر فرهادي) واقع ومؤثر بشكل سلبي كبير. . . يوجد العديد من الكتّاب ولهم نتاجات إبداعية جيدة، مسرح، شعر، قصة، ولكنهم يعزفون عن النشر. فإن نشروا في مطبوع لإحدى الجهات المحسوبة على أحد الحزبين، فسيحاسبون، أو يقاطعون من قبل الجهات في الجانب الآخر. حيث يعتبر، دون تمحيص أوحد من التعامل الواعي مع النص الأبداعي، الكاتب الناشر لدى جهة بأنه منحاز الى الجهة الثانية. هذا خلق نوعاً من الأزمة.

ولو توحد المثقفون، ووحدوا مواقفهم، فإنهم يستطيعون فرض إرادتهم على السياسيين. وباعتقادي، ان المثقف إن أصبح تابعاً للسياسي فإنه سيفقد قيمة نتاجه الأبداعي. على المثقف إذن أن يكون حراً في رأيه، وان لا ينحدر إلى متاهات حزبية ضيقة، كأن ينظم قصيدة وينشرها لصالح حزب ضد آخر. أو يغني لهذا القائد فيناكد القائد الآخر. . . وهنالك صور عديدة لافرازات هذا الواقع السيئ. يجب النظر إلى مسيرة الثقافة الكردية عبر مرحلتين منفصلتين. ففي ظل سلطة الدكتاتورية، حيث القمع والأرهاب وسياسة العصا والجزرة كانت سائدة. في تعاملها مع المثقفين الأكراد. كانت الثقافة تعيش حالة صيرورة ثورية مستمرة. كان المثقفون الأكراد متلاحمين مع نضال شعبهم. النتاجات الأبداعية، في ميادين الشعر، القصة، الرواية، التشكيل، المسرح، كانت تعبر عن هموم وقضية شعبنا الكردي العادلة. وكان المبدعون يبحثون عن كل السبل لتمرير نتاجاتهم الأبداعية على الرقباء وهم كثر ومتلونو الأدوار.

كان المتلقي يفهم مايريده المثقف. ولهذا فإن الثقافة الكردية في أحلك أيام الدكتاتورية السوداء، كانت تعيش مرحلة إنتعاش وسبب هام لهذا، هو الألتزام بالمعنى العام، الالتزام بقضية الشعب، الشعب الذي كان يواجه هجمة شوفينية، وسياسة إبادة جماعية، فوجد في المثقف عوناً وسنداً له.

قبل أيام وقع بين يديَّ ملف ضم كتابات وملاحظات حول معرض للفنان (آزاد شوقي) أقيم العام ١٩٨٨، في نفس الوقت الذي كانت الدكتاتورية تشن حملات الأنفال على مناطق كردستان. من بين ما قرأت، كتب الأستاذ (رؤوف حسن) بأن المعرض ردّ فعل على أفعال الدكتاتورية التي تخرب كردستان الجميلة. ضد الذين ينثرون السموم والغازات.

هكذا كان المثقفون الكردستانيون يواجهون النظام وسياساته في عقر داره. اليوم تغيرت أمور كثيرة، ولهذا التغيير أسبابه الموضوعية. أتفق، لهذا، مع الأستاذ (عمر) بأنه

لايمكن أن نطلق على وضع الثقافة الكردية، في الوقت الحاضر مصطلح الأزمة، فالكثير من المثقفين مازالوا يحافظون على مواقفهم الفكرية، ويلتزمون بقضايا شعبهم. بمعاني هي أوسع من مجرد التخريب ورغم كل الضغوطات والمعاناة التي تسببها.

استطيع القول، بأن هنالك أزمة سياسية في الأحزاب السياسية وتتجلى هذه الأزمة بسياسات الضغط، بالترهيب والترغيب، بالحصار الأقتصادي الجائر على الشعب، وانعكاسات كل ذلك على وضع الثقافة والمثقف. حيث التهمش والتهميش. البعضُ يتصدى والبعض الآخر يخنع وآخرون يغادرون إلى المنافي.

إننا يجب أن نتعامل بمرونة مع من برزت لديهم مواقف ضعف بسبب الضغوطات السياسية. يجب أن نبصّرهم بأن مكانهم الحقيقي هو ميدان الابداع المستقل وليس الكتابة لأرضاء هذا الحزب أو ذاك.

○ **آزاد حسيب قره داغي** ـ عندي رأي آخر مغاير لما طُرح. أتفق تماماً مع تسمية الوضع الثقافي بالأزمة. فكيف لاندعوه كذلك ونحن نتلمس كل أبعاد الأزمة، وأستطيع إجمال أبرزها بالتالي:

١ ـ ليس للمثقف الكردي أي دور في القرار السياسي أو في رسم مستقبل الوضع في كردستان.

٢ ـ سيادة سياسة الضغط على المثقفين الأكراد. بأساليب الترغيب والترهيب من قبل الأحزاب والمسؤولين في الحكومتين هنا وهناك.

٣ ـ لا تتوفر للمبدع الكردي فرص المساهمة برسم الذوق العام من نواحي تحسس الجودة الفنية.

٤ ـ تزايد ظاهرة كتابة ونشر الأشعار التي لا يمكن وضعها، وبأي اعتبار، ضمن باب الشعر الكردي الأصيل.

٥ ـ اتساع ظاهرة الأغاني الهابطة «التجارية» على حساب الطابع الجميل والأصيل للغناء الكردي بأنواعه المعروفة.

٦ ـ البرامج التلفزيونية الهابطة والتي تشيع قيماً تتعارض مع إحدى هموم ثقافتنا الكردية بالارتفاع بمستوى وعي الجماهير.

كيف نستطيع إذن مع هذه المظاهر، أن لانسمي وضع وحال ثقافتنا الكردية بالأزمة... الحالات التي أشار اليها الزملاء هي حالات فردية. وهذا يعني أن بؤرة الأمل موجودة. ومسؤوليتنا هي البحث في كيفية تحويل هذه المقاومةَ الفردية إلى مقاومة

جماعية، عامة، أضيف أننا نعيش حالة شبه عزلة إن لم أقل عزلة عما يدور حولنا في العالم، من حوارات ونتاجات. فالسلطات لاتشجع حركة الترجمة إلى الكردية أو منها إلى اللغات الأخرى وفي هذا سبيل للانفتاح والحوار مع الآخرين، مع الثقافات الأخرى. وهذا مظهر آخر يؤكد واقع الأزمة.

○ **اسماعيل برزنجي** - أنا دائماً أقارن بين وضع الأديب الكردي، قبل الأنتفاضة وبعدها. قبلها كان الأديب مستقلاً برأيه، ويتطلع إلى يوم إنتحار الديكتاتورية. ولهذا برزت نماذج مشرقة في ميادين الأبداع المختلفة. . . أذكر مرة وخلال ندوة نظمتها أجهزة السلطة الدكتاتورية تحت عنوان «فكر صدام حسين حول الشعب الكردي»، نهض الأستاذ شاكر فتاح، وتساءل عن موقف السلطة من الثوار الأكراد، وقصد البيشمركه والأنصار، ودعا إلى التفاوض معهم. فاعتبر جلاوزة النظام ذلك تحدياً لهم، فبعد فترة اعدم هذا الأستاذ وترك مثلاً في التحدي. هذا نموذج حيٌ، عن موقف المثقف الكردي رغم قسوة وقمع الدكتاتورية. أما بعد الأنتفاضة، وبعد سيطرة الأحزاب واحتوائها، فإن المثقف الكردي لم ولا يستطيع ان يرفع صوته أمام الأحزاب، ليقول لها بأنها مخطئة، وبأنها تقود قضيتنا نحو المصائب والويلات.

الميليشيات الآن هي التي تتحكم بالساحة، وبالساحة الثقافية تحديداً. لقد مررنا بشهر عسل بعد انشاء أول برلمان كردستاني حر، عام ١٩٩٢ وظهور العديد من المطبوعات والقنوات التلفزيونية، ودام ذلك سنة واحدة فقط. ومع بدء الأقتتال في أيار ١٩٩٤، تغير الحال وحوصر المثقف، فمن ينشر في صحيفة معينة يحرم من العمل في الصحيفة الأخرى. ومن يزور مقر هذا الحزب يرفضه الحزب الآخر. وصار أمام المبدع الحقيقي، إن لم يخضع للضغوطات، أحد خيارين: إما الجلوس في البيت بعيداً عن سيادة وسائل الترهيب والترغيب، وبذلك يفقد مصدر عيشه وعيش عائلته، أو السفر إلى الخارج بحثاً عن مناخات أخرى لمواصلة جهده الأبداعي. . . وهذا يفسر خروج أعداد كبيرة من مبدعينا في بلدان الشتات المختلفة، وهم يواصلون إنتاجهم، ولكن نتاجاتهم لا تصل إلينا. ماذا نسمي هذا الوضع؟

ماذا نسمي ان قاصاً مثل (رؤوف بيكه رد)، يكتب قصته يعالج فيها واقعه، فيحارب بسببها ويمنع من دخول أربيل تحت سيف التهديد بالأعتقال؟

أنا شخصياً أتطلع بشوق لزيارة السليمانية، مدينتي التي نشأت وترعرعت فيها. ولكنني لا أستطيع الذهاب دون موافقة من جهاز الأمن الخاص هنا «الأسايش»، ودون

موافقة من جهات حزبية متنفذة. . . هذه هي حال المثقف الكردي اليوم، هذه معاناته. . . ولو استمر الوضع على هذا المنوال، فإننا مهددون بمزيد من التدهور الأدبي والفني، بل التدهور لكل مكونات التجربة التي نريد لها النهوض والثبات والأستمرار على الاسس التي انطلقت من أجلها.

○ **رزكار عبد الله** ـ قد أتفق مع ما طرحه الأخوان عمر وهادي. ولكنني أبدأ من عام ١٩٩١ حين إندلعت الانتفاضة. فبعد فترة حماس وانتعاش في الوضع، تصاعدت حدة الصراعات والمشاكل الداخلية. وانعكس هذا مباشرة على المثقفين. فلقد انشطروا وتوزعت ولاءاتهم على الأحزاب، وهذا جانب يؤكد عدم إدراك الأحزاب الكردستانية لقيمة الثقافة ومعانيها ودورها، والمثقفين أيضاً.

أستطيع القول إن المثقفين لم يستطيعوا التأثير على الأحزاب وسياساتها بل إن الأمر صار متعاكساً، فالمثقف حوّل إلى أحد مكونات مليشيات الأحزاب.

الابداع كان أفضل قبل الانتفاضة، لأنه كان هناك هدف يجمع المثقفين تحت سياط الديكتاتورية. ورغم قوة وبطش القمعية كان المبدع يجد سبيله لتحرير إبداعه المضاد لها وبشكل غير مباشر. برزت ظاهرة استخدام الرموز والايماءات في النتاجات الأبداعية. الآن المشكلة لاتنحصر فقط في ممارسات وسياسات الأحزاب، بل هي أيضاً، تكمن في تقصيرات وضعف المثقفين. أستطيع أن أفهم أن مبدعاً يعمل بالتجارة، ولكنني استهجن أن يتاجر فنان أو كاتب بنتاجه الابداعي، كأن توظف القصائد لمدح حزب أو قائد معين.

○ **كريم دشتي** ـ أنا شخصياً لا أرى وجود أزمة، ليس هنالك أزمة إطلاقاً. وان كانت هناك أزمة فعلاً: فلابد من تشخيص موقعها ومكانها. هل تكمن في المثقف؟ باعتقادي انها كامنة في وعيه، وليس بمفهوم المثقف بشكل عام.

لو عدنا إلى مسار الحركة الكردية تاريخياً، لوجدنا أن الواقع المأزوم هو نتيجة للوضع السياسي الكردي، وعلاقة هذا الوضع بالسلطات المركزية فبعد صدور بيان ١١ آذار ١٩٧٠ ظهرت مجموعة من الادباء من مختلف ميادين الأبداع. كانوا ذوي رؤى جديدة تجاه الأدب والحياة والثقافة عموماً. كانوا، بحق، مجددين أو حاولوا تغيير مجرى الرؤى الأدبية من النظرة الكلاسيكية إلى نظرة معاصرة. وظهرت حركة اسمها «المرصد»، حيث صدرت عن مجموعتها مجلة بنفس الاسم. كانت تتناول جميع ميادين الابداع الفني والأدبي بنظرة معاصرة. عبرت هذه الحالة عن متغيرات الحالة السياسية. وحتى سنوات ٩٨٠ ـ ١٩٨١ حيث بدأت المرحلة الثانية في عملية التجديد. وكان يقودها

مجموعة من الأدباء الشباب حاولوا تجاوز مرحلة «المرصد» بأفكار ورؤى جديدة. ومنها ظهرت نتاجات إبداعية جديدة تتفاعل مع أشكال وبنى الأدب العالمي، وتحديداً الغربي. ودارت في النوادي نقاشات حادة بينهم وبين السابقين المتهمين حينها بالسلفية. واستمر هذا الحال حتى وقتنا الحاضر. فهناك مجموعات من الأدباء يعتمدون التنظيرات البنيوية الحديثة، وعلى أفكار بعض المفكرين والمبدعين أمثال، رولان بارت وفوكو، والعقلانية الغربية. ووصل الأمر إلى تجريد الأدب الوجداني من محتواه وتحويله إلى كومة من المفردات التي لاروح فيها. المثقف الكردي الآن محاصر بجملة من المآسي. إلى جانب عمله وسط تيارات سياسية لا تؤمن بالديموقراطية، الاّ بقدر خدمتها للأغراض والأهداف السياسية الخاصة.

إن هم الموازنة عند المثقف بين طموحاته الأبداعية والمحددات السياسية يكبله، ويضيف الوضع الأقتصادي ـــ المعاشي هماً آخراً يثقل على المثقف ويكبله بأغلال أخرى. لهذا نشأت بين المثقفين والسلطة أو المؤسسة السياسية علاقة منفعة إقتصادية وليست علاقة ثقافية. ولو توحد المثقفون، على مختلف مشاريعهم وآرائهم، لما استطاع السياسيون ابتلاعهم واضطهادهم بسبب آرائهم وطروحاتهم الفكرية والسياسية.

○ **هادي محمود** ـ إن وضع المثقف الكردي هنا في كردستان، هو أفضل بكثير من وضع المثقف الموجود في بغداد والبصرة. والمسألة بتقديري، هي كيف يستطيع المثقفون التوفيق بين الماضي، ومواقفهم تحت ليل الدكتاتورية التي خلفت آثاراً إجتماعية وسياسية عديدة ماتزال علائمها بائنة، وبين النزوع إلى الديموقراطية وإرساء المجتمع المدني، والنزوع إلى التجديد والحداثوية بتقديري هكذا يجب أن يُطرح الأمر. المشكلة أن الأحزاب الكردية كانت قبل تسلمها للسلطة، تفتح أبوابها للمثقفين، ولكن بعد ذلك بدأت تتعامل تعاملاً فوقياً، سلطوياً معهم. سابقاً كانت هنالك قواسم مشتركة بين المثقف وطموحاته الأبداعية، وبين الأحزاب وسلطة السياسي، أما الآن فإن الاحزاب والسياسي يُدافعان عن السلطة. والسلطة في مجتمعاتنا المتخلفة مبنية على إلغاء المقابل وعدم إفساح المجال أمامه للتعبير الحر.

○ **كريم دشتي** ـ لديّ ملاحظة. قبل الأنتفاضة لم يكن المثقف الكردي يمتلك حداً أدنى من الحرية السياسية، أو أي نوع من الحريات الأخرى. وبعد الأنتفاضة توفرت الحريات بشكل واسع. ولكن مع الأجواء الديموقراطية الجديدة كان المثقف يفتقد الحرية في داخله. لأسباب خاصة به أو نتيجة الظروف السابقة. لهذا كان عندما يتوجه إلى

المؤسسات الرسمية، لا يجرؤ على الأفصاح عما في داخله.

السؤال المطروح الآن، هو كيف يتعامل المثقف الكردي مع المؤسسة السياسية؟ هل يتعامل كسياسي، أم كمثقف؟

□ **عبد اللطيف السعدي** ـ في ضوء ما طرح، برزت قضيتان. الأولى ماذا نسمي الوضع الراهن، أقصد الوضع الثقافي تحديداً. هل هو أزمة أم ماذا. وماذا نقصد بالأزمة؟

القضية الثانية هي الأسباب التي أدت للوصول إلى هذا الوضع. هل تكمن في الأحزاب السياسية والسلطة؟ أم في المثقف نفسه وفي منظماته الثقافية؟

لتحديد مفهوم الأزمة يجب العودة إلى مفهوم الثقافة وماذا يعني. ومن ذلك نستطيع تحديد الأهمية الكبيرة للثقافة في بنى المجتمع، أي مجتمع.

الثقافة كمفهوم صارت تقارب في معانيها وأبعادها مفهوم الحضارة. أي أنها تستوعب كل ما تعنيه حياة الانسان، وكل تطلعاته والوسائل التي يعتمدها لفهم واقعه وللعمل على تغييره نحو الأفضل.

من هذا المنطلق يجب أن نحاكم الواقع الثقافي في كردستان، أو نحدد طبيعته وتسمياته.

في ظل الدكتاتورية الغاشمة، كان هنالك تمسك بالقيم، بقيم كافح من أجلها الشعب الكردي، طيلة عشرات السنين، لتحقيق طموحاته القومية المشروعة. ولهذا كان الشعب بكل مكوناته، بمثقفيه أيضاً، كان يقاوم ويبحث عن كل السبل الممكنة للتعبير. وكان المثقف مبدعاً في إيجاد المنافذ والسبل للتعبير عن طموحات شعبه في النتاج الأبداعي. . . كنّا فعلاً نلمس نتاجات جيدة، وجيدة جداً على صعيدي الشكل والمضمون، رغم حصار أجهزة النظام القمعية ومؤسساته الثقافية. ولكن الحصار، وتزييف إرادة المثقف، والترهيب والترغيب، كل ذلك كان يخلق بؤراً وأسساً لواقع ثقافي مأزوم. . . وإذا أخذنا بحقيقة تاريخية وهي أن لكل ظاهرة إجتماعية مقدماتها وتراكم عناصرها. فإن السلطة الدكتاتورية ماتزال، وحتى بسياساتها الراهنة تتحمل المسؤولية الأولى عن هذا الوضع الذي يعيشه المثقف وتعيشه الثقافة الكردية، خاصة وأن كردستان عانت الأمرّين من سياسات الحكام السابقين والحاليين. إذ يجب أن لانضع حدوداً فاصلة بين المراحل، لكي نصل إلى استنتاجات موضوعية ودقيقة في قربها من الواقع.

وعندما توفرت للقوى الكردستانية، ولأول مرة في تاريخ الحركة التحررية الكردية في كردستان العراق، عندما توفرت لها الظروف لكي تحكم، وبتفاعل من قبل الجماهير،

وتصل حد الأندفاع الرومانسي كما حدد أحد الأخوان عند وصفه لمشاركة المثقفين فيها. وكان الهاجس الأساسي هو الوصول بالأنتفاضة الى أهدافها النبيلة.

ولكن، ومنذ العام ١٩٩٤ بدأت الأمور تأخذ مجريات أخرى. فقد بدأ الأقتتال، وبدأت ممارسات انفرادية ذات طابع سلطوي. تقارب ممارسات الحكام في الاستفراد ومحاولات فرض الوصاية على المثقفين.

وهنا بدأ التناقض جلياً، ويبقى أكثر فأكثر مع تدهور الوضع العام. أقصد التناقض بين مايفرضه الحال وتتطلبه الأهداف من دور للثقافة والمثقفين الأكراد لترسيخ التجربة ولتطويرها، وبين الواقع المأساوي الذي يحدّ، بل يعرّقل تحقيق هذا الدور. وبالتالي يؤدي إلى المراوحة في ميادين الفعل الثقافي، على الصعد الأدبية والفنية. وصار المثقف يصطدم بالمؤسسات، وبأساليب الحصار، والوصاية، والترهيب والترغيب... وهنا يكمن معنى الأزمة.

فالأزمة كمفهوم، هي مرحلة في مجرى التطور، يحدد طابعها ومداها طابع التناقض الذي يخلقه الواقع بكل مكوناته، وعندما يصطدم التطور بعدم توفر السبل والأساليب المناسبة لمتطلباته عندها، يجب البحث عن المنافذ والسبل لتوجيه الأزمة باتجاه التخطي والانتقال ألى مراحل متقدمة للظاهرة المعنية. أما العكس فيؤدي إلى تراكم متسارع السلب، وقد يؤدي ذلك إلى الأنهيار لاحقاً. نحن نعيش اليوم إذاً مرحلة التراكم السلبي لهذه الأزمة، لاسبابها وعواملها، هي بدايات الدخول إلى المأزق الحقيقي.

ومن هذا المنطلق نستطيع تحديد مسؤوليات الأحزاب الكردستانية والحاكمة منها بشكل خاص، ومسؤولية المثقفين ومنظماتهم المهنية والديموقراطية.

إن أزمة الثقافة هي تعبير آخر عن الأزمة العامة التي تعيشها كردستان بسبب سياسات الأحزاب وعلى أرضية الأزمة العراقية العامة المرتبطة ببقاء الديكتاتورية وكل نتائج سياساتها الهوجاء.

○ **اسماعيل برزنجي** - مثلما تفضل الأستاذ عبد اللطيف، فإن المسؤول الأول والأخير عن هذا الواقع في العراق وفي كردستان بشكل خاص. هو النظام الدكتاتوري... ويؤكد هذا حال المثقفين في بغداد. قبل فترة توفي القاص المبدع (موسى كريدي) بسبب الأهمال والجوع وهنالك العديد من الأمثلة على هذا الأمر.

الوضع في كردستان يختلف نوعاً ما. السلطة المركزية غير موجودة في المنطقة، وجرت إنتخابات ديمقراطية لأول مرة في تاريخ العراق وكردستان، أقمنا برلماناً

وحكومة، ولكن الحرب الداخلية، أتت ومزقت كل ذلك وببساطة. ماهو المخرج لوبقي الأمر على هذه الحالة؟ العقلية العسكرتارية ستزيد الوضع سوءاً، وتحديداً وضع المثقف والثقافة عموماً. أتطلع إلى أن يتغير النظام الدكتاتوري، بنظام ديموقراطي، وأن تتغير أوضاع الأحزاب الكردستانية. بهذا فقط قد يعود المثقف إلى حالة الاستقرار وسط أهله، وإلى إبداعه ودوره الفاعل في المجتمع.

أكرربأن المشكلة الأساسية. هي بقاء الدكتاتورية، وإذا استمرت فإن الأمر سيزداد سوءاً.

○ **آزاد حسيب قره داغي** ـ تسمية الوضع بالأزمة، ليس أمراً اعتباطياً. وهنا أكون متفائلاً اذ أطلق هذه التسمية على حال الثقافة الكردية. وأتفق تماماً بأن الوصول إلى الأزمة، يعني الوصول إلى نقطة المخاض لولادة جديدة. ولهذا يحتاج الأمرإلى نضال وعمل مثابر لتحقيق هذه الولادة، وهذا مايجب أن يدركه المثقفون الأكراد بشكل واضح لا لبس فيه.

إن الأحزاب الحاكمة، والسياسيين المتنفذين، باتوا يدركون ماينتظر المثقفين من دور، كونهم يبحثون عن ثورة ثقافية وهذا يهدد مواقعهم ومصالحهم. لهذا تراهم يهجمون على الثقافة والمثقفين بعد استفرادهم. وقد ظهرت حالات عديدة تؤكد هذا الرأي.

المثقف كان ينقصه التعمق في فهم الواقع الأجتماعي ــ الأقتصادي الذي يحدد طابع الأحزاب وقياداتها. لهذا جاء الرد الطبيعي على الاندفاع الرومانسي في الانتفاضة، وبعد فرز الواقع الطبائع، كان الرد هو الاحباط والانزواء. لقد انحصر المثقف في زاوية التفكير، وبروح رومانسية كما أسلفت، بالحفاظ على هذه الانتفاضة ومكتسباتها واعتبر ذلك واجبه المقدس. بينما القيّمون على المؤسسة السياسية والأحزاب عكسوا واقعهم وطابعهم بعد أن استلموا مراكز النفوذ فحصروا الانتفاضة بمجالات وميادين مصالحهم الضيقة بعيداً عن أهدافها السامية كما رسمها المبدعون في مخيلتهم.

إن المثقفين الذين امتلكوا أدوات فهم طابع القوى المتلونة التي قادت الانتفاضة أو شاركت فيها على أساس تحليل علمي للواقع الأجتماعي، تراهم اليوم هم المدافعون الحقيقيون عن نفس القيم التي قامت من أجلها، قيم الحرية والديموقراطية وحقوق الأنسان. هم المدافعون عن حقوق شعبهم بعيداً عن اللعبة الأقليمية والدولية.

○ **رزكار عبد القادر** ـ الصراع بين السياسي الذي يمتلك السلطة، والمثقف صراع

أزلي. لأن الثاني أسبق في فهم محيطه، والرائد في البحث عن الجديد، والفاعل في التغيير. المشكلة كيف نفهم العلاقة بين المثقف والسياسي، أي التعامل المباشر بينهما؟

○ **آزاد حسيب قره داغي** - جوهر الصراع بين المثقف والسياسي، هو أن المثقف يتطلع إلى التغيير والتحول وهو بطبعه ضد الركون والركود. والثقافة لايمكن فصلها عن قضية الديموقراطية، فهي ملازمة والثانية عامل هام لانطلاقة الأولى.

الأحزاب المتحكمة حالياً هي نفسها أحزاب الجبل، فترة الكفاح المسلح. ومن لم يثبت إيمانه، بالممارسة اليومية، بالديموقراطية كيف له أن يكون ديموقراطياً وهو في السلطة؟؟

إن من كان يعمل لألغاء الآخر في مجرى الثورة، لايمكن أن تترقب منه الجنّة الديموقراطية بعد الانتفاضة. الحزب الذي كان يستكثر على غيره متراميًا في قمة جبل، والعدو واحد، كيف نريده اليوم أن يكون ديموقراطياً وهو في السلطة؟؟!. أريد أن أقول إن فهمنا للماضي، للممارسات قبل الأنتفاضة وبعدها، يعيننا على فهم ما يجري اليوم.

○ **كريم دشتي** - التساؤل كان، ماذا نسمي الوضع الحالي؟ كما جرى الحديث كان المثقف ورغم قمع الدكتاتورية متمسكاً بالقيم، بالمثل الانسانية. ولكنه اليوم يجد المؤسسات الكردستانية لاتمد التجربة بأسباب الديمومة والتطور وهذا هو سبب حالة الأحباط والعزلة التي يعيشها المثقف الكردي او التي تدفعه للتفكير بالخروج إلى بلدان المنافي، ليتخلص مما يراه من دمار. لهذا نرى دائماً شريحة ثقافية خارجها (المؤسسات)... وإذا اتسم الوضع بالصراع الحاد والدموي بين مؤسسات سياسية، فكيف للمثقف أن يوازن موقفه. وهو إذا إقترب يُتهم. وإن ابتعد تنزهاً عن الصراع يموت جوعاً...!!

المؤسسات السياسية الحالية ليست بمستوى إدراك معاناة المثقف، بل هي تحاول أن تحكمه وترصد حركته. لذلك فهي تحرمه من حريته، من حرية الأختيار. الواقع الحالي، بعيد عن الديموقراطية، والمثقف يدرك هذا، ويدرك الضرورات لمواصلة ابداعه ودوره، ولكنه غير قادر على التجاوز!!

○ **عمر فرهادي** - الأحزاب السياسية بعد الأنتفاضة إحتاجت إلى المثقفين لتعزيز مؤسساتها، وخاصة الثقافية والإعلامية. ولهذا أرادت أن يكون المثقف أداةً بيدها منفذاً لتوجهاتها بلا حرية اختيار.

بعض المثقفين لعبوا مع الأسف، دوراً غير مشرف، لأن الروح الحزبية الضيقة

اشتحوذت عليهم. وبذلك تحولوا ـ البعض ـ إلى جلادين للكلمة الحرة، للثقافة الحرة. وهكذا ظهر مستنقع الأرتزاق.

ومن غاصوا فيه يريدون سحب الآخرين إليه. . . ومن يرفض ذلك يحارب من قبل المؤسسات السلطوية، وأشباه المثقفين الذين تسلقوا إلى مراكز الحكم عن طريق سبل وصولية.

□ **عبد اللطيف السعدي** ـ في العراق صارت قضية الأرتزاق ظاهرة مؤلمة وسائدة. . . وهناك الكثير من المثقفين سقطوا في درك السلطة وأساليبها القمعية. عبد الرزاق عبد الواحد شاعر مبدع، ولكنه أداة لتطبيق سياسات السلطة ولتبرير جرائمها وللتهريج باسم سيده الطاغية أريد في ضوء ما طرح أن أحدد معادلة قد نلخص وضع المبدع سواء في كردستان أم في عموم العراق. تلك التي تحدد العلاقة بين مستلزمات الأبداع، فانتازيا المبدع، وحريته الكاملة في التعبير، من جهة وبين دوره التاريخي، وظيفته الثورية في أن يكون فاعلاً في التغيير وسط مجتمعه من جهة ثانية. كيف تفهمون هذه المعادلة؟

○ **آزاد حسيب قره داغي** ـ هنالك فرق كبير بين السياسة بشكل عام والتحزب. المثقف سياسي بمعنى ما، إذا اعتبرنا السياسة حركة أو حالة من حالات التوجه للتغيير والتحفيز نحو التطور. إذا كان المثقف سياسياً في توجهاته العامة، فهو مكافح بابداعه من أجل التطور والتغيير. أما التحزب، وهو سبب كل الأوضاع المزرية التي نعيشها، يعني، أو هكذا فهم، بانه محاولات استخدام وتوظيف كل القنوات والسبل للوصول إلى غايات وأهداف الحزب.

فالتحزب يجعل من صاحبه، خاصة إن تم بدون فهم أوسع، خاضعاً لتبرير تاكتيكات يومية وهي في تغيير دائم. ونلاحظ في ظروفنا حالات عديدة، يأتي مثقف، متحزب، يطبّل لموقف أو قرار معين بأمر من حزبه، ولكنه لا يلبث، وعند تغير هذا الموقف الى موقف آخر، أن يتحول بموقفه، فيبدأ بالكتابة أو استخدام أداته للاعلان عن الموقف الجديد وللدفاع عنه. بتقديري هذا سبب هام في الأزمة الراهنة للثقافة الكردية، كون الثقافة هي سياسة بمعنى من المعاني، والسياسة بدورها ثقافة. أو مفصل هام فيها. وإذا وصلنا إلى مستوى هذا الفهم فأعتقد أننا سنكون على عتبة ولادة جديدة. أما إذا بقيت الثقافة متحزبة بالمعنى الضيق فذلك سيعزز من أسباب وعوامل الأزمة.

○ **كريم دشتي** ـ كيف يمكن للمثقف، أن يطرح ما يؤمن به، ويحافظ على إبداعه، على الأبداع بمعانيه ومتطلباته الفنية؟

غوركي في روايته (الأم) عالج حالة ثورية، جسد قيماً فكرية ونضالية، ولكنه كان مبدعاً وروايته صارت انموذجاً في عالم الأبداع على الصعيد العالمي. هنا يكمن سر الأبداع.

عزرا باوند كان مؤمنا بالأقتصاد الفاشي، ولكنه كان شاعراً كبيراً، فهل نستطيع أن نشطبه من دائرة الأبداع. لهذا فأنا لستُ مع تجريد المثقف أو المبدع الكردي من السياسة والعمل فيها. فله الحق لأن يؤمن بما يريد ويختار مايشاء من مبادىء. ولكنه يجب أن يحافظ على ما يتطلبه الأبداع.

○ **رزكار عبد القادر** ـ أنا مع فكرة الزميل آزاد. الابداع يجب أن يستمر وأقصى مايمكن طلبه من المبدع، أو المثقف بشكل عام، هو النظر إلى الواقع بموضوعية. . . وعليه تقع مسؤولية التضحية!!

□ **عبد اللطيف السعدي** ـ أحاديثكم تشير إلى أشكالية الديموقراطية. فإلى جانب الوضع العراقي العام البعيد عن أبسط معانيها، فإن الوضع الكردستاني يمر بمرحلة افتقاد خاص للديموقراطية.

اعتقد بأن كل ما حاولنا في مناقشاتنا اليوم الاحاطة به وتحديد أسبابه، يعود إلى فقدان الديموقراطية بكل معانيها وأبعادها.

إذن ما هو فهمنا للديموقراطية. في الواقع الكردستاني الحالي. وكيف نتلمس فعل فقدانها في الحياة الثقافية؟؟

○ **رزكار عبد القادر** ـ الديموقراطية، حسب فهمي، ممارسة قبل أن تكون شعاراً. الأنسان يجب أن يتنفس معانيها من البيت. وإن لم يستطع الأنسان استنشاقها والنمو مع مفرداتها داخل عائلته وفي مجموعته، كيف يمكن له أن يمارسها في نطاق واسع؟ الديموقراطية مستلزم أساسي للابداع وللمبدع. ومع الأسف نلاحظ أن التعامل في أوساط المثقفين يفتقد الديموقراطية، وذلك بسبب منطلقات التحزب القاتلة، وماتجره الصراعات الحزبية.

يجب أن يعود المثقفون الاكراد إلى ما كانوا عليه قبل الأنتفاضة، حيث يستمع بعضهم إلى البعض الآخر دون حساسيات حزبية. . . الآن من الصعب علينا أن نلتقي، أن نتحاور. كثيرون أتمنى رؤيتهم، ولكن بسبب الأوضاع الراهنة فأنا لا أستطيع تحقيق أمنيتي هذه، وهذا يحاصرني ويسبب لي الآلام.

○ **كريم دشتي** ـ الديموقراطية تحتاج إلى وقت طويل. وللمثقف دوره الكبير في

التأثير على الناس ولاثارة استعداداتهم للممارسة الديموقراطية. وهذا يتطلب تضحيات كبيرة خاصة في مجتمع متخلف كمجتمعنا الكردي، حيث انعدمت، ولسنوات طوال، الممارسة الديموقراطية. علينا أن نكون فاعلين في تكوين رؤية ديموقراطية في أوساط الرأي العام ولحل هذه الأشكالية الهامة.

○ **آزاد حسيب قره داغي** - تصوراتي قريبة من تصورات الزملاء. . . الانسان كائن مجتمعي. وتجارب الشعوب الأخرى هي تجربة لشعبنا أيضاً. إذن نستطيع الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، لصياغة تجربتنا الخاصة. الحديث عن عدم ممارستنا للديموقراطية، هو تبرير لمفاهيم السلطويين اينما كانوا، وعلى الوانهم. . . فهم يستندون إلى نفس الحجج لأشاعة مبادئهم ولفرض سلطانهم. تجارب الشعوب كافية، مثلاً، لتقول لنا بأن الأقتتال الداخلي، يشكل ضرراً، بل خطراً كبيراً لقضيتنا. . . المثقفون في تجارب أخرى فاعلون، مؤثرون في العمل من أجل الديموقراطية. . . ونحن هنا في كردستان لم نستطع عمل وبناء أشياء كثيرة، كانت ضرورية منذ الأيام الأولى لتشكل الادارة الكردستانية. بناء مؤسسات مستقلة ديموقراطية، تقاوم نزعات التسلط وتشكل رأياً عاماً مؤثراً لصياغة أسس مجتمع مدني. اعتقد بأننا تخلينا عن ذلك كأحزاب ومثقفين. . . واجبنا هو التصدي، والمشاركة الفاعلة بما هو ممكن لتشكيل المؤسسات المدنية بعيداً عن نزعات التسلط والفرض والوصاية. . . نستطيع بناء وإعادة تشكيل منظماتنا الديموقراطية، باعتبارها نواتات للمجتمع المدني وفرض عملها ونشاطها خارج انتهاكات السلطات ولتعزيز ممارسة الحقوق الديموقراطية ولنصرة حقوق الأنسان في كردستان.

□ **عبد اللطيف السعدي** - الحديث يتشعب، ويتسع، ويحتاج إلى جلسات وندوات وموائد للحوار. . . وجلستنا اليوم يمكن اعتبارها حجرة صغيرة في هيكل البناء الذي نطمح إليه لشعبنا في كردستان وفي عموم العراق. أعتقد أننا بحوارنا هذا حققنا هدفاً مهماً بسيطاً في طريق تكسير كل الحواجز بين المثقفين الأكراد لاشاعة أجواء الحرية والدور الفاعل لبناء أسس المجتمع المدني في عراق ديموقراطي فيدرالي موحد.

أشكركم باسم هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) لمساهمتكم الجادة ولمناقشاتكم التي اتسمت بالصراحة والأنفتاح.

١٩٩٧/٨/٢٨

قراءة في رواية حسن ناصر حسين (قلعة محمد الباب)

الحلم وغرائبية الواقع

مازن يوسف

أدب الهجرة، تسمية يمكن أن تطلق على عدد كبير من أعمال الكتّاب والأدباء والفنانين العراقيين، التي صدرت في السنوات القليلة الماضية. خارج العراق، لاسيما بعد حرب الخليج الثانية. ورواية (قلعة محمد الباب) لحسن ناصر حسين هي واحدة من هذه الأعمال التي تندرج تحت هذه التسمية. فقد أتاح الرحيل عن الوطن إمكانية إطلاق مكنونات الذات التي انطوت على الكثير من الرموز التي شكلتها قساوة الواقع، بما يتصف به من قهر واستلاب. حيث دُفعت أو أندفعت. آثاره بعيداً في أغوار الذاكرة تلافياً للمواجهة التي تشكل مغامرة حقيقية. وذلك بتحويلها إلى منطقة اللاوعي كوسيلة دفاعية لحل الصراع.

إذن فالهجرة قد أتاحت للأدباء والفنانين استعادة ما في جعبتهم من مخزون على شكل أعمال إبداعية: رواية ـ قصة ـ شعر ـ مسرح. . . لحظة قيّض للذاكرة أن تغادر نفقها المظلم الذي حُشرت فيه طويلاً.

إن هذا القول لايعني توقف كتّاب الداخل عن الكتابة، بقدر الاشارة إلى أنه رغم الصعوبات التي تكتنف عملية النشر والتوزيع في الخارج. لاسيما من الناحية المادية، بالنسبة للكتاب، إلا أن عدداً كبيراً من الأعمال وجدت طريقها للنشر في ظل أجواء الحرية المفتقدة في الداخل.

فبفضل الاقتران والمقارنة والتذكر والاستعادة والفقد والافتقاد تجسد الكثير من التجارب باشكال أدبية تراوحت بدرجات مختلفة من حيث أهميتها الإبداعية.

تبدأ الرواية بأستثمار قضية انقطاع البث التلفزيوني أثناء ظهور الرئيس على الشاشة ثم يعقبه ظهور المذيع متنقلاً بذلك عبر عدد من الأحداث والشخصيات من حياتها اليومية العادية إلى مكامنها الانسانية المسكونة بالخوف والقلق والألم. يقف في المقدمة منها جوجي الذي يعاني من اضطراب حاد في الأمعاء، إذ يفجره حدث انقطاع البث التلفزيوني، وقلقه الحاد لمعرفة السبب الحقيقي لما حدث. عبر حوار يدور مع زميله حيث يقضون ليلتهم في غرفة الاستعلامات بدائرة المياه والمجاري.

بدءاً أود الاشارة إلى أن الكاتب قد اعتمد التكتيك السينمائي بأنتقال الكاميرا ـــ العين عبر المشاهد والأحداث التي تمتد على مدى ليلة واحدة. بحركات رشيقة مدروسة وانتقالات ذكية لكاميرا تديرها يد ماهرة وعين خبيرة مغيباً في سياق إعادة تركيب الأحداث ومتابعة وحدتها الدرامية شرطي الزمان والمكان بوحدة الموضوع لمتابعة الحدث وتصعيداته.

إن التخلص من أسر المكان والزمان في الرواية قد أتاح للكاتب إمكانية الحركة في العودة إلى الوراء/ ماضي الشخصيات. وما رافق حياتها عبر أجواء الحلم وغرائبية الواقع. ليضيف لها بعداً آخراً يبعده عن النقل الميكانيكي لملامحها في إعادة صياغتها كشخصيات تكون بمجموعها العمل الروائي.

في القطع السينمائي الأول لأحداث الرواية تنقلنا الكاميرا إلى وحدة من أكثر البؤر سخونة في البلد ـــ الجيش. هذا الخليط العجيب الذي يشد أجزاءه الأوامر العسكرية والانتماء العائلي والحزبي. لتطلعنا على مايجري داخل وحدة المراقبة من أحداث عقب انقطاع البث التفزيوني والسلوك الذي يبديه أفراد هذه الوحدة لاسيما الضباط ذوو الرتب الكبيرة: عقيد هيلان ـــ مقدم سلمان. من سلوك يتسم بسطحية يكشف طبيعة هذه الشخصيات من جانب، وطبيعة ارتباطها الضحل بالمؤسسة العسكرية من جانب آخر. فمستقبل هؤلاء الأشخاص مرتبط تماماً بمدى بقاء كرسي الرئيس كما يكشف لنا طبيعة الحكم العسكري الذي يقوم عليه النظام السياسي وأهمية المؤسسة العسكرية في إطالة أمد حياة النظام عبر تطوعهم للدفاع عنه دون أن يعيق تحقيق ذلك رادع.

كما ان تصوير افتقاد النقيب لقدرته الجنسية يكاد يكون كناية عن هشاشة هذه المؤسسة التي تبدو قوية من الخارج قوة النقيب وهو يمارس تسلطه على أفراد وحدته الأقل رتبة.

ثم يتناهى خبر انقطاع البث التلفزيوني إلى السجين في زنزانته التي يجيد الكاتب

تصويرها بدقة لنعود إلى جوجي بذاكرته اللعينة المحتشدة حيث يبدأ فعل التداعي مبتدأً من المكان، دائرة المياه والمجاري، التي كانت أحد مراكز الثورة فيما مضى. وقبلها كانت مقراً لجماعة الاستقلال برئاسة الشيخ حاتم المصيود، عضو البرلمان، الملقب بشيخ الوطنيين. وهي ــ البناية ــ بالاصل قصر الشيخ مشعان، الاقطاعي الذي بناه لزوجته الأعجمية. وقبالته يقع قصر الضيوف، الذي يرتبط بنفق مع القصر، والذي تحول إلى دائرة البريد والبرق. في الوقت الذي تحول فيه قصر نجمة، إلى دائرة المياه والمجاري. ونجمة هذه مغنية في تخت واحد من اقطاعي الشرق، واسمها مرجانة. كما أن إحدى الغرف، قد اتخذت مكاناً للتحقيق مع اعداء الثورة وتعذيبهم على يد خليل هودي ضابط التحقيقات الشهير. هكذا إذن. فلكي نقوم بالثورة علينا توضيب غرف التعذيب.

(لقد خرج آلاف المعذبين موتى من تلك الغرفة ص٢٣).

ليعيدنا فعل التداعي عند جوجي إلى خاله المنفي إلى قرية حدودية. حيث كان يسمع باستمرار قذائف البارجة «هارمبر» لتذكرنا بالبارجة «ميسوري» في حرب الخليج الثانية. كما أن الجنود الذين تراءوا لجوجي وقد لوحتهم الشمس هم ذاتهم الجنود الذين أحرقتهم الأسلحة الكيمياوية.

إن ما دفع الكتاب للتركيز على أهمية المكان الذي يعمل فيه جوجي هو بتقديري ليس اهتماماً بالمكان فحسب، بقدر مايريد أن يضيف بعداً آخر لشخصية جوجي وهو تعميقها وتحميلها مزيداً من القلق القادم من التاريخ الطويل للمكان. حيث تشير الرواية إلى (روح التاريخ الذي يرفض أن يغادر البناية ص٢٣).

فالكاتب بأستثناء هذا المشهد يتعامل مع المكان بشكل تغريبي بما يتيح له تحقيق حالة مزج الماضي بالحاضر، مستشرفاً آفاق المستقبل. دون رسم ملامح واضحة. أو محددة، كيما يتحقق الفعل الغرائبي. على مساحة المكان ذي الملامح المغيبة.

وإذا كان الكاتب قد ركز على قصر مشعان وزوجته فانه يقف عند حدود إعلامنا أن زوج نجمة السابق قد تحول إلى متصوف، تاركاً وراءه كل شيء. دون الاشارة إلى مايمكن أن يكون قد دفعه بهذا الاتجاه. ودون أن يكون لهذا التحول تأثيراً على العمل.

وفي الوقت الذي يستمر فعل التداعي عند جوجي الذي (ولد وتعرف على الأشياء، بذاكرة، اسلافه اللعينة التي تنقل الأحداث بطريقة تختلط فيها الأكاذيب بالحقائق والأوهام بالوقائع ص٢٩). ثمة عودة أخرى طويلة نسبياً إلى الزنزانة مع محاولة لالتقاط المزيد من تفاصيل الحياة اليومية داخلها. فبالتركيز على وصف الزنزانة يحاول الكاتب

الامعان في إظهار حالة القلق والخوف التي تتلبس جوجي الذاهب للقاء عبد الله الحازم المحاصر برفوف الكتب وأكوامها على الارض. الذي يتميز بعدم اهتمامه المفرط بالخارج. على العكس من جوجي الذي تعذبه حساسيته المفرطة. إن عدم اهتمام عبدالله الحازم بالخارج، كنموذج للقارىء المثقف، يصور لنا غربته عن الواقع الذي يتقاطع من حيث لاتجد أفكاره صداها في بيئته، التي تدفعه لعدم الانتماء إليها، لذا فهو غير مكترث تماماً بما يجري فيها من أحداث، وكأنه خارج الزمان والمكان.

وإمعاناً في تقريب شخصية (عبدالله الحازم) فقد اختار الكاتب مكان إقامتها في الطابق الأول من المنزل، الذي يشغل طابقه العلوي مجموعة مجانين. الذين يقع سلوكهم أيضاً خارج اليومي والمألوف لحياة الآخرين.

في المشهد الثاني يعقد الكاتب مقارنة بين الأم الأرملة والعقيد وابنتها وخطيبها المغيب في السجن. إنها مقارنة بين العهر وما ينطوي عليه من ازدواجية. فالأم التي تمتهن العهر تبدو (في الصباح سيدة تفي بنذورها عن الأئمة الذين زاروها في المنام ص٤٤) والعقيد الذي يمارس سطوته العسكرية على من هم أقل رتبة يسمح لهذه الأرملة كما لمن هم أعلى رتبة منه لامتهانه.

والعقيد الذي لاتخبرنا الرواية وصفه الاجتماعي، لابد بحكم عمره ووظيفته أن يكون متزوجاً. وهنا يقع العقيد مرة أخرى في فخ الازدواجية، بين الزوجة والعاهرة. في الوقت الذي تفكر فيه الابنة سمية بخطيبها (ناجي الأمير) بتلك العلاقة المبنية على لحظة دفء واحدة. فقد استنزفها الخيال مما دفعها للذهاب إلى (مجودي الرسام) من أجل الحصول على صورة ناجي لأرواء ظمأها.

يتواصل فعل التداعي عند جوجي وعبدالله الحازم وتمضي ساعات الليلة التي يقع فيها الحدث، لننتقل عبر المكان بين الشوارع / حارة النجارين / مقبرة الصلبان / برج المراقبة الغربي / المحطة الشمالية. ثم نرى جعاميد كاظم البكاء وهي تنطلق من أقفاصها حتى قيامة (إبراهيم العودة) الغريبة ثم ظهور مجودي الرسام وهو ينفث دخان سيجارته بعصبية.

ماالذي حدث؟ إن القارىء أمام هذا السيل المتدفق سيكون بحاجة لألتقاط أنفاسه. من أجل ملاحقة مايقع وسط ضبابية الحلم الذي يسيطر على المشهد. ولكن هل أراد الكاتب لقيامة (إبراهيم العودة) أن تكون إيذاناً للقارىء لما سيقع من تصعيد للهمهمات البعيدة المكتومة القادمة من المشهد الرابع حيث تتحول الأصوات إلى جلبة عنيفة دفعها الريح لتملأ بها الحواري والأزقة والبيوت. سحب دخان، صراخ، رصاص، هتافات و(سمية) مستسلمة

للرجل العشرين من طابور مغتصبيها، بينما الأم غارقة في بركة من الدماء والمني.

في المشهد الأخير، بينما تشارف الليلة التي شهدت كل الغرائب المتآخية على نهايتها (انهار الصمت انهيار القشرة عن كرة متوهجة) واختفت الملامح، فالكاتب اذ حرص على أن تبقى كل خيوط الرواية بيده طيلة ساعات مابعد الحدث يتركها فجأة ليرتبك المشهد، وتتصاعد الأحداث. وتتعالى بطريقة لايمكن الاحاطة بها. لولا قدرته على ضبط كاميرته. التي أجاد استخدامها، طيلة ساعات تلك الليلة. كما إن زج نزلاء مستشفى المجانين والعزل، قد أضفى تداخلاً غريباً على مشهد الجموع. وهي في لحظة الانفجار، ليظهر جوجي مستغرقاً في بكائه. بينما يقف عبدالله الحازم مطرقاً لينخرط هو الآخر ببكاء. كأن ليس في العالم ما يمكن أن يغسل أحزانهما سوى هذه الدموع، التي ظلت تنتظر لحظة انهمارهما من عيون عبدالله الحازم. ثم تنتهي الرواية (بارتخاء يد هاشمية عن سلة الخبز لتسقط أمامها مباشرة بعد أن شعرت بحرارة الشمس تلفح وجهها وسمعت صخب الجنود يعود وتعلو أصوات المحركات في المحطة الشمالية ص٩٥).

ان الكاتب وهو يجتهد في بناء مدينته التي تتوسط الحلم ـــ الواقع، بلغة جميلة، احتشدت بشخصياتها المختلفة، إذ لم يُتَحْ له التوقف عندها. فقد اضطر لمغادرتها سريعاً، وهو في غمرة ملاحقته الحدث، لذا فإن تصاعد الرواية يكاد يكون عمودياً.

إن عدم محاولة الكاتب للتوقف عند بعض الشخصيات، والدخول إلى عوالمها التي ظلت كما لو أنها مجرد رموز، كان يمكن أن يتيح للعمل اتساعاً أفقياً. بما كان سيمنحه قدرة. لعبور الهارموني، دون الاكتفاء باستخدام تكنيك اللقطة السينمائية، أو تغير بعض أجزاء المكان، كما يحدث في المسرح لمرافقة الشخصيات في رحلتها اليومية والتعرف إليها كنماذج نجد ملامحها في الكثير من الناس الحقيقيين. الذين نعيش معهم، ولربما كان أحدهم قريب الشبه بنا. هي رحلة معاينة واكتشاف في أجواء الحلم والغرائبية. فما يبدو للقارئ أنه غرائبي، هو الوجه الثاني للواقع ببعده المأساوي وبالعكس.

إذن هي ليست رحلة من أجل البحث عن يقين. ليست هناك إجابات نهائية، كما ليس هناك حلولاً. لذا تنتهي الرواية دون أن تشعر بذلك. إذ أن ثمة عالم تنقله لنا عدسة الكاتب فقد كان بمقدوره استخدام (الزوم) لالتقاط تفاصيل أكثر دقة، ناهيك عن أن الشخصيات كان يمكن لها أن تمضي أبعد سواء على صعيد الحركة أو الحوار. فشخصيات مثل (كاظم البكاء ـ هاشمية العمياء ـ الاخوة المجانين ـ إبراهيم العودة ـ سمية ـ غريب الحفار) ظلت شخصيات محدودة التأثير في الرواية كان بالامكان استثمار وجودها بشكل أكثر عمقاً

بما تنطوي عليه من تجارب يمكنها أن تُغني العمل.

كما أن هناك ملاحظة لابد منها تنسحب على هذه الرواية بشكل أو بآخر وهي أن أجواء الحرب التي عاشها العراقي لابد ان تلقى بظلالها على مجمل حياته الآتية، ربما لفترات قد تطول أو تقصر تبعاً لطبيعة ذلك الانسان وموقعه من الأحداث، وموقفه منها. . . والكاتب بطبيعة الحال. ربما سيكون أكثر أولئك الأشخاص الذين تنسحب على حياته وطريقة تفكيره واداء ما سببته الحرب من دمار وتشويه. قدر له مشاهدته بحساسية عالية إضافة إلى تفاصيل الحياة اليومية وضغوطاتها المختلفة. لهذا فان ظهور السياسي سيكون أمراً وارداً في الكثير من الأعمال الأدبية. بيد أن النأي عن السياسي قضية ينبغي الالتفات إليها وإيلائها أهمية خاصة من أجل إفساح المجال أمام الفن للتعبير بشكل أكثر رقياً من مجرد الاحتجاج السياسي. لذا فبقدر انزواء السياسي من واجهة الأعمال الأدبية فأننا ـ بتقديري ـ سنحظى باعمال تتوفر على فنية عالية من شأنها أن تشكل تجارب متميزة في الابداع الأدبي والفني.

أخيراً تبقى رواية «قلعة محمد الباب» لحسن ناصر حسين عملاً جميلاً يستحق القراءة فهو يمنح متعة في التصوير بلغة جميلة معبرة بصفاء ووضوح دونما ترهل أو إطالة. كما تخبرنا قلعة محمد الباب بان حسن ناصر حسين يمكن ان يكون مشروع روائي بعد محاولات ناجحة في مجال القصة.

سيدني/ استراليا